الحادثة

دار رواية للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

2012

الحادثة

أحمد إبراهيم إسماعيل

الطبعة الأولى / 2012

دار رواية للنشر

ت : 01281616799

غلاف : كريم آدم

مصحح لغوي: محمد حازم

مدير الدار : أ. محمد إبراهيم محروس

رقابة إدارية وفنية: أ. عمرو المنوفي

رقم إيداع : 20225/ 2012

ترقيم دولي: 0– 22 – 6395– 977 – 978

Email : rewaya12@hotmail.com

Email : rewaya1@gmail.com

أحمد إبراهيم إسماعيل

الحادثة

دار رواية للنشر والتوزيع

2012

إهداء

ليس إهداء بقدر ما هو اعتراف بفضل، ليس إطراء بقدر ما هو جهر بحقيقة، لم يكن الأمر محاولة لرد جميل أو موازنة لكفة العطاء وأبدا لن يكون، من ذا الذي تضمه سجلات الأحياء أو الأموات قد وفى لأبويه جزءا من حق عليه؟ وحيث أن الإجابة دائما بالنفي، فمازال لكاتب الكلمات الكثير مما يمكن فعله لقرون حتى ينجح في وضع عطاءه في كفة تبدو أمام نظيرتها قزما في وجه عملاق، أبواي العظيمان من ابتهال لسانكما ظلتني من الخالق رأفة ومن رفع أكفكما نالني منه فتح، وليس لظليل العطاء أو نائل الفتح رغبة أسمى من دوامهما على لسانيكما وكفيّكما.

(1)

هدوء يلائمه إلى حد كبير وصف القاتل، استشرى تحت مظلة سماء قد زخرت بالكثير من سحب لازالت على حالها من الفيض بماء منهمر منذ ساعات، تتابع من بينها صرخات رعد تجلى في نبراته غضب الأقدار وقد خللته رياح بالغت في إظهار قوتها وجبروتها فكان ذهابها بما كسا الشوارع من أتربة على أفضل ما يكون الكنَاسون، لم تكن تلك الصورة الشاتية المخيفة لليل بارد لتكتمل بالطبع دون بريق أضاء سمائها وأرضها وما بينهما على حد سواء، منبته برق قستْ أضواؤه بشدة على الخلائق في ذلك الليل، وهو الذي لا يزال يمارس هوايته في بث ذلك الإحساس المعتاد بالخوف من المنتظر بعده في نفوس متابعيه، لم تنجح جذوع الأشجار وفروعها كثيرًا في الإبقاء على ثباتها الجميل وشموخها الأجمل وسط تلك التهديدات الطبيعية لجمال كوني معتاد في ظل هذا المزيج المخيف من أمطار منهمرة ورعد مزعج وبرق مخيف لسماوات ثرية الغيوم افتقدت قمرها كثيرا في آخر الليالي، غير أنها ضمت القلائل من عائدين إلى مبيتهم الذي اشتاقوا لدفئه بعد ساعات متواصلة من شقاء فرضته عليهم صعوبة حياتهم الشاملة لأعمال أصعب، تتابعهم عن بعد عبر نوافذ لمعت - على زجاجها قطرات الأمطار - عيون من سبقوهم إلى ذلك الملجأ الدافئ، وهم يرشفون ما أُتيح لأهل الطبقة المتوسطة من مشروبات دافئة اعتادوا عليها في مثل هذه الأجواء، تمضى الدقائق بطيئة كعادة دقائق الشتاء على الجميع

سائرين ومتابعين، محتمين من الأمطار وآملين في الاحتماء منها في قادم الدقائق وآتي الساعات، وبين السير والمتابعة بقى أمنية الصنفين بسماء عائدة أطيارها إلى التغريد، بين الاحتماء والأمل تظل رغبة الفريقين بشوارع عائدة أركانها إلى الجفاف، لم يكن ذلك الضجيج الطبيعي وخليله من الهدوء البشرى بالغريبين على ذلك البناء الأبيض ذي الفناء الأخضر الواسع والبوابة الشاهقة السوداء، اعتاده نزلاؤه من المرضى وألفه أبناؤه من أهل الطب، ولم يعد غريبًا على روادها من الزائرين معايشة ذلك الضجيج وهذا الهدوء..

مستشفى قاهري تواجد في وسط العاصمة المصرية منذ سنوات، لا يبدو من تهالك مبناه وصدأ بوابته أنه قد شُيِّد لاستقبال الآملين في الشفاء، غير أن مرضاه قد استعاضوا عن التهالك والصدأ بذلك الفناء الزاهر المريحة خضرته لنفوس الناظرين في نهار غائم، المخيفة شساعته لأعين الرائين في ليل غاضب، اختلفت الأردية بطبيعة الحال باختلاف المتواجدين داخل الأسوار، بين بياض لملابس أطبائها وممرضيها، وتباين لألوان الآخرين من المرضى والزائرين.

لم يكن الحال داخل جدران ذلك البناء بأفضل كثيرًا عن خارجه، غير أنها حظيت بداخلها ببعض الأفضلية على كل حال، هدوء فرضته حالة الجو وتأخر التوقيت إلاّ من حركة بسيطة خلفتها تلك الخطوات الروتينية لبعض الأطباء والممرضين؛ لتفقد حالة المرضى، لم يكن حال تلك الحجرة في آخر أحد ممرات الطوارئ بمختلف كثيرًا عن غيرها

من الضامات لحالات الحوادث، رجل في أواخر ثلاثينيات عمره قــد افترش سريرها الأبيض الصغير، يبدو على حالته وقد فقد وعيه تمامًــا، أنه ضحية حادث خطير، وجه حق وصفه بالمهشم، وقــد نــال مــن الأربطة حظًا وفيرًا إلاّ من عينيه ومنخاريه وفمه، يــدان افترشــتا في استسلام إلى جوار جسدهما الواهن، وقد اخترقــت يمناهمــا بعــض خراطيم من تلك المتعارف عليها بين أهل الطب، بدا جليًّا من اهتمــام الأطباء به أنه قد صارع الموت مدة يومين تواجد خلالهــا بــين تلــك الجدران، بل على الأرجح أنه لا يزال يصارعه.

الأحاديث حوله وحول ما كان من أمره وما يُتوقع أن يكون من أمره لا تنقطع، ومنها ذلك الحديث الجاري على رأسه بين اثنين من الأطباء، والذي يبدو على أحدهما أنه أكثر دراية بحالة ذلك المصاب من مخاطبه الذي بادره قائلا:

- ألاّ زال فاقدا للوعي؟

- لم تطل أقصى استفاقة له أكثر من دقائق معدودة طــوال اليــومين السابقين، نطق خلالها بعض الكلمات الــتي لم تســمح لنــا آذاننــا باستيضاح ما حوته من المعاني، كأنه المتحدث عن شخص ما، لم نستبن من كلماته أكثر من ذلك..

عقد الطبيب الثاني حاجبيه، وقد ضاقت عيناه، واشتبكت أصــابعه في هيئة مجسدة للاستغراب متسائلا:

- شخص ما؟

- نعم، انحسرت كلماته في ذكر كلمة واحدة لاسم واحد، ظل يردد (كريمة)، (كريمة)، قبل أن يغيب من جديد عن وعيه حتى لحظة حديثنا تلك.

- أمر داعٍ للحيرة بالفعل، ألم تجدوا بين ثيابه شــيئًا ذا قيمــة يثبــت شخصيته؟

هزّ الآخر رقبته وقد تعانقت شفتاه بشدة، حتى بات ظهورهمــا مجــرد خط دقيق، وقد ارتفع كتفاه واتسع محيط يده قبل أن يكون رده:

- الإجابة لا بكل أسف، لم نجد في جيوب معطفه هذا إلاّ ورقة صغيرة ضمت أرقامًا كأنها تاريخ ما، وقد زيلها اسم (علاء)، إضافة إلى صورة قديمة قد حفها خط أسود صغير إشارة لمفارقة صاحبها للحياة منذ عهد بعيد، كما هو ظاهر من قِدم الصورة وتهالكها.

- ما أعجب حالة هذا المصاب، لا بأس بكل ذلك على أية حــال، إن استمرت حالته على استقرارها الذي تشهده الآن، فســتكون إفاقتــه ظهر الغد إن شاء الله، ساعتها نستطيع استبيان ما وراءه من الحقــائق، فمن يدرى ربما كان هاربًا من العدالة أو شيء كهذا، لربمــا احتجنــا لاستدعاء الشرطة للكشف عن حقيقته إن لزم الأمر.

- دعنا لا نتعجل الأمور، ولننتظر ما ستسفر عنه إفاقته.

(2)

لم يكن الحال قبل يومين بأفضل كثيرًا بالنسبة لهذا المصاب غريب الأطوار، خرج إلى فضاء الشارع في وقت يسعى فيه الجميع إلى اجتنابه، كان منظره يوحي للرائي بمصيبة ما حلت للتو فوق رأسه قبل وقت ليس بالطويل، ظهر كأنه صورة مجسدة للغموض، سترة سوداء يرتديها الكثيرون في مثل هذه الأجواء القاسية، وإن كان لا يعبأ كثيرًا بما أحاط به من قسوتها، وضع يديه في جيبي معطفه، وقد بدا بوضوح انكساره الجلي في طأطأة رأسه للأسفل، بعدما بدت عيناه كعيني تمثال لا يعهد حاجباها حركتهما من العلو والهبوط، ولا تمارس أجفانها طبيعتها من انفتاح وانغلاق، خطوات وئيدة لا تعرف أقدامها الخاطية لها نهاية، ولا تعلم عيناها المظلتان لها هدف، تراه قد غضَّ الطرف عن تلك القطرات المتتابعة من الأمطار السائلة على جبهته، ثم عينيه، ثم خديه، بعدما وجدت طريقها بين خصلات شعره اللا طويل اللا قصير، بدأ معدل بطئ سيره يزيد إلى حد ملحوظ حتى انتهى إلى وقوفه أخيرًا، وقف تائهًا وسط غيومه وأمطاره وبرقه ورعده، الأمر بالنسبة له لا يتعدى كونه تعبيرًا عما يدور بداخله عن أحزان كثيفة ككثافة الغيوم، أشجان غزيرة غزارة الأمطار، هموم مخيفة إخافة البرق، وأخيرًا استوطنته تلك المشاعر المتداخلة لغضب هو الأشبه بغضب صرخات الرعد التي أحاطت المكان، الدروب كلها كأنها المنبثقة من رحم الإبهام، والطرق جميعها كأنها النابتة من فم المجهول، وهو بين إبهام

الدروب ومجهول الطرق لا يملك الخيار برسم خطواته على تراب أحداها، لم يعد ذلك يشكل لديه فارقًا كبيرًا الآن، وهو الذي تاه مرارًا بين سبل من قسوة الأيام وأخرى من سطوة الليالي، لم يدرِ بنفسه إلا سائرًا في ذلك الطريق الطويل غير ممهد الخطوات غير منير الجوانب،

لا يبدو الطريق خاليًا تمامًا من المارة، غير أنه على وشك الخلو إلاّ من ذلك الوحيد، لا يبدو من حركته الأقرب للسكون أنه على دراية بذلك السائر الغريب الذي يتبعه كمراقب من مسافة كافية؛ لجعله يستبعد فكرة مراقبته تلك من الأساس، فهو بالأحرى لا يلتفت لأي من رواد الطريق أصلاً، وقد شغله عن ذلك من الهموم ما قد أخرجه إلى طريق غريب كهذا في مناخ أغرب كهذا في توقيت هو الأقرب للغرابة من غيره...

لم يكن يبدو على هيأة ذلك المراقب أنه قد أراد بمن يراقبه شرًا، فقط الكثير من الفضول الذي دفعه لتعقبه، وكأنه قد اشتبه بشخص يعرفه، بل ويحفظه عن ظهر قلب مادام قد تعرف على ظهره دون وجهه، وأثاره سكونه قبل حركته.

الأمر على كل حال في طريقه للانكشاف، وقد أوشك ذلك الشارع الطويل على هجر كل سائريه له إلاّ من هذين السائرين غريبي الأطوار، الوضع كما هو عليه من سير بطئ فاقد للمقصد من أولهما وتفنن واجتهاد في إخفاء نظرات التحقق والمراقبة من الآخر، وقد غفل الاثنان عن ذلك السائر الثالث الذي لم تغفل عن كليهما عيناه

الجاحظتان، تابع سيرهما منذ فترة ليست بالقصيرة، السير كان أشبه بعقد صغير جسّد أول حباته ذلك السائر الحزين غير المدرك لوجود مراقبيه، وعن أوسط العقد ذلك المراقب ذلك المراقب الأول المتابع لسير من يراقبه من البداية، فقد بدت عليه رغبة تلح عليه في الاقتراب الحذِر منه، وإن آثر الانتظار بعدما تغلب خوفه على رغبته وتمكن تردده من مراده، أما عن ثالث حبات العقد فكان ذلك الغريب الثالث المتابع لمن أمامه من سائرين اهتم لهما ولسيرهما منذ فترة.

وضع غريب ملائم لتلك الأجواء الباردة المخيفة والطرق الخالية الأكثر إخافة...لم يكن ينقصها إلاّ بعض الضوضاء المفاجئة؛ لإضافة بعض الإثارة الدراماتيكية كاسرة ذلك الحاجز الممل من الهدوء القاتل البالغة حدته سماع صوت ارتطام حبات المطر بالأرض تحتضنها في حنان؛ لتختفي بين أخواتها من حبات مماثلة في ذلك المزيج المائي الذي بدأ يرتفع عن سطح الأرض بسمك غير قليل.

لم يكن على الثلاثة الانتظار كثيرًا؛ ليشهدوا تلك الإثارة الواضعة حدًا لما هم فيه من منوال هادئ، لكنها كانت الإثارة الأسوأ، التي لم تعانق تخيلات أحد من ثلاثتهم، وكأن القدر الأعلى قد آثر انتهاء تلك اللحظات من المراقبة المريبة وإبدالها بنظيرتها من الأحداث المتسارعة، سيارة طائشة سوداء اللون مجنونة السائق قد أغرقتها الأمطار تمامًا حتى بدت كأنها قد التفحت برداء لامع من الماء، لا يبدو على قائدها من جنون قيادته وضوضاء مذياعه المتلاحقة أغانيه أنه في كامل وعيه

وسلامة إدراكه، بات لا يرى أمامه إلاّ طريقًا واسعًا خاليًا، صوَّره له خياله المخمور، أو بمعنى أدق لا يريد أن يرى إلاّ ذلك النوع الخيالي من طرق لا تحتضنها أحياء القاهرة بأية حال من الأحوال، لم يكن من الغريب أو غير المنتظر من سيارة بتلك المواصفات أن يؤدى بها سُكر صاحبها إلى تصادم عنيف غير مأمون العاقبة غير محسوب الخواتيم، ذلك التصادم الذي اختارت الأقدار ذلك المسكين أول الثلاثة السائرين ليكون طرفه الثاني، أفاق فجأة من تخيلات ذاكرته وتشتيتات ذهنه على ذلك الصوت المزعج لاحتكاك عجلات السيارة بسطح الطريق إثر محاولة فاشلة لإيقاف السيارة من صاحبها الذي تأخرتْ كثيرًا إفاقته، لم تُجدِ تنبيهات بعض المحيطين نفعًا، ومنهم ذلك المراقب الأول الذي علا صوته بشدة منبهًا ذلك المصدوم الذي لم ينتبه لتحذيراته، وقد أغرقته خيالاته وتشتيتاته.

كان صدامًا أفظع من أن يكون ضحيته شخص واحد رغم كونه كذلك، الأمر لم يستغرق أكثر من ثوان تحصيها أصابع يد واحدة، انطلق بعدها صاحب السيارة فارّا من جريمة لا يعهدها كثيرًا هدوء مثل تلك الليالي، تاركًا ضحيته غارقًا في دمائه على جانب الطريق، وقد غاب عن الوعي تمامًا.

(3)

سير عجيب ومراقبات أعجب وأشخاص أعجب وأعجب، لينتهي الأمر بكل العجائب إلى حادثة كانت السبب في رقود ذلك المصاب على أحد الأسرّة بمستشفى حكومي غير مدرك لما كان من سيره أو مراقبته أو حادثته، بل على الأرجح أن كل تلك الأحداث وما قبلها قد اندثرت من ذاكرته إلى دهاليز من النسيان التام!

إنه أخيرًا ذلك الصباح الذي انتظره الجميع بعد ثلاثة أيام من وقوع ذلك الحادث، الكل بانتظار استفاقة متوقعة لذلك المصاب؛ لاكتشاف ما وراءه من إبهام هويته وفراغ جيوبه من أي دليل يوصل إلى أحد ذي صلة به من أقارب أو معارف إلاّ من صورة قديمة وورقة لا يظنها الكثيرون ذات قيمة تُذكر، بدا عليه حين انفصلت أجفانه كاشفة عن عينين ضاقتا في تعجب أنه أحد المبعوثين من العالم الآخر إلى عالم الأحياء، كأنه به حين يتلفت بصعوبة إلى ما حوله أنه أحد المسافرين عبر الأزمان، وقد ألقى به سفره إلى زمن لا يعرف عن أهله أو أيامه شيئًا، لم يصبر كثيرًا على ذلك الحال الذي بدا له غريبًا حتى تحرك لسانه أخيرًا في خفوت متسائلا في ضعف:

-أين، أين أنا؟

قالها قبل أن يمسك رأسه المربوط عن آخره بكلتا يديه، وكأن النطق قد اقتطع من رأسه جزءًا، حتى جاءه الرد سريعًا من أحد الطبيبين المنتظرين لاستفاقته تلك بفارغ الصبر:

- لا تجهد نفسك بالحديث كثيرًا يا عزيزي، لا تجهد نفسك، فقط في حدود ما تستطيع، على كل حال حمدًا لله على سلامتك يا......عذرًا لم نعثر على شيء يثبت شخصيتك نتبين من خلاله اسمك.

أفاق من ألمه وقد تباعدت يداه عن رأسه، واتسعت عيناه قبل أن يرفع رأسه المنحنى كأنه قد انتبه لشيء ما غريب أو مفاجئ، قبل أن يتساءل:

- أسمي؟

نظر الطبيبان لبعضهما قبل أن يرد أحدهما في نبرة هي الأقرب للخوف من وقوع إصابة توقعها ولا يتمناها قائلا:

- نعم، اسمك، ألاّ تذكر اسمك؟

استمر تعلق المصاب به لحظات قبل أن يعود إلى هيئته السابقة من إمساكه برأسه، وكأنه المتغاضي عن السؤال أو غير الراغب في إجابته، ذلك التصرف الذي انتبه له الطبيبان، فكان تصرف الطبيب الآخر الذي أسرع قائلاً بعدما تبادل مع زميله بعض النظرات:

- وجدنا بين ثيابك هذه الورقة، قد تكون ذا قيمة لك، تفضل.

تناولها وظل يتأملها دون إبداء أي رد فعل قبل أن يباغته بالصورة قائلا:

- تلك الصورة أيضًا، يبدو أن صاحبها يمثل لك قيمة غالية كافية لاحتفاظك بها هكذا.

كلمات يلفظها ذلك الطبيب لا تجد من ردود ذلك التائــه إلاّ نفــس التأمل الطويل لتلك المتعلقات التي وجدوها بــين ثيابــه، ثم نظــرات قصيرة إلى الطبيبين دون إبداء أي ملاحظات، وكأنه أراد انصــرافهما ليخلو بنفسه، فطن الطبيبان على كل حال إلى رغبته الغريبــة تلــك، فآثر أحدهما تحقيقها فكان قوله بعد نظرات الاستغراب المشوب بالقلق بينه وبين صديقه:

-لا بأس، عليك الآن بالراحة التامة، وليكن إكمــال حــديثنا في آن آخر إن شاء الله..

قالها وأعطياه ظهره للانصراف تتابعهما عيناه من بين ما يحيطهما مــن أربطة، وكأنه المنتظر لذلك الانصراف المرتاح لتحقيقه.

(4)

لا زال الأمر يخيم بإبهامه على تفكير هذين الطبيبين بعــد مغادرتهمــا، أحدهما غلبه الصمت بشدة، فكان سيره كقطعة من بركــان لا يعــبر ظاهرها الصامت عن باطنها المتأجج بالتخمينات، يتابعه صديقه الــذي داهمه بسؤاله:

- أتراك قادك تفكيرك إلى ذات الهدف الذي قادني تفكيري إليه؟

- وما تراها تكون ماهية ذلك الهدف؟

- أهو، فقدان الذاكرة؟

- قد يبدو ذلك منطقيًا نوعًا ما، غير أني استبعده.

ضاقت عينا الطبيب السائل، وقد سأل في استغراب:

- تستبعده؟ لابد إذن من وجود تفسير قد استعمر تفكيرك وجعلــك في تلك الحالة من الشرود يا عزيزي..

توقف ذلك الطبيب الشارد عن السير وقد التفت إلى صديقه قائلاً:

- نحن الآن أمام تفسيرين لا ثالث لهما، إما أن يكون الأمر كما تقول ونكون الآن أمام مصاب عادى في حادث كغيره امتدت إصــابته إلى فقدان الذاكرة، وإما...

- وإما ماذا؟

- وإما أن يكون مجرمًا خطيرًا أرسلته الأقدار إلى هنا دون إرادة منــه، ويسعى الآن بكل ما يملك من دهاء إجرامي إلى سير الأمــور بهــدوء

وغموض على حد سواء حتى يتسنى له الخروج من مأزقه ذاك في سلام.

لاقت الكلمات صدى مسموعا وبشدة لدى مسامع ذلك الطبيب الآخر الذي هالته تفسيرات زميله الأقرب إلى السينمائية، غير أنه استبعد ذلك الرأي الثاني قائلاً:

- لا يا صديقي، لا أظن الأمر بهذا التعقيد الذي تراه، لا يبدو عليه من ملامح الأجرام شيئًا مما تذكره.

- بل إني لا أظنه إلاّ بذلك التعقيد، ما بمثل هذا المنظور السطحي تُنظر مثل تلك الأمور يا صديقي، أمثال هؤلاء يلقون من الحيل ما يجعلك من الوهلة الأولى تظنه من أصحاب البراءة وأرباب السلام وهم الأبعد عن الصفتين من غيرهم وبفارق كبير.

- أراك متحاملاً عليه إلى حد كبير!

- ليس تحاملاً بالطبع، لكنه فقط الحرص من وقوعنا فيما لا نرجو عواقبه.

- وماذا تنوي أن تفعل؟

- سأستعين بالوحيد القادر على اكتشاف ما وراء مثل تلك النوعيات.

- ماذا؟ من تراه يكون ذلك؟

- صديق قديم معتاد على التعامل مع مثل هؤلاء الغامضين، الضابط (مازن السيد)، أظنني ذكرت سيرته أمامك قبل الآن.

- ماذا؟ ضابط ؟ ألهذا الحد؟

- لا أرى في ذلك غضاضة، فقط مقابلة صغيرة بينهما كفيلة بكشف ما نجهله من الحقائق عن هذا الغريب.

أطرق الطبيب الثاني رأسه ، وقد زادت حدة فركه لذقنه بأصابعه يفكر في كلام صديقه قبل أن يرفع رأسه من جديد قائلاً:

- لا بأس بذلك، تبقى مجرد محاولة لا ضرر من ورائها مادامت لم تخرج عن النطاق الودي.

(5)

لا زال ذلك المصاب غريب الأطوار على حاله من تفكير مستمر، بات على يقين أنه في خطر داهم وإن لم يعلم مصدره، وكأنه القارئ لأفكار طبيبيه هذين الصابة في اتهامه بالتخفي والإجرام، لم يدرِ بنفسه إلاّ محدثًا أفكاره المتخبطة وأحاسيسه المتشابكة قائلاً:

- ما هذا الجنون بحق السماء؟ كأني لم أكن متواجدًا بين سجلات الأحياء قبل يومي هذا، وكأني من مواليد الساعات الماضية وليس كما يبدو أنني من أصحاب العقود، من يكون ذلك العجوز في هذه الصورة ؟ ومن يكون ذلك الاسم في تلك الورقة؟ أهو كابوس سخيف أعيشه الآن بلا قدرة مني على الاستيقاظ أو استطاعة للإفاقة؟ ما تكون قصتك يا....

قالها وأمسك رأسه قبل أن يستطرد قائلاً:

- اللعنة! أنا حتى لا أذكر لي اسما، كأني مسافر بين أمواج من الظلمات وقد حللت لتوي على شاطئ جديد، لا تراودني أي من ذكريات أخرى عن أسفاري السابقة، لا أدرى أي الشواطئ حططت عليه رحالي قبل شاطئي هذا، أي السفن شددت على متنها عزمي قبل سفينتي هذه...بل وأجهل كل شيء عن سالف رحلاتي التي سبقت رحلتي الجديدة تلك الموشكة على بداية لا أعلم نهايتها...

أهو كابوس أم تخيل؟ أم يكون الواقع الأكثر إيلامًا من الخيارين هو الحقيقة التي لابد منها، يبدو أن الجواب الأمثل يكمن في ثالث تلك الخيارات، واقع غريب وحقيقة مبهمة..

لم يستطع السيطرة على عبراته بعد كلماته هذه أكثر من ذلك، فكان تساقطها الأشبه بقناتين صغيرتين شقتهما في خديه عيناه الباديتان كنبعين فاضا بخيرات مما حوته أعماقها حزينة الأجواف، فكان بكاؤه الشديد مناجيًا ربه:

- اللهم فرج عن عبدك هذا الذي لا يعلم عن نفسه شيئًا ما قد أحاط به من الهموم، أمنية واحدة بات يحملها ولا ينتظر بعدها جديد الأمنيات، يريد فقط معرفة اسمه، من يكون؟ من أكون؟؟

لم يمكث كثيرًا حتى جاءه ذلك الرد المفاجئ لذلك الواقف على رأسه يرتدى ملابس العاملين بالمستشفى قائلاً:

- (عبد الرحمن)!

انتبه فزعًا وقد جحظت عيناه، وتراجع ظهره قليلاً إلى الخلف في هيأة الذي بات على قناعة تامة أنه في حلم سخيف طالت غفوة صاحبه قائلاً:

-مَنْ، مَنْ أنتَ؟ وكيف دخلت إلى هنا؟ ومن تقصد بهذا الاسم؟

(6)

أمر ذلك المصاب المجهول يسيطر الآن على لُب طبيبه الذي قرر الاستعانة بصديقه الضابط بشدة تدعو للتعجب، شعور غريب لا يلائم الوضع القائم لضحية في حادث التحليل الأقوى طبيًا لإصابته أنه فاقد للذاكرة لا أكثر، لكنه الشك المريب غير المستند إلى دليل غير المعتمد على برهان، لم ينتظر كثيرًا على كل حال لعرض الأمر على صديقه الضابط، كما خطط قبل وقت قصير، فاجأه في مكتبه الذي لم تطأه قدماه قبل وقت ليس بالقصير؛ ليجد ذلك الترحاب المعتاد من صديقه، الذي بدا في تناسق ملابسه، في بساطة ووسامة ملامحه، في هدوء كأنه استثناء لأهل ذلك القطاع الأمني المحاط بأسوار الفساد، وجه تعرفه بمصريته حين ينتفض ملاحقًا المهدد لأمن أحدهم المروع لاطمئنان آخر، وهو بين التهديد والترويع قد بنى من عزمه وعزم رجاله حائطًا يمنع وصول كليهما للمسئول عنهم من المواطنين، لم يكن الضابط (مازن السيد) بحاجة لإطراء رئيس أو رياء مسئول وهو الذي ينعم بشهادة الجميع حتى أعدائه بسير وئيد في طرقات الاستقامة، كانت جلسته المعتادة في صباح ذلك اليوم، وقد علت يمنى قدميه يسراهما بما لا يضر بأناقته، محتسيًا كوباً صغيرًا من مشروب أعده له عامله يستعين به على ساعات من العمل، اتصل بها ظلام الليل بأنوار النهار، قبل أن يبتسم بشدة لمقدم صديقه قائلاً:

- ها قد تذكرت أخيرًا أن لك صديقًا يسمى (مازن) يا حضرة الطبيب ؟!

- أعلم أن الغيبة قد طالت، لكن اعذرني يا صديقي، فما يمنعني عنك غير عمل متواصل لا أكاد أفرغ منه.

- كان الله في العون يا عزيزي، لعلها زيارة تحمل الخير، ولو أن صوتك في الهاتف قبل مجيئك وهيئتك الآن لا يوحيان بذلك..

- والله يا صديقي إني لا أدرى أكان خيرًا أم غير ذلك، أكان واقعًا أم أنه فقط بعض من إيحاءات الأبالسة لا صلة له بالواقع.

عقد الضابط حاجبيه، وقد تشابكت أصابع كفيه وعاد مستندا بظهره إلى كرسيه متسائلا:

- أهو لغز أم بداية لفيلم سينمائي؟

- حتى هذه اللحظة لا أجد له المسمى المناسب يا صديقي.

-كلامك بحاجة لإيضاح أكثر!

- دعني إذن أقص عليك الأمر من بدايته، لعلّي أجد في جعبتك نهاية لشكوكي.

-كلي آذان مصغية يا صديقي

(7)

لم يفطن ذلك المصاب لدخول ذلك الرجل الغريب إلى حجرته، واقترابه من سريره إلى حد كادا فيه يتلامسان، حتى نبهه لي وجوده ظله الآخذ في الاقتراب وصوته المجيب على سؤاله لنفسه منفردًا قبل قليل، شغله شروده في إبهام هويته وأمله في كشف ذلك الغموض بأسرع وقت قبل أن يصيبه الجنون، هاله في البداية ذلك الظهور المفاجئ لذلك الرجل غير أنه تماسك أو بمعنى أدق تظاهر بالتماسك متسائلاً عن هوية ذلك الغريب وذلك الاسم الذي نطق به، إضافة للطريقة الغريبة التي تواجد بها أمام ناظريه، قبل أن يأتيه الرد في هدوء خارجا من ثغر باسم لذلك الرجل قائلاً:

- حسبتك تنسى كل شيء إلاّ صديقك (العوضي) يا....(عبد الرحمن)!

كلمات لم تُزد ذلك المصاب إلاّ حيرة في طريقها للذهاب بما تبقى من عقله إلى متاهات الجنون متسائلاً في صوت خافت سيطر على كلماته التردد قائلاً:

- (عبد الرحمن)؟ أتقصدني أنا بهذا الاسم يا هذا؟

- وهل بين تلك الجدران من ثالث تشمله كلماتي يا صديقي؟

- مَنْ أنتَ يا رجل بحق السماء؟

- أنا الحامل لكل ما نسيت من الذكريات وما فقدت من الأحداث، لقد سمعت كل حديثك مع نفسك قبل قليل يا صديقي، ووجودي هنا الآن ليس إلاّ لإنقاذك مما ينوون إيقاعك فيه.

- ماذا؟ من تقصد؟ وماذا ينوون؟

- لا وقت الآن يسمح بما أريد سرده وتريد سماعه، دعنا ننصرف من هنا بأسرع وقت، ثم يكون بعدها ما يكون، الخطر يحيط بك يا صديقي، وقد تجد نفسك في أية لحظة بين جدران السجون .

- ما هذا الهراء يا هذا؟ أنا مصاب بحادث وحسب، ما الداعي لاقتيادي للسجن.

- لأنك المجرم الأشهر لدى ضباط الداخلية وأولهم ذلك الضابط (مازن السيد) الذي ينوون الاتصال به، وقد يكون في طريقه الآن إلى حجرتك تلك..أعلمت الآن لماذا عليك بالهرب بأسرع وقت؟

(8)

الأمر بالنسبة لذلك الضابط لا يزيد عن كونه سرد لحالة طبية كتلك المعتاد التعامل معها من صديقه الطبيب بصفة شبه يومية، غير أن طريقة حديث صديقه، وما شاب نبرة صوته من قلق يراه غير مبرر؛ جعله يكسو أذنيه ببعض من حلل الاهتمام الإضافي وإن كان ظاهريًا متكلفًا بعض الشيء مجاملة لصديقه قبل أن يكون رده:

- أراكَ تنظر للأمر ببعض من التهويل يا حضرة الطبيب، قد لا يزيد الوضع عن كونه حالة فقد للذاكرة ليس أكثر كما هو معتاد وتواجهه بكثرة في حياتك العملية.

-لا أدري يا (مازن)، أنا نفسي أتعجب من ذلك الإحساس الغريب الذي يتملكني بشأن ذلك الرجل...لكنه القلق الذي قادني إليك علّي أجد في حسك البوليسي ضالتي لاكتشاف ما وراء ذلك الرجل..

- أنا رهن إشارتك يا صديقي، بإمكاننا إجراء مقابلة ودية دون أن تكشف له حتى عن هويتي، لن يستغرق الوقت الكثير على أية حال.

- هذا ما أردته بالضبط يا صديقي العزيز.

قالها قبل أن يدوى صوت هاتفه النقال قاطعًا حوار الصديقين؛ ليستأذن الطبيب صديقه الضابط:

- عذرًا، لابد من الرد على ذلك الاتصال.

- بالطبع، تفضل، كن على راحتك.

لم يستغرق الطبيب الكثير من الوقت ليجيب طلب متصلة بالرد، ثوان قليلة قضاها في هدوء قبل أن ينتفض من مكانه مذعورًا يتساءل بصوت علت نبرته:

- ماذا؟ غير موجود بحجرته؟ ماذا تعنى بذلك السخف؟ أهَربَ أم ماذا؟ حسنا حسنا أنا قادم على الفور، دع كل شيء على ما هو عليه..

قالها وقد أغلق هاتفه، ينظر لصديقه الذي انتفض هو الآخر أثر كلام صديقه، بعدما قاده أنفه البوليسي إلى شم قضية بدأت رائحتها في الظهور متسائلاً:

-ماذا حدث؟

- حدث ما يؤكد ظنوني التي اعتبرتموها جميعًا هراء لا أساس له، لقد هرب ذلك المصاب الذي حدثتك عنه.

- ماذا؟ هرب؟

- نعم، هكذا كان قول مساعدي الذي أبلغني الخبر.

يبدو أن تخميناتك قد أصابت بشكل كبير يا صديقي، سآتي معك، لكن قبل تحركنا أريدك أن تخبر رساما لدينا عن المواصفات الدقيقة لذلك الهارب؛ لنتمكن من الحصول على صورة تقريبية له تساعدنا في بحثنا.

-مواصفات؟

- نعم...فلا أظنكم تملكون له صورة أو شيئًا كهذا، قلت إنه لم يكن يحمل إثباتًا شخصيًا.

- نعم هو كذلك بالفعل، لكن الدماء كانت تغطي وجهه تماما حين دخل المستشفى، ثم غطته الأربطة تمامًا بعد ذلك، قد لا يرتقي وصفي إلى المستوى الذي تريدون.

-لا بأس، لا نحتاج إلاّ بعض المواصفات التقريبية قدر استطاعتك، أي شيء قد يساعدنا بشدة في بحثنا ذلك، فالأمر الآن يتلفح بالصبغة الرسمية وليس الودية كما كان تخطيطنا.

-وهو كذلك، أنا على أتم استعداد.

(9)

لم يحتاج هذا الثنائي الهارب الكثير من الوقت للهرب إلى خارج المستشفى في ظل الضعف الرقابي المتعارف عليه بين الهيئات الحكومية، دقائق قليلة كانا بعدها يهرولان إلى ذلك الطريق الجانبي خالي المارة خافت الأضواء ممهد الخطوات، حتى كانت أولى العبارات القاطعة لأحبال الصمت المتصلة منذ أخر عهد لهما بالحديث، حين كانا في ذلك المستشفى القريب، نطقها ذلك المصاب الباحث عن تاريخه المتعلق بأدق خيوط الأمل، التي رآها تلمع بين شفاه مصاحبه السائر إلى جواره قائلاً:

- أظننا الآن ابتعدنا بما يكفي عن أي خطر قد يداهمنا حسب تعبيرك السابق، هل لي الآن أن أظفر منك بما أبحث عنه؟

- أراكَ متعجلاً على غير معرفتي بك يا صديقي..

نطقها باسمًا هادئًا كعادة حواره القصير، منذ اقتحامه حجرة الطوارئ غير عابئ بجمرات العجلة الملتهمة آخر شرايين صبر ذلك المسكين فاقد الذاكرة، الذي كان رده الهادئ على غير ما يتأجج داخله قائلاً:

- وماذا تنتظر من شخص لا يعرف عن نفسه شيئًا إلاّ أنه مجرم خطير يوشك أن تقتنصه سهام العدالة في أية لحظة دون أن يدري لماذا؟

أطرق ذلك (العوضى) كما أطلق على نفسه رأسه للأسفل، وقد اتخذت أصابعه طريقها إلى ذقنه في صورة المفكر في كلام محادثه بإمعان، قبل أن يرد قائلاً:

- أصبت الحق في ذلك يا صديقي العزيز، أنا رهن إشارتك، إلام تريد أن تصل حدود معرفتك؟

- رجل في مثل حالتي تلك لا أظنه يرضى عن الحقيقة الكاملة بديلاً، اخبرني بكل شيء تعرفه، أي تفصيلة صغيرة قد تكون ذات قيمة بالنسبة لي.

- وهو كذلك يا (عبد الرحمن)

قالها باسمًا قبل أن يستطرد قائلاً:

- اسمح لي أن أناديك الآن باسمك فقد طال شوقي لاسم صديقي الوحيد العائد لأحضاني من جديد..

قول باسم رده ذلك المصاب بابتسامة متكلفة وقول صغير أكثر تكلفًا:

- كما تشاء يا عزيزي، تفضل كلي آذان مصغية.

- كان ذلك منذ زمن بعيد، أظنها ثلاثة عقود أو أكثر قليلا، لم أكن ساعتها أعلم عن نفسي شيئا غير أني (عوضى) ذلك الصبي الصغير، الذي يعمل لحساب المعلم (سعد العامرى) تاجر الأخشاب الكبير، ذلك الذي أنقذه من براثن الضياع بعد سنوات قضاها ساكنًا للطرق منتميًا للشوارع، يفترش الأرصفة ويلتحف الكباري، أحسست إلى جواره عطفًا افتقدته في أبي الذي لم أرَ له طلعة، شعرت في كنفه حنانًا لم أعهده من أمي التي لم أشهد لها بسمة، كان لي بمثابة قطرة المطر التي أنقذت زهرة طفولتي من جفاف مبكر كاد يذهب ببريقها الناشئ، ظل الأيكة الذي أنقذ طير صباي من حرور كاد يفتك ببراءتها الوليدة،

لعله الشعور المبالغ فيه حينها في ظل جهلي بمعنى الحنان وقيمة العطف، وأنا الذي لم أعهدهما قبل معرفتي به في أحد، فبِتُّ أرى أصغر الكلمات إطراء لا مثيل له وأبسط البسمات امتنانًا لا قرين له، لا بأس بذلك، كان هذا شعور طفولتي نحوه على أية حال، أخلصت العمل إلى جواره كصبي صغير، يعمل نهارًا في إحدى ورشه قبل أن يتخذ من نفس المكان مبيتًا له، حين يسدل الليل ستائر ظلامه، استمر بي الحال هكذا ما يقارب العامين، حتى ذلك اليوم الذي أرسلني فيه إلى مكان قريب ألبي له طلبًا، كان سيرى سريعًا متعجلاً على عكس طبيعة سير أهل تلك السن، كأني بي في مهمة عسكرية لا مجال للتأخير فيها، هكذا كانت وصايا المعلم (سعد) لي باستمرار، لم ينجح شيء على الإطلاق في لفت انتباهي من تلك الأشياء التي صنعت خصيصًا للفت انتباه أقراني، غير أني لم أشعر بنفسي إلاّ وقد توقفت فجأة على جانب الطريق، أنظر لذلك الفتى الذي يصغرني بما يقارب العام وبعض العام، رأيت فيه صورتي قبل معرفتي بالمعلم (سعد)، صورة شدتني إلى ذكريات ليس من الطبيعي أن تعيشها ذاكرة صبي دون العاشرة، اقتربت منه في هدوء، استعبرت عيناه الغائرتان عيني المتعلقة بضعفه، استثارت نظراته الجريحة نظراتي المتأملة سكونه، استجدى وجهه البائس وجهي الرحيم بطفولته، ابن للسابعة أو صديق للثامنة، لكنه بأية حال من الأحوال لَمْ يَخْطُ بعد خطواته في درب التاسعة، مقلتان صغيرتان دامعتان حاملتان من الهموم ما حمله الرجال، جبين عريض

حزين مالك للأزمات ما ملكه الكهول، فم دقيق أنيق ناطق للدعوات ما نطقه المبتلون، شعر مجعد لا ينقصه إلاّ الشيب؛ ليكمل صورة هـرِم قعيد، قدمان صغيرتان سوداوان حافيتان، وجه مدفون تحت مزيج من تراب الشوارع وغبار أضفته عليه عقبات سنواته السبع أو أعوامه الثمانية، جمال خافت، وحسن باهت، ووسامة ضائعة في دوامات دنيا ظالمة، تائهة في دهاليز حياة جائرة.

جلس القرفصاء في انكسار، وقد أطرق رأسه في انهيار، ولم يعد يفصله عن المنية سوى لحظات الاحتضار، ولِمَ لا ؟ وهو في مقاطعة مع أطعمة بني البشر، ويكسوه من الأقمشة ما تخجل ألسنة الواصفين عن تسميتها ملابس، رفع رأسه للحظات حين انتبه لظلي يظله، نظرة خاطفة حاملة من المعاني ما تضيق باحتوائه الكتب، التقت مقلتاي مقلتيه وتعانقت روحي وروحه، فكان لقاء الأفئدة التابع للقاء العيون، وعناق النفوس المتمم لعناق الأرواح، عبرتان سائرتان في هدوء على دربين اتخذتاهما على خديه، فكان سير نظيراهما على خدي بالتبعية، حبات من العرق اتخذت مكانها في عشوائية على جبينه، فكانت ذات العشوائية سمة حبات عرقي بعد رؤيته، صورة مجسدة لليأس جالسة يتابعها ذهني، هيأة مصورة للضياع ساكنة ترأف بها عيناي، سألته عن اسمه ولم تنعم أذناي برد، استفسرت عن قصته ولم تسترح مسامعي بجواب، فما فائدة الاسم وقد فقد المسمى من مسميات الإنسانية ما ينعم به أقرانه، ما جدوى القصة ونهايتها تلوح في الأفق وبطلها فاقد

من سمات البشرية ما يملكه أصحاب ذات السن، سألته بالرءوف من الكلمات وأجابني بالمحطم من النظرات، لساني متسائل وعيناه مجيبتان، فمي مستفسر ودمعتاه مفسرتان، تركني في هدوء وانصرف، خطوات هادئة لا يعلم خاطيها هدفها، هدف تائه وسط غيوم من اليأس، يخطو إلى مكان آخر يشكوه آهاته، إلى ناظر آخر يشاركه عبراته، إلى مشفق آخر يصاحبه عقباته وأزماته، رحل وعيني تتابع هادئ الخطوات، ومنكسر النظرات، وتائه الأهداف والطموحات، لم أظنه صاحب هدف ولم أحسبه ذا طموح، لكنها رغبة اليائس في امتلاك الأهداف وأمنية البائس في حيازة الطموحات...ظلت خطواته تتهادى أمامي، حتى كاد يتغلب بعده على ناظري مختفيًا إلى أرض أخرى غريبًا كما اعتاد من الحياة، شريدًا كما اعتادت منه الحياة،

لم أنتظر كثيرًا لأهرول خلفه باحثًا له عن طوق النجاة نفسه، الذي أنقذني قبل عام أو أكثر من مثل حالته تلك، أقنعته بعد جهد بالذهاب معي إلى حيث يجد عملاً مماثلاً لعملي لدى المعلم (سعد العامرى) إلى أن لان عناده في النهاية وصحبني إليه، ولم يلبث بعدها المعلم (سعد) أن وافق على عمله لديه إلى جواري، ومن يومها بدأت صداقتي بأعز رفقائي في هذه الحياة (عبد الرحمن)...

- (عبد الرحمن)؟

- نعم يا صديقي، لم يكن هذا الصبي إلاّ ذلك المصاب الذي يحادثني الآن، أنت!

- وماذا بعد؟

- ظلت الأيام تمضى بنا في ذلك العمل بلا تبديل إلاّ من زيادة في قوة علاقتنا، صديقان لم يجدا على شاكلتهما ثالثًا يستحق صداقتهما، فظل كل منهما لأخيه الصديق الأوحد إلى أن مضى بنا شبابنا إلى طريق جديد لم نفترق فيه عن بعضنا بطبيعة الحال.

- تركنا العمل في خدمة (سعد العامرى)؟

- تركنا العمل، لكننا لم نترك العمل لدى (سعد العامرى).

- لازلت على عدم فهمي.

- لم تكن رعاية المعلم (سعد) لنا نابعة من دافع إنساني يتدفق خلاله كما صوَّر لنا خيال طفولتنا ساذج الرؤية قاصر التفكير، بل كان تحضيرا لطفلين أراد استغلالهما بعد ذلك فيما يمارس من أعمال يخفيها خلف تجارة الأخشاب وعلى رأسها، تجارة المخدرات!!

- ماذا؟ كان هذا ما رميت إليه إذن حين قلت إني مجرم خطير..

-هو كذلك بالضبط، لم نكن نملك خيار تركه، ونحن اللذان لازالت ذكريات طفولتهما البائسة تستعمر تفكيرهما تأبى النسيان، مقارنة منطقية فرضت نفسها على ذهنيهما بين سنوات عشناها نقضي اليوم بأكمله لا يشغلنا إلاّ كيفية الحصول على قوت يخرس وحوش جوعنا ورصيف يأوي فلول إرهاقنا، وبين أخرى عشناها في كنفه عاملين نملك من المال ما يجنبنا ذل السؤال ومرارة التسكع، وعليه فقد كان استمرارنا في عملنا الطبيعي إلى جانب عملنا غير المشروع، هو أنسب

الحلول لشابين لا يرغبان في العودة لسنوات الضياع من جديد، بل على العكس أظهرنا مهارة واضحة في توزيع المخدرات خاصة أنت، وبمرور الوقت وتزايد النشاط أصبحت أنت ذراعه الأيمن، وأنا إلى جوارك أدعم صديقي الأوحد وأساعد معلمي الذي لم أعرف غيره...واستمرت بنا الحياة هكذا حتى اختفاؤك قبل عامين، حتى كان سيرى قبل أيام بالصدفة البحتة لأشتبه بشخص كأنه صديقي القديم، ظننتها توهمات بثها الشيطان في رأسي، غير أني آثرت مراقبتك لأتيقن حقيقة هويتك، وبالفعل ظللتُ وراءك حتى ذلك الحادث المشئوم فاختفيت، بعدما اطمأننت إلى نقلك المستشفى بواسطة بعض المارة؛ لأعود إليك فيما بعد هربًا من أعين المخبرين الباحثين عني في كل مكان..

- مهلاً يا صديقي، مهلاً، ماذا تقصد باختفائي قبل عامين؟

- هذا ما يشغلني الآن، ولا أجد له تفسيرًا واضحًا، ظننت أني سأجد لديك توضيحًا لما كان، غير أن فقدك الذاكرة يبدو أنه سيلقي بأحداث الاختفاء تلك إلى صحراء من المجهول التام!!

(10)

لم يكن الوضع بين طرقات المستشفى وحجراتها على نفس ذلك الهدوء المسيطر على حديث الصديقين العائدين لروض صداقتهما من جديد، تحولت المستشفى إلى ما يشبه الثكنة العسكرية، بعدما ترجمت الأحداث تخمينات ذلك الطبيب إلى واقع يبحث الجميع عن أسبابه وبطله الهارب، وأولهم ذلك الضابط الذي لم يتوانَ عن سؤال الجميع تلك الأسئلة المتعارف على مثلها في تحقيقات الشرطة باستمرار؛ علّه يجد في أية كلمة لأي رد لأي شخص يشمله الاستجواب دليلاً يسير خلفه في طريق بحثه عن الحقيقة الغائبة، عدة ساعات استغرقتها التحقيقات ساهمت في ظهور الضابط (مازن) بتلك الهيئة التي كستها عباءات الإرهاق تماما وقد رفع أكمام قميصه وفتح أول وثاني أزراره وقد تشابكت أصابع يديه ينقل استناد جسده المتعب من يمنى أقدامه إلى يسراهما وهكذا دواليك حتى اختتم تحقيقاته تلك محادثًا صديقه الطبيب بقوله:

-يبدو أن الأمر أصعب مما توقعت يا صديقي، الأمر لا يقتصر على مجرد هروب لمريض في المستشفى...فلم أظفر من استجواباتي تلك بالجدير ذكره يساعدني في بحثي حتى الآن.

- الأمر في غاية العجب حقًا، رغم أن الشك في أمره داهمني منذ الوهلة الأولى، إلاّ أن تفكيري لم يرتقِ إلى مرحلة الهروب، فما يدفعه

لذلك ونحن لم نعطِه أي انطباع بنيتنا في استدعاء شرطة أو حتى مجرد شكنا فيه؟

لم يملك ذلك الضابط من الردود ما يجيب به صديقه غير زفير حار طويل جامع للإرهاق والحيرة في آن واحد قبل أن يتبعه رده:

-لا تفسير لذلك إلاّ بوجود من يراقب حديثك لزميلك وزيارتك السابقة لمكتبي، ثم سارع بإخباره، لكن من يكون هذا المراقب ؟وكيف وصل إليه وكيف علم أصلا بوجوده هنا؟ هذا ما علينا البحث عنه في البداية، وصولنا تلك النقطة يعد الخطوة الأولى في طريق بحثنا الصحيح.

لم يكد يُتم كلمته تلك حتى جاءه يهرول أحد تابعيه في هيئة المجهد الذي كأنه قطع أميالاً، قبل وصوله إليه وقد ارتدى رداء لامعًا من عرق المرهقين حاملاً في يديه لوحة صغيرة قائلا:

- سيدي، سيدي، لقد انتهى الرسام من رسم الصورة التي طلبتها ووصفها له الطبيب..

- إليّ بها على وجه السرعة، أين هي؟

- تفضل يا سيدي..

قالها يناولها إياه في عجلة؛ ليلتقطها ذلك الضابط في لهفة قبل أن يراها؛ لتتسع أجفانه كاشفة عن عينين تجسدت في حدقتيهما المفاجأة بمعناها الكامل، وقد فغر فاه، كأنه الشاهد لصاعقة قبل أن يقول في صوت خنقه التعجب:

-ما، ما هذا الجنون؟

قالها قبل أن يتوجه لصديقه متسائلاً، وهو لا يزال على نفس هيئته:

- أمتأكد أنتَ من تلك الأوصاف التي قلتها لذلك الرسام؟

سؤال فاجئ الطبيب كما فاجأته هيئة صديقه المتحولة فجأة، فلم يملك إلاّ تصديقًا على كلامه السابق بقوله:

-ن، نعم، بالطبع، هل من مشكلة؟

-ليتها مشكلة وحسب، أنه درب من دروب الخيال، هذا الهارب صاحب الصورة الذي تتحدث عنه الآن من المفترض أن يكون بين سجلات الأموات منذ عامين!!

(11)

ها هي الألغاز تزيد واحدا الآن في حياة ذلك العائد من جديد إلى واقع تركه قبل أيام، لم يجد صعوبة في معرفة أحداث مرَّ بها قبل سنوات في ظل وجود صديقه (العوضى)، ذلك الذي بدا عليه معرفته الكاملة بكل كبيرة وصغيرة شهدتهما لحظاتهما معا، والتي يبدو أنها أكثر بكثير مما توقعها (عبد الرحمن)، غير أنه لم ينعم بأي من أحداث حوتها صحف العامين السابقين في ظل افتراقه خلالهما عن دليله ومرشده إلى أسرار ماضيه، كما أخبره باختفائه منذ ذلك التوقيت.

- متى كانت آخر لقاءاتنا يا صديقي؟ كيف افترقنا وكيف قضيت أيامك بعدها في ظل علاقتنا تلك؟

- كانت عملية تسليم كتلك التي اعتدناها لأحد التجار الآخرين، يمثل القطب الثاني في سوق الممنوعات إلى جوار المعلم (سعد) يدعى (جابر الصياد)، كان التخطيط الذي رسمه لنا المعلم (سعد) يقضي باستيلائنا على حقيبة مخدرات بحوزة غريمه والفرار بها، نجحنا بالفعل في ذلك، غير أن تبادلا بشعًا لإطلاق النار تم بين الطرفين، أسفر عن قيامك بقتل أكبر مساعديه، ثم اختفيت فجأة وسط المعركة، وعلمنا بعدها بخبر مقتلك أنت أيضا، وأظن فقد الذاكرة كان ساعتها وليس من جراء ذلك الحادث، وإلاّ لما طالت غيبتك عنا كل هذا ؟

- تفسير منطقي، وماذا بعد؟

- لا شيء ذا أهمية، من يومها وأنا أقضي أيامي وحيدًا في عمل دائم، كما كنت لا أرضى بغيرك صديقًا لي، فلم ينجح أحد مهما كان في سد الفراغ الذي خلفته وراءك يا عزيزي، حتى حقيبة المخدرات تلك، لا زلت أحتفظ بها بعيدًا عن أعين المعلم (سعد)، كما كان اتفاقي معك؛ لنبدأ حياة جديدة بعيدة عن سطوته، لم يسمح لي إخلاصي لذكراك بكسر قيود اتفاقي معك حتى بعد الرحيل.

إطراء من (العوضى) قابله (عبد الرحمن) بيديه تربتان على كتف صديقه باسمًا يتساءل:

- لله در إخلاصك يا صديقي، لكن ماذا عن موقف المعلم (سعد) من ذلك؟

- أقنعته أننا فقدناها كما فقدناك، كان حزنه على رحيلك أضعاف حزنه على أي شيء آخر، فقد أحس أن عماد تجارته الأساسي قد انهار تمامًا، ومهما فعل فمن الصعب عليه إيجاد بديل مناسب يملك نفس القدر من شجاعة وحنكة وقدرة (عبد الرحمن)، ولا حتى مجرد جزء منه.

كلام مخيف أثار رهبة ذلك المسكين، الذي أحس بدخوله في دوامة كبيرة، لا قبل له بها، وهو الذي لا يملك من أدوات المقاومة غير قارب صغير من إرادة، آخذة في التلاشي أمام جبروت أمواج من الصراع، على وشك الاحتدام بين أطراف عدة، هو تائه في فيافي أطماعهم، طأطأ رأسه للحظات، وقد أرسل يديه يطوق بهما رأسه، وعيناه ثابتتان

على فراغ لا يعبر بأية حال عن زحام الأفكار المتزايد بين خلايا ذهنه، قبل أن ينتبه إلى تلك الصورة الثنائية على هاتف صديقه الجوال، ابتسم لمرآها ابتسامة خفيفة، وكأنها البلسم المداوي بعض جروح أفكاره، كانت صورة صغيرة، تجمعهما سويًا شابين باسمين، وكأنهما لا يملكان من هموم الدنيا الجدير بأن يحرمهما تلك الابتسامة، توجه إليه بكلماته الحانية المتأثرة بما رأته عينا صاحبهما قبل قليل قائلاً يتناول ذلك الهاتف ينظر إليه عن قرب:

- يبدو أن علاقتنا كانت تحظى بقدر من القوة فاق تصوراتي بكثير..

كلمات عابرة قابلها (العوضى) بنفس ابتسامة صديقه قائلاً:

- كنا روحًا واحدة اقتسمها جسدان يا عزيزي، حياتنا حياة واحدة، كل ما سردته لك كان قصة صراعي مع الأيام، والتي هي نفس قصة صراعك بطبيعة الحال.

- هل لي أن أستغل تلك العلاقة في استفسار ما يا صديقي؟

سؤال أثار ثغر (العوضى) لإطلاق ضحكة خفيفة دنى لها رأسه قبل أن يرفعها مجددًا ناظرًا إلى صديقه باسمًا تتوج ابتسامته قوله:

- لم نعتد بيننا استئذانا يا صديقي.

قول كان رد (عبد الرحمن) عليه اعتياديا بابتسامة صغيرة تبعها بقوله:

- اعذرني يا صديقي، اعذرني، أحتاج بعض الوقت للعودة لسابق عهدنا معا.

- لا عليك يا (عبد الرحمن)، هات ما عندك يا أخي، سل ما بدا لك.

كلمة كان ينتظرها ذلك السائل، فما كاد يسمعها حتى أخرج من جيبه تلك الورقة الصغيرة والصورة القديمة، وناولهما صديقه متسائلاً:

- هل، هل تعرف شيئا عن هاتين؟

تناول العوضى الاثنتين يقلب أحداهما بالأخرى ينظر إلى الورقة متسائلا:

-2008\8\20؟ ومن (علاء) هذا أيضًا؟

قبل أن يجعل الصورة فوقها وهو على نفس الحالة من التأمل في استغراب قائلاً:

- ومن يكون هذا العجوز؟

قالها وقد ضاقت عيناه عن محيطهما الطبيعي، وارتفع طرفا حاجبيه متعجبًا يستطرد قائلا:

- لا يا صديقي، لا أعرف عنهما شيئًا، يبدو أن عاميك الأخيرين قد زخرا بالعديد من الأحداث كما هي عادة أعوامك دائمًا يا بطل.

ابتسم (عبد الرحمن) متكلفًا بقوله:

- لم تنكشف بعد كل المجهولات إذن، لا زال هناك المزيد بحاجة إلى تفسير.

قالها وقد استدار لصديقه الذي ربت على كتفيه مواسيًا إياه بقوله:

- لا عليك يا صديقي، لا عليك، يقولون إن أول الغيث قطرة، سينكشف كل شيء بالتأكيد عما قريب، دعنا من هذا الآن ولنكمل سيرنا مسرعين.

- إلى أين؟

- إلى حيث ينبغي أن تكون، إلى المعلم (سعد العامرى).

- لا يا (عوضي)، لا أظنني ذا قدرة على احتمال ذلك العمل المشبوه مجددًا يا صديقي، يكفيني ما لقيت منه.

- لا تقتضى الحكمة ذلك في هذا التوقيت الحرج يا صديقي، بإمكانك تركه مستقبلا ولكن ليس الآن، أنت الآن مُطارد من الشرطة، التي يمثلها ذلك الضابط (مازن السيد)، وهو الذي يمتلئ تاريخك معه بالصراعات الجلل، إضافة إلى المعلم (جابر الصياد)، الذي بالتأكيد سيعلم بخبر ظهورك من جديد، وهو الذي يحمل بداخله نار الثأر المتأججة بالرغبة في الانتقام منذ عامين بعد قتلك لأوفى مساعديه له، كل هؤلاء الخصوم يتعطشون للنيل منك في أقرب فرصة تضعها الأقدار بين يديهم، وعليه فأنت بحاجة لسند قوى تتكئ عليه يكفيكهم بقوته وماله ونفوذه كالمعلم (سعد).

كلام منطقي لم يجد له (عبد الرحمن) ردًا غير فرك رأسه بسبابته في صورة المفكر في كلام صديقه بإمعان، وهو الذي لم يعد يفصل بينه وبين اقتناعه بكلمات صديقه إلاّ خطوات قلائل، كانت قادم اللحظات كفيلة بخطوه لها قبل أن يرفع رأسه من جديد تسبق أنفاسه العالية كلماته القائلة:

- حسنًا يا صديقي، حسنًا، ليكن ما قلت ولننتظر ما ستسفر عنه قادم المواجهات مع كل هؤلاء الخصوم الذين ذكرت.

(12)

يبدو أن خبر عودة (عبد الرحمن) لحلبات الصراع الإجرامي من جديد، بعد اختفاء دام عامين، قد وجد طريقه الممهد للانتشار بين خصومه العديدين، في ظل سهولة وسرعة تناقل الأخبار المشهور بها عالم الجريمة، الذي يُعد أحد أبطاله البارزين على مدار أكثر من عقدين، لعل أبرز الخصوم وأعتاهم كان ذلك التاجر اللامع اسمه في تجارة الأقمشة الأكثر لمعانا في تجارة المخدرات، يسمونه (جابر الصياد)، طالما جمعته و (عبد الرحمن) ساحات معارك إجرامية ضارية، كانت أخرها تلك التي قتل مساعده الأول قبل أن يختفي تمامًا عن أنظار الجميع معلقا ذلك الصراع مدة سنتين، عاد بعدها يدق طبول المزيد من المعارك.

تواجد تلك الليلة في وكره بصحبة عدد من أتباعه المقربين، وقد فاضت الخمر في قنواتها بين ثنايا رأسه، فغاب إلى حد كبير عما يحيطه من واقع، ثابتة هيئته على شاكلة واحدة كتلك المعروفة عن السكارى من اللامبالاة، لا حديث له إلاّ من ضحك عشوائي ولا ردود له إلاّ من نظرات حائرة بلا هدف، فكان المثال الحي لتائه بين سبل الآدمية ونظيراتها من دروب الحيوانية، وإن كان الأقرب للثانية منها للأولى، مازال عقله ينعم ببعض من وعي كاف لإدراك دخول ذلك الرجل من عماله عليه فجأة، وكأنه الرائي لكارثة أو الشاهد على مصيبة قائلاً:

- سيدي، سيدي، هناك أمر هام لابد من محادثتك فيه الآن بأسرع وقت.

انتبه له (جابر) وقد تعلقت به عيناه الغاضبتان من اقتحامه المجلس بتلك الصورة دون استئذان كما اعتاد من عامليه قائلا:

- أجننت؟ أبهذا الوضع تُطلَب المحادثات؟

قول أثار بعضا من خوف الرجل، فتقهقر قليلا قبل أن يعتذر واضعًا كفيه فوق بعضهما في منتصف جسده خافضًا رأسه للأسفل قائلاً:

- عذ، عذرًا يا سيدي، لكنى أريد الحديث إليك منذ ثلاثة أيام، والأمر بغاية الأهمية لا يحتمل الانتظار أكثر من ذلك.

غضَّ (جابر) الطرف عن الرجل عائدًا إلى صب كأس أخرى من خمره قائلاً:

- ليس الآن، ليس الآن، لا أملك استعدادًا لسماع ضوضاءكم الفارغة، سئمتكم وسئمتها، إليك عنى الآن.

- الأمر لا يحتمل الانتظار أكثر من ذلك يا معلم (جابر)..

قول جديد لم يُثِرْ انتباه ذلك السكِّير بأية حال، وقد أحاط كأسه بإبهامه وسبابته مرسلاً بقية أصابعه يشير بها إلى مخاطبه أن انصرف قائلاً:

- لا أنصحك بالمزيد من الإلحاح أكثر من ذلك، لا أظنك يعجبك نفاد صبري عليك بأية حال من الأحوال.

لم يجد الرجل بدا من إلقاء كلمته غير عابئ برد فعل سيده قائلا:

- سيدي، لقد عاد (عبد الرحمن)!

كلمة انتبه لها (جابر)، فضاقت عيناه وثبت فمه غير قادر على ابتلاع ما صبه فيه قبل قليل من الخمور قبل أن ينظر إليه من جديد قائلاً:

- عب، (عبد الرحمن) مَنْ؟

- (عبد الرحمن) رجل (سعد العامرى).

قولة أثارت ضحكة هستيرية لـ(جابر)، فانفجر ضاحكا بقوله:

- يبدو أنك السكير وليس أنا يا هذا..

قالها قبل أن يتابع ضحكه من جديد، أتبعه بالمزيد من شرب الخمر قبل أن يلاقى إصرارًا من تابعه القائل:

- أقسم يا سيدي أنى رأيته بعيني هاتين قبل ثلاثة أيام..

لم يدرِ (جابر) بنفسه إلا ملقيا بكأسه إلى الحائط، فأرسلها بقايا زجاجية بلا قيمة قبل أن يقوم إلى ذلك الرجل ممسكا بشدة بتلابيب ثيابه في غلظة، وقد بدا عليه أنه أفاق تمامًا قائلا في غلظة:

- أين رأيته وكيف؟ أمدرك أنت أنك تتحدث عن ميت أيها المجنون؟

- ليس ميتًا يا سيدي صدقني، كان سائرًا يتبعه صديقه (العوضى) قبل يومين، وأنا أراقبهما قبل أن تصدمه سيارة وينقله البعض إلى مستشفى قريب بعدها.

ترك (جابر) ثياب تابعه ناظرًا بعينين جاحظتين إلى لا شيء، بعدما نجحت تلك الكلمات في إفاقته تمامًا قبل أن يقول محادثًا نفسه:

- نجح (سعد) إذن في إخفاء رجله تماما عن انتقامي طوال عامين، أي أنها جولة أخرى ظفر بها (العامرى) ومساعده بعد الاستيلاء على حقيبة المخدرات وقتل مساعدي، يبدو أن اللعبة تزداد تعقيدًا وأبطال اللعبة قد زادوا واحدا الآن، لكنه ليس البطل الاعتيادي، إنه محور الأحداث، الذي ستتجه إليه كل الأنظار من جديد عما قريب كما هي عادته، أنساكما صمتي إذن من يكون (جابر الصياد)، انتظراني فقط أيها المغفلان.

(13)

خيوط الشبكة تزداد تداخلا إذن الآن، وهذا الغائب العائد لا يــدري عن تعقيد تداخلها ذاك ما يكفي؛ لجعله يحتمي بالقدر المناســب مــن الحذر، يجعله بمأمن عن مطاردات بعض وتدبيرات بعض آخــر، لعــل بعض سلواه قد وجدها في صحبة صديقه (العوضى)، ذلك الذي تُعَــدُّ أقاصيصه له تاريخًا عايشه ولا يذكره، أحداث كان بطلها ولا تســعفه إصابته بالظفر ببعض ما كان منها، بات ســرد (العوضــى) المرجــع الأوحد في مكتبة ذكريات بذهن (عبد الرحمن) خلت أرففهــا تمامًــا، فباتت لا تضم سوى تلك الصفحات العامرة بها ذاكرة صديقه يحجيها له طوال سيرهما، شعور طبيعي بالأمان من (عبد الرحمن) لــ(عوضي)، بات ينثر قطرات الثقة على بذور من الاطمئنان شارعة في الترعــرع بين شرايين قلبه، طامسة رغم قلتها بعضًا من أشواك خوفه، التي برزت بشدة في آخر الأيام، فكان تنامى الاطمئنان وتلاشى الخوف السائران متوازيين هما أبرز ما داهماه من مشاعر في تلك الفترة القصيرة، التي لا يتجاوز عمرها ساعات، ما زال حديثهما مســتمرًا بــين ســرد مــن (العوضى)، يقابله إنصات من (عبد الرحمن)، ثم استفسار مــن (عبــد الرحمن)، تقابله إجابات من (العوضى)، وهكذا دواليك حتى وصولهما إلى تلك البقعة الخالية تمامًا من أي معالم لحياة قائمة على أرضها إلاّ من مبنى كبير، كأنه مخزن مهجور أو شيء من هذا القبيل، لا يبدو علــى بوابته الحديدية شاهقة الارتفاع أنها معتادة على استقبال الكــثير مــن

الزائرين، وهو البعيد كل البعد عن أعين الناس، فلا يقصده زائــر إلاَّ من نوعين اثنين، أما عامل به تحت سطوة مالكه وإما ضابط راغــب في الإيقاع بهذا المالك، وبين العامل والراغب في الإيقاع يبقــى المالــك المشترك بينهما، هو الاسم الأبرز في تجارة الخشب وتجارة المخــدرات على حد سواء...لم يكن اسم (سعد العامرى) ذلك الاســم المجهــول لمسامع خصومه من المجرمين أو الغريب على ألسنة مطارديه من رجــال الأمن، اسم متداول بين الفريقين باستمرار، لا يمكن أن يسلك النسيان إليه طريقًا بأية حال من الأحوال، سيرة ذاتية مختصرة حظيت بها آذان (عبد الرحمن) من لسان (عوضى) طوال سيرهما حتى لحظة الوصول

-أتحرَّق شوقًا لرؤية ذلك الرجل..

قول قابله (العوضى) بابتسامة صغيرة قبل رده:

-ليست إلاّ دقائق يا أخي، لكن دعني أمهد له الأمر أولاً، واقعة كهذه لا يستقيم سردها إلاّ بالتدريج.

- ألن أدخل معك للقائه؟

- ليس الآن، ستبقى هنا حتى أناديك للظهور.

أومأ (عبد الرحمن) برأسه موافقًا رأي صديقه، قبل أن يجيــب مؤكــدًا بلسانه موافقة رأسه قائلاً:

- حسنًا يا صديقي، حسنًا، لكن لا تتأخر، فأنا لا أعرف أحدًا في هذا المكان.

- بل لا تذكر أحدًا في هذا المكان، هناك فرق..

قالها باسمًا، يربت بكفه على كتف صديقه الباسم، تاركا إياه إلى حيث يلاقى سيده (سعد)، طُرقات عدة قطعتها قدماه سيرًا حتى وصوله ذلك المجلس العامر بتناول المخدرات والخمور على حد سواء، جلس المعلم (سعد) بعمامته السوداء، يتدلى طرفها على جانب رأسه، كأنها ضفيرة لصغيرة في العاشرة، وقد برز بشدة حاجباه الثقيلان يظلان عيناه الشبه مغيبتين عن الواقع، كما هو حال شاربه الأشد ثقلا المُظل لفمه ثرى الشراب، وقد مثَّل قاعدة يرتكز على قوهما أنفه المنتشرة بين ثناياها صنوف المخدرات، الحال بالنسبة لجليسه الآخر عن يمينه لا يختلف عنه كثيرًا بطبيعة الحال، بدا عليه كأنه أحد تابعيه المقربين بشدة، وقد تبادلا الضحكات بصوت يسمعه القاصي منهما والداني، قبل أن يقطع ذلك السيل من ضحكاهما دخول (العوضى) المفاجئ، فانتبه له (سعد) قائلاً:

- ها أنت مجددًا يا تلميذي العزيز بعد غياب ثلاثة أيام، أين كنت طوال تلك الفترة يا رجل؟ لم أعتد غيابك كل هذا..

قالها قبل أن يأتيه الرد من ذلك الجالس إلى جواره قائلا يقصد استفزاز (العوضى):

- يبدو أن تلميذك النجيب قد عثر على عمل آخر لدى معلم آخر يا معلمي..

قالها ينتظر علامات الاستفزاز على وجه (عوضى)، ذلك الذي أشار إليه مادًّا سبابته دون بقية أصابعه موجهًا إليه كلامه:

- أفضل لك أن تهتم بما بين يديك من خمور يا هذا، لا أنصحك بالعبث كثيرًا مع (العوضي) قد لا تعجبك نهاية عبثك.

شجار شارع في الطفو على سطح ذلك الاجتماع أطفأ (سعد العامرى) نيرانه باكرًا، بعدما سأم كثرة خلافاتهما السابقة قائلاً:

- دعونا من هذا الهراء الآن، تشاجرا بعيدًا عني لا أريد لأحد أن يفسد مزاجي بغبائه، إما الصمت أو الانصراف!

ثوان من السكوت عمَّت أرجاء المكان احترامًا من الاثنين طرفي الخلاف لمعلمهما، ذلك الذي استأنف حديثه إلى (عوضى) قائلاً:

- هات ما عندك يا (عوضي)..

- يبدو أن سيدي قد وجد أخيرًا الجليس المناسب لجلساته الخاصة، بعد اختفاء ولده (عبد الرحمن)..

قالها وقد وضع يمنى كفوفه فوق يسراهما في منتصف جسده، ناظرًا إلى غريمه ذلك نظرة استفزاز، قاصدًا بها إياه، فكان صمته ناظرًا إلى معلمه منتظرًا رده، وقد علا صوت زفيره بدرجة ملحوظة، قبل أن يكون رد (العامرى) الهادئ المكسو نبرة الأسى:

- (عبد الرحمن)؟، يا له من اسم، اسم خالد أبى صاحبه إلاّ أن يُخَلَّد بين جدران قلبي، إيه يا (عوضى) ذكرتني بأفضل من عايشت يا بني، لله درك.

- ذكرتك؟ وهل نسيته من الأساس يا معلمي؟

- نسيته؟ وهل لأب أن ينسى ابنه يا بني؟ صورة (عبد الرحمن) لا تفارق خيالي يقظًا أو غافلاً، واعيًا أو مخمورًا، تضحياته لأجلي حفرت مكانها بالذهب على ألواح ذاكرتي.

- لا عليك يا معلم (سعد)، قد يعود يوما ما.

- يعود؟ وهل للأموات عودة يا عزيزي؟

قالها قبل أن ينطلق صوت ذلك الجالس إلى جواره قاصدًا إنهاء سيرة ذلك الذي طالما حمل داخله كرهه والحقد عليه:

- يبدو أن تلميذك قد بالغ في شربه كثيرًا يا معلمي، درجة هذيانه تزيد بشدة الآن.

لم يلتفت إليه (عوضى)، وقد فطن لرغبته في إنهاء الحديث حول (عبد الرحمن)، فعمل على إفسادها بعدم انتباهه إليه، بل تابع حديثه إلى سيده قائلا:

-وما أدرانا أنه قد مات حقًّا؟ قد تكون شائعة وجدت طريق التصديق إلى قلوبنا جميعا بعدما فشلنا في الحصول على أية أخبار عنه.

- ماذا تقصد؟

قالها وقد ضاقت عيناه لا يحتمل المزيد من الإثارة الغامضة العامرة بها كلمات تلميذه، ذلك الذي وجد أن سياق الحديث بات مهيأ لاستقبال ما جاء لقوله فكانت كلماته:

- أقصد أن (عبد الرحمن) لازال حيا يُرزَق يا معلمي العزيز!

(14)

بدأت ستائر الغموض تنكشف الآن شيئًا فشيئًا كاشفة حقيقة الموقف أمام ذلك الضابط الحائر، مجرم عائد من عالم الأموات يتطلع إلى المزيد من مطاردات طالما شهدتها أيامهما معًا، عودة غريبة غامضة نجحت تمامًا في الإلقاء بذلك الضابط إلى متاهات من الشرود التام، حتى كانت إفاقته حين انتبه بمساعده القادم لتوه على عجل بعد استدعائه من قبل رئيسه الشارد قائلاً:

- عذرًا على التأخير يا سيدي، كنت بإجازة وأنهيتها لتوي كما تعلم حين استدعيتني للقدوم.

- لا بأس يا (سعيد)، لا بأس، اجلس.

- ما الأمر يا سيدي؟ أخطيرة تلك القضية التي طلبتني إليها لذلك الحد الذي أراكَ عليه من التوتر والقلق؟

- بل نالت من الغرابة حظًا أوفر من نيلها الخطورة، انظر إلى تلك، وأخبرني ماذا تعنى بالنسبة من وجهة نظرك؟

قالها وناوله صورة (عبد الرحمن) المرسومة متأملاً وجهه في انتظار رد فعله الذي كان متوقعًا، تراه جاحظة عيناه عاجز لسانه عن نطق مفهوم الكلام إلاّ من سؤال فشل في إكماله قائلاً:

- أليس هذا ؟!

-(عبد الرحمن)، (عبد الرحمن) رجل (سعد العامرى).

قالها (مازن) مكملاً كلام مساعده الذي لازال ذهوله على حالــه إن لم يزدْ متسائلاً:

- ماذا تعنى بهذا الكلام يا سيدي؟ لا أفهم شيئًا على الإطلاق.

- ولا أنا يا مساعدي العزيز، ولا أنا، الأمر يزداد غموضًــا ولا أزال عاجزا عن إيجاد التفسير المناسب حتى الآن، مجرد خاطر في ذهن طبيب صديق لي، تطور بسرعة جنونية؛ ليصبح ظهورًا مشبوهًا لمجرم اختفــى من عالم الأحياء قبل عامين.

- أتعنى أن ذلك الهارب هو (عبد الرحمن) رجل (سعد العامرى)؟

- هو كذلك بالضبط بكل أسف.

كلمات سبقتها أنفاس حارة حاملة بعض حيرة صاحبها العــامرة بهــا أفكاره قبل أن يستطرد بنفس نبرته الهادئة قائلاً:

- يكاد تفكيري يفتك به الجنون، أصاب الإرهاق ذهني بشــدة مــن كثرة التخمينات.

- يبدو أننا وقعنا ضحية للعبة كبيرة أدارها باحترافية (سعد العامرى) وتلميذه يا سيدي.

- أتعنى أن سعدا أخفى عنا رجله طوال هذه المدة؟

- هل في جعبتك من الافتراضات ما يفسر غرابة الموقف غير هذا؟

صمت (مازن) حينًا يفكر في كلام مساعده، وقد بدا عليه اهتمامه بــه إلى حد بلغ الاقتناع قبل أن يجيبه قائلاً:

- على كل حال لابد من زيارة ستكشف لنا بعض غموض مــا نحــن فيه.

- زيارة؟ إلى من يا حضرة الضابط؟

- إلى (سعد العامرى) أنا على ثقة أن إجابة تساؤلاتي كلها لديه.

- ليس الرجل بمثل تلك السهولة التي تظنها يا سيدي، لست بحاجــة لنصيحتي وأنت الأعلم به مني.

- أعلم ذلك تمام العلم، غير أن هذا الوضع ذو طــابع مختلــف عــن سابقيه، قد نظفر بخيط رفيع يقودنا للحقيقة الغائبة، فأية كلمة في ذلك الحوار لا توزن إلاّ بالذهب.

- الأفضل ما تراه إذن يا حضرة الضابط، دعنا نرى ما ستسفر عنــه زيارتك تلك.

(15)

لا تزال تمهيدات (العوضى) لمعلمه تسير في طريقها بنجاح معقول، غير أن غرابة الموقف قد زادت من صعوبة المهمة إلى حـــد كـــبير، تلـــك الصعوبة التي تجلت وبشدة في سخرية (العامرى)، الضاحك من قـــول تلميذه المستهزئ به، يعينه على ذلك جليسه الذي جعل كل همه إبعاد الحوار عن منعطف (عبد الرحمن) دون جدوى؛ ليســـتمر (ســـعد) في سخريته المبالغ فيها من تلميذه قائلاً:

- يبدو أنك أجهدت نفسك كثيرًا خلال الأيام الثلاثة الماضية، أظنك بحاجة للكثير من الراحة يا عزيزي، أفضل لك أن تخلد إلى ساعات نوم هادئ بعد شراب دافئ، سيحسن ذلك من حالتك المزاجية كثيرًا.

قالها قبل أن يتابع شرب ما في يده من خمر رافعًا كأسه إلى فمه، وقـــد مالت رأسه للوراء، فبدا الكأس كأنه فوقه، قبل أن يأتيه رد تلميـــذه الواثق قائلاً:

-ماذا إن علمت أنه قد أتى لرؤيتك يا معلمي العزيز؟

قالها وقد تشابك ذراعاه تحت صدره، فبدا كل كف ممســـكًا بكـــوع الذراع المقابل، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة خافتة، قبل أن يعود إليه نظر (سعد) من جديد، ضائقة عيناه، واجمة ملامحه، وقد هالته ثقـــة محدثه قائلاً:

- مَنْ أتى لرؤيتي؟

-(عبد الرحمن)!

- ماذا تقصد؟ هل لنا أن ننهي ذلك السخف سريعًا بما تريد؟

- لا بأس يا معلمي مادمت تريد ذلك، اسمـــح لي بـــالخروج لثـــوان والمجيء من جديد، هناك شخص لا يكتمل بدونه حديثنا.

لفظها، وانصرف إلى حيث ينتظر (عبد الرحمن) آتيا به إلى حيث ينتظر معلمه تفسير هذا الكلام الغريب لتلميذه، الذي لم يره منذ ثلاثة أيـــام، ليست إلاّ دقائق حتى كان ظهور (العوضى) مجددًا واقفـــا إلى جانـــب الباب المفتوح ناظرًا تارة إلى الجالسين وأخرى إلى الباب، قبل أن يقول باسمًا يرحب بالضيف:

- تفضل بالدخول يا صديقي العزيز.

تعلق نظر (العامرى) وجليسه بذلك القادم المجهول، الذي دخل بطيئًا، يتأمل المكان في استغراب، حائرة عيناه بين الجدران وما يسقفها تارة، والجالسين الناظرين إليه في جمود تارة أخرى، إلى أن استقر نـــاظره في نهاية الأمر على ذلك المصدوم من مرآه، وضع عجيـــب ثبـــت عليـــه (سعد العامرى) لدقائق، كأنه تمثال قبل أن تصل عضلات كفه إلى حد كاف من الضعف، ظهر جليًا في سقوط كأسه من بين أصابعه، قاطعًـــا ذلك السكون المخيم على المكان بارتطامه بأرض خشنة، قبل أن يشير بسبابته إلى (عبد الرحمن)، ولده العائد، يقلب ناظريه بين الجلوس غـــير قادر حتى على نطق اسمه، حتى جاءته تلك البسمات من (العوضـــى) المتوقع لردة الفعل تلك من معلمه قائلاً:

- نعم يا معلم (سعد)، إنه (عبد الرحمن) قد بات هنا من جديد، هـــل اقتنعت الآن أني لست بحاجة للراحة كما كانت نصيحتك قبل قليل؟

لم يهتم (العامرى) كثيرًا بكلماته، بل لم يسمعها من الأســـاس، وقـــد تعلقت عيناه بتلميذه العائد لأحضانه، بعد غياب طالت أيـــام عذابـــه ولياليه على الطرفين، قام متثاقلاً وقد بدت له خطواته الفاصلة بينـــهما كأميال يُشَدُّ فيها الرحال، غير أن شوقه لولده العائد قد دفعه للتحامل على نفسه قاطعًا إياها في ثوان، قبل أن يصل إلى تلك النقطة التي كادا فيها يتلامسان، أمسك أعلى ذراعيه بكلتا يديه يتحسس وجهه، وكأنه يتيقن أنه نفسه ذلك الغائب منذ عامين وليس خيالاً صوره له خيالـــه المخمور، ثوان استغرقها في وضعه ذاك، قبل أن يكون تعـــبير عينيـــه بفرحتهما الطاغية متمثلا في سيلين من الدموع وجـــدت طريقهـــا في سلاسة على خديه، ناطقًا في صوت بللته عبراته بشدة:

- عب، (عبد الرحمن)؟

- اشتقت إليك كثيرًا يا معلمي العزيز.

قالها (عبد الرحمن) باسمًا يتكلف، وهو الذي بدا له (العامرى) كأنه يراه لأول المرات في حياته، قبل أن يفَاجَئ باحتضان (سعد) الحار له، وقـــد علا صوت بكائه بشدة، واستند ذقنه إلى كتفه ناطقًا بكلمات لم يتـــبين الحاضرون كثيرًا مما حوته قائلاً:

- شوقي إليك لا تصفه كلماتي يا بني، كيف هان عليك ترك والـــدك كل ذلك بلا سؤال؟ أهان عليك أمر (سعد العامرى) إلى ذلك الحد يا (عبد الرحمن)؟

-لم أملك للأمور زمامًا أتحكم فيها يا معلمي، كان الأمر برمته بتـــدبير الأقدار دون أي تدخل مني إلاّ في تنفيذ عقيم.

حديث استهلاكي معتاد في مثل هذه المواقف، قطعه (العوضي)، قـــائلاً يريد اختصارًا للوقت، قلقًا من مفاجآت يتوقعها ولا يريدها:

- لندع تلك الأشواق الفياضة إلى وقت آخر يتسع لها يا عزيزاي، قد نستقبل الشرطة الآن في أي لحظة، لا أراها استضافة تروق لأحـــدكما بأية حال من الأحوال.

- الشرطة؟

سؤال منطقي لفظه لسان (العامرى) متعجبًا من تهديد للشـــرطة، دون جديد من جرائم تستلزم ذلك التهديد، ناظرًا إلى (العوضـــي) ذلـــك الذي أجابه قائلاً:

- نحن الآن هاربان، نُمثِّل مع رجال (مازن السيد) طـــرفين لمطـــاردة وشيكة، لا وقت لدينا لسرد ما كان الآن...لنفكر في مكـــان آخـــر ننقل إليه (عبد الرحمن) بأسرع ما يكون، حتى يتسنى لنا بعدها ترتيب الأمور على نحو صحيح.

- حسنًا، حسنًا، لا بأس بذلك، ليكن ملجأه إلى..

- مهلا، مهلا يا معلمي.

قالها (عوضى) مشيرًا بكفه المفرود إلى وجه معلمه أن تمهل، قبـــل أن يتحول بنظره إلى ذلك الجليس الرابع المتـــابع للأحـــداث في صـــمت أقرب للصدمة منه للفرحة، يكاد غيظه يفتك بجنبيه قائلاً:

- أفضل لنا استكمال الحديث بين ثلاثتنا فقط، أنـــا وأنـــت و(عبـــد الرحمن)، لا أظن الجميع هنا على نفس الوضع من السعادة بعودة بطلنا الغائب.

قول خيم بعده الصمت على الحضور، وقد تعلقت الأنظـــار بـــذلك المتعجب الحانق على الوضع بأكمله، همَّ (العامرى) بالدفاع عنه، قبل أن يقطع عليه الطريق غير راغب في سماع المزيد من الاهانـــات غـــير مستعد لها قائلاً:

- استأذنك بالانصراف يا سيدي، لا أجد سببًا وجيهًا لوجودي بـــين أفراد جلسة لا يرغبون ببقائي بينهم.

قالها وانصرف يشيح بوجهه عن الجميع، مغلقًا الباب بطريقة منتظـــرة من غاضب من طرد غير مباشر تتبعه عين (سعد العـــامرى)، قبـــل أن يتوجه بلومه إلى تلميذه (العوضى) قائلاً:

- إلى متى يستمر اضطهادك لـــ(شوقي) بهذه الطريقـــة العنيفـــة يـــا (عوضى)؟ تبالغ كثيرًا في قسوة معاملتك له .

- تعلم تمام العلم مدى كرهه لي ولـــ(عبد الرحمن)، وأظنك لم تســـلم أنت أيضًا من كراهيته تلك يا معلمي، طالما حذرتك منـــه، ولازلـــت مُصرًا على تحذيري ذلك الذي لن تعبأ به حتى تحل بنا كارثة نجنيها من

ثقتك التامة به، دون أن تستند على أي أساس لثقتك به إلاً أنه أظهـــر بعض الهمة، التي لا أراها إلاً رياء ولا شيء غير ذلك.

- هل لنا أن ننحى ذلك الحديث جانبًا الآن؟ الخطر يحدق بنا، وأظنـــه يقترب كثيرًا من هنا، علينا بالإسراع يا سادة.

قالها (عبد الرحمن) راسمًا خط النهاية لذلك الحديث الجـــانبي منتظـــرًا اقتراح معلمه بمأواه الجديد، وقد أضاف إلى قائمة خصـــومه خصـــمًا جديدًا انتوى جمع المزيد من معلومات عنه من صـــديقه الصـــدوق في قادم الساعات، التي ينتظر ما ستسفر عنه من أحداث، وقـــد باتـــت أمنيته الوحيدة أن تمر دقائقها في سلام.

(16)

كان صباحًا مختلفًا عايش لحظاته في نشوة المعلم (سعد العامرى)، جلس على مكتبه في صدر وكالته، يقلب نظره بين زبائنه في ابتسامة قد غابت عنه منذ وقت ليس بالقصير، تراه ضاحكًا مستبشرًا واضعًا يمنى قدميه فوق قرينتها اليسرى، وقد أمسك خرطوم شيشته منفردًا معه بحديث جانبي، تلخصت كلماته في أنفاس ساخنة، أرسلها فمه إلى هواء صباحه البارد، تقابلها تلك الكركرة لمياه شيشة آثر جلوسها إلى جواره على جلوس العديدين من جلسائه كما هي عادة كل صباح، تعلقت عيناه اللتان ضاقتا فجأة بذلك الزائر القادم من بعيد، كأنه يحمل للجحيم أنيابًا بين فكيه الغاضبين، لم يهتم له كثيرًا (سعد العامرى)، وهو المتوقع لمجيئه المنتظر له، لم يغير من وضعه المتراخي ذلك شيئًا، اقترب منه سريعًا حتى كاد يلامس مكتبه الجالس عليه غريمه متعلقة به أنظار جميع عاملي (العامرى) المتوقفين فجأة عن العمل منتظرين ما يحل بسيدهم، ذلك الذي أشار لهم بالاستمرار في أعمالهم، قبل أن يعود بنظره إلى ضيفه من جديد قائلاً وخرطوم الشيشة على أبواب فمه:

- ها قد حظينا بزيارة بوليسية لم نعهدها منذ فترة كبيرة، لعلّها تحمل الخير لنا على غير عادة سابقاتها يا حضرة الضابط.

- قد تحمل لك ما تريد إن أبديت تجاوبًا يا معلم (سعد).

- بكل سرور يا حضرة الضابط، لكن هل لك أن تجلس لعرض ما تريد؟ لا أرى من المناسب خوض حديثك واقفًا كما أنت الآن.

- لا حاجة لنا بذلك، ليس إلاّ سؤالاً واحدًا، وجئت أظفر له بإجابة شافية لديك، لن يستغرق الوقت أكثر من عشر دقائق على الأكثر، إن أظهرت التجاوب الذي أريد.

- على الرحب والسعة يا سيد (مازن)، أنا رهن إشارتك بالتأكيد، كلي آذان مصغية لجميع استفساراتك يا حضرة الضابط.

قالها قبل أن يعود مستندًا بظهره إلى ظهر كرسيه، يحرق المزيد من أنفاس شيشته، قبل أن يأتيه سؤال توقعه من زائره القائل:

- أين (عبد الرحمن) يا معلم (سعد)؟

- (عبد الرحمن)؟ لله درك يا حضرة الضابط، أعدت إلى ذهني ذكريات ماضٍ جميل وددت لو عدت لقضاء لحظة واحدة منه مجددًا، لكن يبدو أن المعلومة القائلة أنه ميت لم تصلك بعد...على ما يبدو أن تحرياتك لم تعد على نفس القدر من الكفاءة حضرة الضابط، أظنك بحاجة لإعادة النظر في إجرائها من جديد.

- هذا، إن كان ميتًا بالفعل.

- ألغز هو يا سيد (مازن)؟

- لا أرى سببًا وجيهًا يدفعك لمثل هذه المراوغات الفاشلة يا (سعد)، تعلم أني أعلم أنك تحاول جاهدًا ارتداء أقنعة الدهاء بلا فائدة، لم يعد يُسعفكَ ذكاؤك يا عزيزي، لآخر مرة أين ذلك العائد بعد غياب؟

قال آخر كلماته تلك وقد استند بقبضتيه إلى مكتب (العامرى)، وقد مال جسده مقتربًا منه ينظر إليه في غضب اختلط بالغيظ، قبل أن يكون رد (سعد) القائل:

- يبدو أنك تركت عملك البوليسي وتفرغت مؤخرًا لسير الأموات يا حضرة الضابط، عمل جيد على كل حال، لم تعد بحاجة لشدتك المعروفة عنك بعد الآن إذن في عملك الجديد، باتت بلا مبرر مادام حديثنا عن ميت يحتاج دعاءنا له بالرحمة ولا شيء غير ذلك.

- لا زلت رغم سنوات إجرامك التي طالت فاشلاً بالمراوغة يا (عامرى)، أم تُراها سنك التي أرغمتك على نطق مالا تعقله لمن لا تعرف قدره ؟ أنصحك بمراجعة كل كلمة يرسلها لسانك إلى مسامعي، ذلك أفضل لعجوز مثلك لا يتمنى إهانته في أواخر أيامه.

- أهي تهديداتك التي اعتدناها مجددًا يا حضرة الضابط ؟ أم أنه غرور الضباط الذي اشتهرتم به؟ على أية حال لا بأس بكل ذلك الحديث العقيم، يؤسفني إخبارك أن دقائقك العشر قد انتهت الآن.

قالها قبل أن يدير ظهره إليه في مشهد نجح بامتياز في إثارة غيظ ذلك الضابط الذي احمرت وجنتاه طارقًا سطح المكتب بشدة، قبل أن ينصرف تتابعه أعين الجميع في ترقب لقادم المواجهات بين طرفين، توقفت نزاعتهما قبل فترة طويلة إلى حد كبير.

انصرف (مازن) غاضبًا يقتنع تماما بفشله في اقتناص فوز كلامي من (سعد العامرى)، كما كانت توقعات مساعده التي رفض الاستماع

لصوتها، خطا عدة خطوات خارج المكان لا يدرى بذلك الذي استتر عن أعين المحيطين لاحقًا به في مكان ناءٍ بالخارج مناديًا إياه قائلا:

- حضرة الضابط، حضرة الضابط (مازن).

قالها يقلب عينيه في ترقب للمكان خوفًا من رؤية أحدهم له، قبل أن يلتفت إليه (مازن) قائلاً:

- من أنت يا هذا؟ وماذا تريد؟

-أنا...أنا (شوقي) من رجال المعلم (سعد)، عندي معلومات قد تفيد عما تريده وأردت إخبارك بها.

- هل لي بمعرفتها سريعًا؟

- بالطبع، بالطبع يا سيدي، ليلة أمس قدم (عبد الرحمن) إلى المعلم (سعد) بصحبة صديقه (العوضى)، وبعد حديث طويل بين ثلاثتهم طلب (العوضى) من المعلم (سعد) توفير مكان لإخفاء (عبد الرحمن) عن الأعين، بعدما أخبرنا أنه هارب والشرطة تبحث عنه أو شيء من هذا القبيل.

عقد (مازن) ذراعيه متشابكين مفكرًا حينًا في كلام (شوقي)، ينظر إليه بتمعن، يستغرب من ذلك القول الذي كان آخر ما توقعه أن يساعده أحد رجال خصمه، وقد انتبه بشدة لصيغة الجمع التي يتحدث بها ذلك الرجل متسائلاً:

- أخبرنا؟ من تقصد بأخبرنا تلك؟ هل حضرت ذلك اللقاء؟

- نعم يا سيدي، كنت بصحبة معلمي (سعد) قبل أن يفاجئنا (عوضى) وصديقه بتلك الزيارة الغريبة التي ذكرت.

صمت (مازن) عدة ثوان يفكر في كلام ذلك الغريب، قبل أن يكون قوله الذي أنهى به حواره القصير معه:

- يبدو أن (عبد الرحمن) قد وجد له خصومًا أخيرًا بين رجال (العامرى)، انظر يا عزيزي، ليس من عادتي أن أضع يدي في يد مجرم من المفترض أني خُلقتُ للإيقاع به وبأمثاله، غير أني قد أحتاج لأي مساعدة في موقفي هذا، قد أحتاج إليك يا هذا، فكن رقيبًا جيدًا للموقف، وإن اطلعت على جديد فأظنك تعرف جيدًا عنوان قسم الشرطة الذي أتواجد به، واضح من هيئتك أنك نزيل معتاد لدينا.

(17)

يبدو أن ذلك الظهور المفاجئ لـ(عبد الرحمن) قد نال بشدة من اهتمام أكثر من جهة كانت على معرفة سابقة به، وإن تباينت ردود أفعالهم بين السرور بعودته لرحاب صداقة ضمته، والمسرور بعودته مترافقين لسنوات كما هو حال قرينه (العوضى)، وتأهب لعودة لحلبة مطاردة جمعته والمتأهب لعودته متصارعين لسنوات كما هو حال الضابط (مازن)، وحنق لعودته لمتاهات ثأر جمعته والراغب في الثأر منه متنازعين لسنوات كما هو حال (جابر الصياد)، وفرحة طاغية بعودته لجنان أبوة جمعته والفرِح بعودته متلازمين لسنوات كما هو حال (سعد العامرى)، وأخيرًا ذلك الشعور الكبير بالحنق الذي لاقاه من (شوقي)، بعد شعور الأخير بضياع مكانة أوشك على اكتسابها مؤخرًا لدى (العامرى) بعد اختفائه، أحاسيس مختلفة من أناس مختلفي الأهداف بين رغبة في حمايته والحفاظ عليه من الضياع مجددًا، وتلك الرغبة الأخرى على النقيض بإرساله للهلاك، وإن اتفق جميع الأطراف في شعورهم الواضح بالمفاجأة التي فشلوا جميعا في إخفائها، فاستقبلها بعضهم بالترحاب الشديد، وآخرون على مضض متمنين لو كان حلمًا عابرًا.

أيام قلائل قضاها (عبد الرحمن) بعد ذلك في هذا المسكن النائي الذي اختاره (العامرى) حتى ذلك الصباح الذي أفاق فيه فجأة كأنه الرائي لحلم ما، تسببت لحظاته في إيقاظه بعد ساعات من نوم حظي بها بعد شعور كبير بالإرهاق اعتصره طيلة ما مضى من الأيام، نهض متكاسلاً

يفكر فيما رآه، وقد جلس على حافة سريره، يفرك عينيه قبل أن ينظر إلى تلك المنضدة البنية الصغيرة المجاورة لسريره، وقد مدَّ يده إلى ما فوقها، حيث صورته وورقته مجهولتا المصدر، تأملهما قليلاً يقلبهما بين يديه واضعًا أحداهما فوق الأخرى، ثم يبدلهما بصوت لا يسمعه غيره:

-من تكون أيها العجوز الميت؟ ومن تكون أيها الـ(علاء)؟ وماذا قصدت بتاريخك هذا؟ مَنْ تكونان بحق السماء؟

نطق آخر التساؤلات تلك، ذاك وقد علا صوته، وارتفع نظره إلى سقف الحجرة قبل أن ينتبه من جديد إلى جرس الباب؛ فقام إليه في بطئ معتاد لمستيقظ لتوه، قبل أن يفتح الباب مرحبًا بصديقه الوحيد قائلاً:

- مرحبا يا (عوضي) إلى الداخل وأغلق الباب خلفك.

تعلق به نظر صديقه، وقد لبَّى طلبه، يتبعه في نفس بطئه متسائلاً عن تلك الحالة العجيبة الجلية على وجهه، والتي لم يرها ترتسم على ملامحه من قبل قائلاً:

- لا تبدو لي على ما يرام يا صديقي، يبدو أنك استيقظت للتو، غير أن تلك الهيئة ليست قط ليقظة طبيعية، أهو ذلك الحلم مجددًا؟

أجابه برأسه قبل أن يُصدِّقَ إجابة رأسه بلسانه قائلاً:

- حلم عجيب لا يفارقني منذ أول ليلة لي بين جدران هذا المكان، أراني كأنني أقف حائرًا، أمامي ثلاثة طرق لا أدرى أيها أرسم بين رصيفيه خطواتي، أنظر إلى أولهم فأجدك والمعلم (سعد) تبتسمان، وقد

امتدت أياديكما لاستقبالي بترحاب شديد، وقبل أن أهمَّ بشق طريقي إليكما أُحَّول نظري إلى الطريق الثاني فإذا بامرأة ورجلين، أحدهما شاب في مثل سني تقريبًا، والآخر قد جاوز الرجولة بقدر كبير، لم أتبين ملامح الثلاثة كثيرًا بعد جهدي في استبيانهم، غير أني شعرت ناحيتهم بشيء ما دفعني لاجتياز ثاني الطرق إلى ثلاثتهم، إلاّ أني في نهاية الحلم أسمع حديثًا في ثالث الطرق، بين ذلك العجوز في الصورة التي أبحث عن هوية صاحبها وشاب كأني أعرفه أكثر من أي شاب في الطرق الثلاثة، ووسط كل تلك الأمواج من حيرتي بين دروبي الثلاثة أجد ضابطًا يقف على رأسي، لا أحسبه يهمه طريقي الذي سأسلكه، فقط أراد الإيقاع بي أيًّا كان طريقي الذي سيضم خطواتي إلى أهله.

سرد قصير لم يجد المناسب من ردود صديقه إلاّ بعضًا من أنفاس حارة دالة على فشل صاحبها في إيجاد تفسير يلائم ما تلقته مسامعه من محدثه، تبعها بقوله الروتيني:

- حلم غريب، لا زلت عند رأيي يا عزيزي أن عاميك السابقين قد حظيا بنصيب وافر من أحداث لم يستطع عقلك الباطن إيجاد الطريق الملائم للتخلص من إلحاح وساوسها و تردد خواطرها حتى الآن:

- وماذا بعد؟

- لا شيء، فقط انسَ الأمر الآن، أحداثنا الجارية وما يحيطنا من أخطار وما ينتظرنا من أعمال أجدر بتفكيرك هذا الذي ترهقه في حلم

لا أساس له في واقعك الذي تعيشه الآن، التفكير في ماضيك قد يفقدك الكثير من حاضرك.

- لا بأس، دعنا من هذا الآن، ماذا في جعبتك من جديد الأخبار؟ هل من مستجدات توحي بالتخوف أو القلق؟

- لا شيء، فقط زيارة صغيرة قام بها ذلك الضابط (مازن السيد) للمعلم (سعد) في مكتبه صبيحة الأمس.

قالها غير عابئ بها، وقد تناول كوبًا من الماء إمعانا في عدم اهتمامه في هيئة أثارت استغراب (عبد الرحمن) الناظر إليه متسائلاً:

- أراك تنظر للأمر بعدم اهتمام أقرب لاعتباره كأن لم يكن، أتراه بمثل تلك البساطة التي أرى دلائلها ظاهرة على ملامحك؟

- ليست بساطة بقدر ما هو استمرار طبيعي للأحداث، كان أمرًا متوقعًا بعد كل ما كان، أيقنت بزيارة كهذه منذ اللحظة الأولى لهروبنا من المستشفى.

- وماذا دار بينهما؟

- لا شيء ذا أهمية جدير ذكرها، فقط تهديدات جوفاء من كليهما استقبلها الآخر بعدم اهتمام في ظل اعتياد لتبادل الأحاديث الساخنة بينهما.

صمت (عبد الرحمن) يقلب كلام صديقه بين ثنايا رأسه، وقد أقلقته تلك الزيارة التي لا يراها تعبر إلاّ عن بداية لمطاردة طويلة، كتلك التي

حكى له صديقه عن السالف من أمثالها بينه وبين ذلك الضابط قبل أن يكون رده:

- يبدو أن الأمور في طريقها لمزيد من التعقيد.

- ليس هذا (عبد الرحمن) الذي صادقته قبل عقود، لم تكن يومًا على تلك الدرجة من الاهتمام لتتبع الشرطة لتحركاتك.

- ضع في اعتبارك أني أشبه بإنسان جديد يا صديقي، ما كان في السابق قد خطته أقلام السراب على صفحات من النسيان التام.

- تستطيع العودة أقوى مما كانت عليه سمعتك قبل الاختفاء يا صديقي، الأمر برمته بين يديك لن يعيده لاستقامته غيرك.

- أسعى لذلك يا (عوضي)، أسعى جاهدًا لتنفيذ ما ذكرته الآن، لا بأس، دعنا من هذا الحديث الاستهلاكي الآن، ماذا عن القادم؟

- حقيقة لا أعرف تحديدًا، غير أني أظنه سينال من إعجابك قدرًا وفيرًا على أية حال، هذا إن لم يخونني تقديري لثوابت شخصيتك غير القابلة للتعديل.

- ماذا تقصد؟

- أخبرني المعلم (سعد) أنه قادم إلى هنا في وقت ما من مساء اليوم، يبدو أنها العودة المنتظرة لسابق مغامراتنا يا قريني العزيز، أطوق بشدة لسنوات ما قبل العامين، ما ضمته من ذكريات لا زال يداعب مخيلتي حتى اليوم.

- ماذا؟ بهذه السرعة؟

- يبدو أن تقديري قد خانني بالفعل لتلك الثوابت التي تحدثت عنـــها قبل قليل، هل لك أن تدع عنك ذلك الخوف الذي لم أعهـــدك بمثلـــه قبل اليوم؟ فقط كن على استعداد تام لاستئناف سابق أعمالنا، بل كن على استعداد لعودة (عبد الرحمن) إلى الحياة من جديد، حياة خُلقَ لهـــا ولم تُخلَقْ إلاّ له يا عزيزي!

(18)

لم يكن (شوقي) ليستغرق الكثير من الوقت للحصول على ما أراد من معلومات عن مخبأ (عبد الرحمن) الذي لجأ إليه طمعًا في بعض الهـــدوء بعيدًا عن أعين جميع الخصوم، لم يكن ذلك بالعسير عليه في ظـــل مـــا يسير بين عروقه من خبث ساعده بشـــدة في اســـتدراج (العـــامرى) المطمأن له غير عابئ بشكوك (العوضى) فيه وتحذيره منـــه وإعراضـــه عنه، لم يكن بالطبع ليبخل بما في جعبته من معلومات عن ذلك الضابط الذي جنَّده لحسابه جاسوسًا في صفوف (سعد العامرى) أملا في إيقاع طالما تمناه لذلك العائد من عالم المجهول.

لا زال الحوار ممتدًا بين الصديقين، حوار معتاد الفته جلســـاتهما معـــا، جاد تارة ومرح أخرى، صارم تارة وضاحك أخرى، مستمر في جـــده ومرحه وصرامته وضحكه منذ ساعات بلا ملل من أحدهما أو كلـــل من الآخر حتى قطعته في النهاية تلك الطرقات غـــير المتوقعـــة دافعـــة كليهما للتوقف عن حديثهما المرسل، يتبادلان نظرات التعجب فيمـــا بينهما في ظل عدم اعتيادهما على وجود زوار لهذا المكـــان الـــذي لا يعرف بوجود (عبد الرحمن) فيه إلاّ (العوضي) ومعلمه (سعد).

- هل أنت معتاد على زيارات من أحد في مثل هذا التوقيت؟

- بل غير معتاد على زيارات من الأساس، لا يعلم أحد بوجودي هنـــا إلاك والمعلم (سعد)، قد تكون زيارة المعلم (سعد) التي حدثتني عنها.

-لا لا، لا أظنه المعلم (سعد)، قال لي إنه مسافر اليوم ولن يعود قبل الليل، مازال أمامه ساعات حتى يكون من رواد هذا المكان.

-بإمكانك إزالة هذا الغموض بفتح الباب بدلا من حيرتنا تلك التي نتخبط بين جدرانها، لا أرى صعوبة في ذلك الأمر.

- حسنًا!

قالها (عوضي) وقام يترجل إلى الباب يفتحه، قبل أن يقف كالذي استوطن الشلل أطرافه بعد فتحه، بعدما تبين أن الطارق كان أبعد من توقع زيارته قائلاً في لهجة أتعبها الخوف والتعجب في آن واحد:

-الـ، الضابط (مازن)؟

-لم أرَكَ على هذا الوضع من الارتباك قبل الآن يا (عوضى)، أهي زيارتي المفاجئة أم أن (العوضى) قد فقد جَلَدَه المعتاد؟

لم يجد (عوضى) من الأجوبة ما يرد به قول (مازن)، فاستطرد ذلك الضابط في حديثه المفاجئ كزيارته قائلاً:

- يبدو أن ارتباكك قد أنساك دعوة ضيفك للدخول، لا بأس، بإمكاني إعطاء نفسي الحق في توجيه تلك الدعوة التي بخلت بها على ضيفك.

قالها وقد أبعد (عوضى) عن الباب يُقلِّب ناظريه بين أرجاء المكان باحثًا عن ذلك الهارب الذي جاء لرؤيته بعد حين، لم ينتظر كثيرًا حتى ظهور (عبد الرحمن) قادمًا من الداخل يستفسر عن تأخر صديقه وماهية الطارق الذي انتظر دخوله قائلاً:

- مَنْ يا (عوضي)؟

تعلق به نظر (مازن) بشدة في ظل تعلق نظر (العوضى) بالاثنين يراقب تأمل كل منهما للآخر...ثوان من الصمت أحاطت المكان في ظل تلك النظرات الحائرة التي تبادلها الجميع أنهاها (مازن) بقوله التابع لتشابك ذراعيه:

- لم تكن إشاعة إذن، صدق من أخبرني بعودة الأموات لعالمنا من جديد، كم يروق لي هذا الأمر.

قالها وانتظر حينًا حتى جاءه الرد من (العوضى) ذلك الواقف خلفه وقد استعاد اتزان تفكيره سريعا بقوله:

-لا أراك أفصحت بعد عن سبب تلك الزيارة المفاجئة يا حضرة الضابط، هل من تهمة جديدة نُحاسَبُ عليها؟

التفت إليه (مازن) معطيًا ظهره للعائد من عالم الأموات كما أطلق عليه، وقد أخرج ضحكة خفيفة طأطأ على أثرها رأسه قائلاً:

- لعلك نسيت من يكون (مازن السيد) يا عزيزي، يزور من يريد في الوقت الذي يريد في المكان الذي يريد، وليس من حق أحد مهما كان حتى أصحاب المكان في إظهار بوادر اعتراض.

- وعن سبب الزيارة؟

- هون عليك يا (عوضى)، هون عليك، أراك متأففًا من زيارتي غير راغب في وجودي، أبمثل هذا تقابل زائريك؟ نحن عشرة عمر يا رجل.

- هذا إن كانت زيارة اعتيادية يا حضرة الضابط، ولا أظنها أو تظنها تكتسي الصيغة الودية بطبيعة الحال.
- لازالت تلك الصفة المسماة بسوء الظن تلتصق بك يا (عوضـــى) لا بأس لنجعلها غير ودية ما دمت تريدها كذلك.
قالها والتفت عابسًا إلى (عبد الرحمن) ضاربا بيمناه المقبوضـــة يســـراه المبسوطة قائلاً في صوت شابته بعض الحدة:
- حسنا أيها العائد، لنجعل الزيارة كما أرادها صديقك، لماذا كـــان هربك من المستشفى قبل أيام؟
أعرض عنه (عبد الرحمن) معطيًا له ظهره رادًّا في برود:
- ولماذا تسميه هروبًا يا حضرة الضابط؟ لم يكن إلا خروجًا لمـــريض شعر بتحسن كبير في حالته، وعليه فلم يعد لوجوده بين أسرَّة المرضى ضرورة تُذكر، عليك أن تسمى الأمور بمسمياتها يا سيد (مازن).
تلقى (مازن) الرد ناظرًا إلى الأرض مُخرِجا زفـــيرًا مســـموع صـــوته بوضوح قبل أن يرفع رأسه من جديد قائلاً:
- كنتُ مخطئًا إذن حين ظننت إن غيابك الطويل عن مسرح الأحداث قد حرمك بعض دهائك، حسنًا، لا بأس بسوء تقديري للأمور، يبـــدو أنه عليَّ اكتساب المزيد من الخبرة البوليسية لإدراك مثل هذه المواقف.
- هذا شأنك يا حضرة الضابط، ولو أني أرى أنك تضـــخم الأمـــور بعض الشيء، الأمر أكثر بساطة مما تراه عليه.
- ماذا عن غيابك هذا إذن طوال عامين؟ أين كنت؟

قول قابله (عبد الرحمن) بضحكة خفيفة قبل أن يكون رده:
- أراك خانتك كلماتك لثاني المرات في دقائق يا حضرة الضابط، هل للضباط التدخل في تفاصيل شخصية لمواطن عادي؟
- هذا إن كان عاديا يا هذا، أم أنك نسيت آخـــر عملياتـــك الـــتي اختفيت على أثرها؟
- لا أعلم عما تتحدث.
- بل تعرف، وجيدًا، أين حقيبة المخدرات التي اختفت عن النظار منذ هذا التوقيت؟ سأغض الطرف عن عملين القتل المصاحبة لاختفائها إن أعطيتني عن ذلك جوابا يقنعني، فأنا لا أهتم كثيرًا لمقتل تاجر مخدرات بقدر اهتمامي بتلك الكارثة المختفية عن الأنظار.
- اسمع يا حضرة الضابط، الأمر أبسط كثيرًا مما تتصوره، إن كنـــت تملك ضدي دليلا واحدًا في إحدى القضيتين فهاك يداي قيدهما وسقني أمامك إلى حيث تُريد.
- لا فائدة إذن، يبدو أن تفكيرك المريض قد صور لك لجوئي للسياسة ضعفًا، أعدك بندم لن تعيش مثله على هذه الكلمات أيها المغرور.
قالها وانصرف مُزيحًا (عوضي) عن طريقه، قبل أن يُغلق الباب في عنف تاركًا الصديقين في حديث ضاحك بدأه (العوضى) بقوله:
-هذا هو (عبد الرحمن) صديقي الذي أعرفه، لا زلت تتمتع بقدر وافر من حكمتك الإجرامية يا صديقي.
تلقى (عبد الرحمن) ثناء صديقه باسمًا بقوله:

- لم تكن إلاّ ردودًا منطقية فقط على قدر أسئلته، دعـــك منـــه الآن ليس إلاّ مغرورًا يعيش دومًا دور البطل، لنعد إلى حديثنا الذي قطعتـــه زيارته عن قادم العمليات، أمامنا من الأعمال كثير ينتظرنا.

(19)

انقضت الأيام بالجميع سريعة المرور روتينية المنوال، متقلبة بين سخونة أحداثها تارة وهدوئها تارة أخرى، منوال اعتادت عليه جميع الأطراف بين عودة (عبد الرحمن) لحياة الجريمة من جديـــد إلى جـــوار صـــديقه ومعلمه من جانب، وترصد من (مازن) للإجهاز على ثلاثتهم بكل مـــا أوتى من قوة بلا جدوى من جانب آخر، لعل السبب كان راجعًـــا إلى صغر حجم العمليات التي قام بها الثنائي كنوع من العودة التدريجيـــة لـــ(عبد الرحمن) لعالمه الذي ودعه قبل عامين، أو أن راجع إلى حنكـــة (العوضى) الذي كان العقل المدبر لكل ما قام به صـــديقه، لا بـــأس باختلاف الأسباب مادامت النتيجة واحدة وهى بقاء (عبـــد الـــرحمن) سالمًا طوال عام وبعض عام هي المدة المنقضية منذ رجوعـــه للـــدائرة المضيئة من جديد مجسدًا للغرابة معنى جليًّا نال من استغراب الجميع.
لم تكن تلك الليلة إلا واحدة كتلك التي اعتاد على حرٍّ أخواتهـــا مـــن ليال بدايات صيف بدا من إقباله أنه عازم على اقتناص الكـــثير مـــن تأفف بنى آدم من فرط حرِّه، فروع ثابتة على غير ما تحـــب ويحـــب رائيها أن يراها عليه وهو المعتاد على تبخترها مع نسائم ليل هـــادئ، أوراق لا يختلف حالها كثيرًا عن حاملاتها من الفروع، وقد أوشـــكت على الجفاف من هول حر ذلك الليل قاسى الأجواء، لعـــل الصـــورة المضيئة الوحيدة في مناخ كهذا كان ذلك التغريد العذب لحمائم لجأت للفسيح من أعالي سماوات اعتادت على ملـــئ جنباتهـــا بأوركســـترا

الإبداع التي مثّل التفاؤل قائدها وشكّلت البراءة أعضاءها، آملة في إيجاد نسيم يداعب ريشها بخلت به عليها أجواء الأراضين.

كان يتابع ذلك كله من شرفته كعادته، لا أنيس له إلاّ ملله المعتاد وجوده في ساعات الصيف، ولا جليس له إلاّ حبات عرقه اللامعة على جبينه والمألوف وجودها في ظل هذا المناخ، آثر اللجوء إلى نوم عميق تعينه عليه بعض من أجهزة تبريد أبدعها بنو آدم للتغلب على مثل تلك الليالي، وهو الذي بات على يقين أن يومه لم يعد يحمل المزيد من الأحداث الجديرة بانتظارها، علّه يجد في نومه ما بخلت به عليه يقظته أو ينال من غفلته ما عجز عن مناله في واقعه، لجأ إلى عشوائية حجرته التي عشقها وعشقته، إلى فوضى فراشه التي أحبها وأحبته، لا جديد في العشوائية ولا مختلف تحمله الفوضى، فقط ارتماء معتاد لجسد راغب في نيل بعض ساعات النوم الهادئ، التحم جفناه في صورة كأنها المرسومة بريشة النعاس نفسه، غير أن تلك الهيئة الموحية لرائيها بغرق صاحبها في نوم عميق ليست إلاّ قناعًا كسته به رغبته الفاشلة في النوم، دقائق عدة قضاها مغمضًا عينيه محاولا النوم بلا فائدة، قبل أن يزيل عنه غطاءه قائمًا من جديد إلى شرفته، وقد أشعل سيجارة يستعين بأنفاسها على ساعات أرقه، كفّاه يطوقان سور الشرفة مستندًا إليه ينظر إلى شوارع خالية تمامًا، وقد امتلأ ذهنه بالعديد من أفكاره المتخبطة وتأملاته الأكثر تخبطًا تكاد آذانه تسمع ذلك الصوت لجدال دائر في رأسه قائلا:

- آه عليك أيها الضائع الغريب، هل هان على الأيام أمرك إلى حد بلغت عنده أن تمنعك حتى بعض ساعات نومك؟ لا بأس وقد سلبتك قبل راحة الجفون قرينتها من راحة القلوب والضمائر، عام وبعض عام قضيتها في حياتك تلك، التي لا تعلم عن ماضيها ولو تفاصيل لحظة واحدة، لا تعلم إن كان ماضيًا مشبوه اللحظات كما يزعمون، أم أنها الأكاذيب التي وجدت من عجز ذاكرتك طريقًا ممهدًا لجرّك إلى دور لست أهلا بالمرة لآدائه، إن كان كما يزعمون حقًا، فلماذا ذلك الشعور المرافق لك دومًا أنك غريب عن حياتهم المتوترة تلك، دخيل على عالمهم المخيف ذلك؟ وإن كانت أكاذيب، فماذا عن تلك الصداقة الحقة التي شعرت بدفئها بين صديقك الأحق انتسابًا للأخوة ومعلمك الأجدر وصفًا بالأبوة، محب لأناس كاره لعالمهم، مقبل على أشخاص زاهد في حياتهم، يا لصعوبتها تلك المعادلة، أيمكن لمجرم عتيد الإجرام أن يراجع نفسه كما أنت الآن؟ وفى الوقت نفسه، أيمكن لشخص عادي أن ينفذ عدة جرائم بمثل تلك البراعة إلاّ إذا كان لجينات الجريمة مجرى بين عروقه؟ هي حياتك العامرة بتناقضات قلّما تحويها حيوات البشريين إذن، أنهى كلماته تلك إلى خاطره قبل أن يدير ظهره للشارع ساندًا بوسطه على سور الشرفة متناولاً تلك الصورة القديمة والورقة حاملة التاريخ يتأملها كعادة آخر أيامه حين يخلو بنفسه، وقد أخذ يستطرد في سرد تلك الخواطر المتبادلة بينه وبين إحساسه بالغربة قائلاً:

- ماذا أيضًا عن هذين أيها المناقض نفسه المحارب تفكيره، هل حقًّا لغزان حواهما عاماك قبل الحادث، أم أن جذورهما تمتد لأبعد من ذلك حيث أعوام اندثرت كغيرها تحت أنقاض النسيان؟ ماذا عن هؤلاء جميعا الذين تراهم في أحلامك وتخالهم في غفلتك؟ ماذا عن خصومك الذين ينتظرون لحظة انتهائك اليوم قبل غدا؟ ماذا عن (مازن) و (جابر) و (شوقي) وغيرهم من مَن يمثل وجودك حملهم الأكبر وهمَّهم الأعظم، أم تراهم أيضًا شركاء في تمثيلية سخيفة صدقها عقلك الساذج؟ يبدو أن توهماتك قد اتسعت دائرتها بشكل مبالغ فيه لتمتد إلى تفكير خاوي الأساس هش الأركان ضعيف الحجج، عد من جديد إلى محاولات نومك اليائسة علَّ أحداها تصيب؛ فتنعم ببعض ساعات الغياب عن هذا العالم الذي أتعبك العيش بين جدرانه، وأرهقتك الحياة بين أهله يا (عبد الرحمن)، إيـــــــــــــــــهِ، إن كنت حقًّا هذا المدعو (عبد الرحمن)!

(20)

ليس إلاّ صباحًا جديدًا يحمل كعادة سابقيه المزيد من مؤامرات وترتيبات عدوانية، كما هي عادة حياة الإجرام حيث الولاء للمادة دون الصديق والإخلاص للمال دون الشريك، بداية معتادة ليوم ذلك التاجر الملطخة سمعته المشبوهة تجارته، المتعطش منذ زمن للنيل من قاتل مساعده، جلس بين صبيانه، يلتقط شيشته التي أعدها له أحدهم لتوه راكعًا على ركبتيه، يناولها لمعلمه، ينفخ في أحجارها بوجه انكمشت عضلات عينيه مقلبًا تلك الأحجار بتلك الآلة التي باتت كجزء من يمينه اعتاد على الإمساك بها، يتذوقها أولاً يطمئن لإعدادها كما يريدها سيده، قبل أن يناولها معلمه، الذي سلط نظره، الذي ضاقت جفونه إلى باب حجرته، الذي فتحه لتوه أحد رجاله مستأذنًا لآخر بالدخول قائلاً:

- سيدي، أحدهم يريد مقابلتك لأمر هام حسب ما يصف مطلبه.

- أمر هام؟ ألم يذكر اسمه؟

- لا يا سيدي رفض الحديث عن أي شيء إلاّ في حضرتك.

- لا بأس، إليَّ به لنرَ ما ألقته إلينا ساعات هذا الصباح.

دقائق قلائل كانت كافية لدخول ذلك المريد لمقابلة (جابر الصياد)، ذلك الذي تأمل قليلاً في وجه زائره؛ علَّه يستعيد ذكرى مضت عليه عرف فيها ذلك الوجه، قبل أن يعود من جديد يائسًا إلى شيشته مخاطبًا إياه غير ناظر إليه قائلاً:

- هات ما عندك يا هذا، أبلغوني أنــك أردت الحــديث إليَّ في أمــر وصفته بالهام.

- هو كذلك بالفعل يا سيد (جابر)، لكنه الحديث الــذي لا ينبغــي لسوانا سماعه أو تداوله، كلانا فقط من تخصه تلك الكلمــات الــتي سيضمها حديثنا.

انتبه له (جابر)، وقد أدرك رغبته في الانفراد به دون صــبيانه؛ فــآثر تلبية رغبته تلك، بعد شعوره من هيئة ذلك الزائر أن الأمــر بالفعــل على قدر غير قليل من الأهمية، أشار للجالسين بالانصراف، وعيناه لا زالتا متعلقتين بزائره الغريب عدة دقائق، حتى فرغت الجدران مِن مَن آنسوها إلاّ من هذين المنفردين.

- ها قد صرنا وحدنا يا هذا، هل لي أن أتلقى الآن ما تريد إخباري به سريعًا، بل وسريعًا جدًّا، لا تروق لي تلك الأحاديث الجانبية الغامضــة كثيرًا.

- لا أظن لقب (هذا) ذلك يــروق لي كــثيرًا، بإمكانــك منــاداتي بــ(شوقي) إن شئت، أظنه يناسبني أكثر.

- يبدو أننا سنرهق بعضنا كثيرًا إن استمر حديثنا على مثــل ذلــك القدر من السخف الذي أراه وأسمعه الآن، ألِيَّ بما تريد باختصــار، لا وقت لدي أضيعه في مثل ذلك الحديث الخاوي الذي تخوض فيه.

- أراك على قدر كبير من العجلة يا معلم (جابر)، لكنك إن علمــت ما في حديثي ما وصفته بالسخف، جئت أعرض عليك المساعدة.

قالها وقد اقترب منه قليلاً يلتحف وجهه الجدية والصــرامة، قبــل أن يأتيه رد (الصياد) مستفسرًا عن ذلك العرض الغريب بالمساعدة مــن شخص يراه لأول المرات في حياته:

- أية مساعدة تقصد؟ أفصح أكثر.

- ماذا إن وجدت من يبلغك غايتك بالقضاء على ذلك الخصم المدعو (عبد الرحمن) يا معلم (جابر)؟

أخذت الهيبة (جابر) بعض الشيء، وقد نال ذلك الاسم من انتباهــه قدرًا وفيرًا ساهم في تغيير هيئته إلى تلك التي أسرعاها الشعور الشديد بالفضول، لاستكشاف ما وراء تلك الكلمات قبل أن يستطرد قائلاً:

- مَنْ أنت يا رجل؟ ولماذا تريد القضاء على ذلك الشــخص الــذي ذكرت؟ ولماذا كان لجوئك إليَّ أنا بالذات؟

- لا أحسبك تهتم كثيرًا بهويتي يا سيد (جابر)، حسبك أني كاره لــه راغب في تدميره، أما عن لجوئي إليك، فلست بحاجة لإخفاء رغبتــك الشبيهة برغبتي في إرساله إلى الجحيم في عالم الأموات.

- لازلت لم تخبرني عن سبب رغبتك تلك في القضاء عليه.

- لم أسمع من قبل أن للكراهية في عالم الجريمة سبب يا سيد (جــابر)، عالمنا عامر بها دومًا على طول طريقه...أم تُــراك تنتــهج غيرهــا في عملك يا سيدي؟

لحظات من الصمت كست المكان بعدما فشل (جابر) في مجاراة كــلام (شوقي) قبل أن يستجمع إدراكه من جديد مستطردًا:

- على كل حال لا أراني محتاجًا لعون غريب يا هذا، استطيع الإجهاز عليه إن شئت دون اللجوء لمساعدة أحد كل مقوماته أنه له كاره.

- كان ما سمعته عن غرورك صحيحًا إذن يا سيدي، اعذرني على صراحتي، دومًا ما توقعني في المتاعب، لو كنت تستطيع الإجهاز عليه كما تقول لفعلتها قبل أعوام يا معلم (جابر)، دعنا نرى الحقائق كما هي بلا تجميل أفضل للجميع، أما عن مقوماتي فلا أظن أحدًا على علم بها قدر صاحبها الذي يثق بها تمام الثقة.

لم يرد (جابر) وهو الناظر لمخاطبه، وقد أيقن ما ينعم به من خُبث قد يساعده كثيرًا في النيل من (عبد الرحمن)، الذي بات الحلم الأكبر له أن يراه في الجحيم، فاستطرد (شوقي) قائلاً بعدما رآه من لين قد بدأ يتجسد في ملامح مخاطبه:

- لا بأس بما كان من سابق الأحداث على كل حال يا سيد (جابر)، لا زال عرضي قائمًا بالتعاون المشترك بيننا إن شئت.

- هات ما عندك أيها الغريب.

ابتسم (شوقي) تلك الابتسامة المعتادة للخبثاء بعد نيل ما يريدون بالتحايل، حيث تلتصق شفتاه وتضيق عيناه، وتزيد ابتسامته طول فمه قبل أن يقول:

-الآن فقط نستطيع أن نقيم للحديث أركانا في هدوء فيما هو أهم يا معلم (جابر).

(21)

لم يكن (شوقي) ليضيع الكثير من الوقت وهو المشتاق للقضاء على خصمه بأسرع مما يستطيع، وعليه فقد كانت وجهته الثانية لألدِّ أعداء (عبد الرحمن)، ذلك الضابط الذي أرهقته الرغبة في إقصائه من الحياة كلها؛ ليريح الجميع من عدو طالما أرقَّ جفونهم، كانت زيارة (شوقي) لـ(مازن) اعتيادية بعد تكرارها بشكل شبه دوري طوال عام وبعض عام، هي الفترة التي شهدت الظهور المفاجئ لـ(عبد الرحمن)، ورغم فشل الاثنين في النيل من عدوهما المشترك إلاّ أن المحاولات لم يصبها يأس أو يأسرها إحباط، استأذن (شوقي) كعادته في الدخول فكان له ما أراد؛ ليجد تلك الصورة التي اعتادها لضابط جالس على مكتبه وإحدى قدميه تعلو الأخرى، يغطى وجهه بعض الدخان الناتج عن سيجارته الشاغلة لفمه، يتناقل بعض أطراف الحديث مع مساعده الجالس على كرسيه المقابل لكرسي قائده على مكتب الأخير، قبل أن يتوقفا فجأة عن حديثهما ينظران إليه قبل أن يباغته (مازن) قائلاً:

- خيرًا يا (شوقي)، يبدو أن شيطانك قد أوحى إليك بالجديد من خبثه يا فتى (العامرى)، ولو أنه لقب لا يلائمك كثيرًا.

- لست إلاّ فتاك أنت يا حضرة الضابط وكفى، ثم إنه لولا تلك الإيحاءات ما منحني سيدي (مازن) ثقته التي أعتز بها.

- ثقتي؟ يبدو أن ذكاءك ليس على ما يرام يا عزيزي، ثقتي لا يحظى بامتلاكها المجرمون بأية حال من الأحوال، إليّ بما تحمله سريعًا لا وقت لدي يحتمل ضياعه في حديث لا فائدة من ورائه نجنيها.

- جئت أعرض على سيدي الضابط طريقة أراها قد تكون ذات فائدة في الإيقاع بـ(عبد الرحمن)، إن شاء أسمعته إياها.

- ماذا؟

قالها (مازن) وقد جُنَّ جنونه من كلمات محادثه ضاربًا سطح المكتب بيديه قائمًا إليه في صورة جسدها الغضب قائلاً:

- هل أبلغك أحد أن أجهزة الأمن قد عجزت عن الإيقاع بمثل هذا المجرم وانتهى بنا الأمر مكتوفي الأيدي بانتظار مقترحات سيادتك؟

-عذ، عذرًا يا سيدي، لم أقصد أي إساءة بالطبع، لم أُردْ إلاّ المساعدة فقط، ولا شيء غير ذلك قط.

هنا كان تدخل ذلك المساعد المتابع للحديث في صمت منذ أوله مهدئًا رئيسه بعدما ألَّم به من حنق من قول (شوقي) يخاطبه بقوله:

- سيدي لا بأس بسماع اقتراحه ذلك الذي ذكره، لن نخسر شيئًا من مجرد السمع، يظل الأقرب إليه منا الأدرى بنقاط ضعفه وقوته، أهل المجال الواحد أعرف ببعضهم دون شك، تذكر يا سيدي أننا بحاجة لجميع أيادي العون حتى لو امتدت بها إلينا أيادي أمثال هؤلاء الذين طاردناهم يوما ما.

كلمات أمطرت قطرات الهدوء على نيران الحنق الثائرة في قلب ذلك الضابط؛ فكان امتثاله الجزئي لنصيحة مساعده الذي التفت إلى (شوقي)، بعدما رأى من هدوء سيده الضابط قائلاً يخاطبه:

- هات ما عندك باختصار شديد.

- حسنًا، حسنًا يا سيدي، علمت من مصدر لي جنَّدته بين رجال المعلم (سعد) أن (عبد الرحمن) و (عوضى) ينويان القيام بعملية صغيرة منفصلة عن عملهما مع المعلم (سعد العامرى)، لا أظنهما إلاّ اتخذا جميع الاحتياطات كعادهما، مما ينذر بفشل متوقع للمحاولات التقليدية للإيقاع بهما كما سبق وحاولتم مرارًا يا سيدي، باتا يحفظان تلك الأساليب عن ظهر قلب، بل وأظنهما يستمتعان بمثل تلك المطاردات التي تضيف على مهامهما بعض الإثارة التي يحبالها يا حضرة الضابط.

- وماذا عن الطريقة المثلى برأيك يا سيد (شوقي)؟

قالها (مازن) وقد قارب على هذا الحد الذي يفيض عنده به الكيل منتظرًا المزيد من كلمات ذلك المجرم المستطرد:

- لا يفلُّ الحديد إلاّ الحديد يا سيدي، الحيلة هي الطريق الوحيد للإيقاع بأمثال هؤلاء...ينتهجانها منذ سنوات وأرى الوقت قد حان ليتجرعا مرارة كأسها.

- الحيلة؟ أزل ستائر الإبهام عما تريد سريعًا بلا مقدمات تكتسي ذلك الجو البوليسي الذي تتقمصه.

- سيذهب إليه أحد رجالك متنكرًا على أنه أحد رجالك المطرودين من الخدمة، بعد ثبات تورطه في قضية رشوة أو فساد أو شيء من هذا القبيل، وهو ما رفض الضابط (مازن) المشاركة في إتمامه أو حتى مجرد التستر عليه، وهو الرافض تمامًا لإدراج قانون الفساد في عمله، ثم يعرض ذلك المتنكر العون على (عبد الرحمن) و (العوضى) في الإيقاع بذلك الضابط، الذي يمثل الخطر الأكبر المهدد لأمن الاثنين، رغبة في الانتقام منه هو الآخر كونه يراه السبب الرئيسي في طرده من العمل، وبهذا يوهم الصديقين أن رغبة الانتقام المشتركة قد دفعت ذلك الغريب المتنكر إلى اللجوء لأقوى عدوين لسيده السبب في انقطاع عيشه، وحين يطمئن له الثنائي بعد أكثر من زيارة يقوم بها وأكثر من دليل يقدمه تكون قد زرعت أحد الرجال بين أضلعه، يقوم بإطلاعك أولا بأول على كل ما يخططان له، مما يُعجِّل كثيرًا بالإيقاع به، وقد تقوم العملية القادمة هي أولى الفرص السانحة.

اقتراح نجح بامتياز في نيل رضا وتعجب الضابطين على حد سواء، فكان تبادلهما للنظرات في استغراب من دهاء يعرفاه عن ذلك المتحدث، غير أنهما لم يتوقعا قط أن يصل لتلك الدرجة من القوة قبل أن يكون رد (مازن):

- قد تكون ذات طابع سينمائي إلى حد كبير، غير أنها تستحق الدراسة بشكل أو بآخر على كل حال...قد تحمل إلينا بعضًا مما نريده.

- أراه تخطيطًا جيدًا إلى حد كبير يا سيدي.

رد أتى به لسان ذلك المساعد المتابع لسرد (شوقي) في اهتمام، بعدما نالت تلك الكلمات من اقتناعه بمحتواها تمامًا، رد دفع (مازن) إلى الاهتمام به، بعدما شعر برغبة مساعده في دراسة الأمر عاجلاً وليس آجلاً كما أراده هو فكان رده:

- أراك أقنعتك خطته يا (سعيد)، لا بأس، بإمكاننا مناقشة الأمر.

- بل نناقشه الآن يا سيدي، فكما كان يقول (شوقي) قبل قليل، قد تكون تلك العملية القادمة أولى الفرص السانحة، عامل الوقت لابد من استغلاله الاستغلال الأمثل إن أردنا تفوقًا على هذين المجرمين.

- حسنًا...تهانئي لك بدهاء قد حظيت بقدر وفير منه يا (شوقي)، تثبت بمرور الأيام قدرتك الفائقة على ترجمة حقدك على هذين الصديقين إلى تدبيرات، قد تنجح أحداها في القضاء عليهما ذات يوم.

- كل غايتي أن أكون قد نلت بعض حسن ظن سيدي.

- دعنا من ذلك النفاق الآن، لن يُضيف جديدًا لما نريد، لنفكر فيما هو أولى بالتفكير فيه، من تراه يقوم بمثل هذا الدور؟

- أنا أقوم به!

قالها ذلك المساعد (سعيد)؛ فتعلقت به الأنظار ليستطرد حديثه قائلاً:

- أنا سأقوم بهذا الدور، سأذهب إليهما فلم يسبق (لعبد الرحمن) أو (عوضى) أن قابلاني أو رأياني من قبل، وعليه فهم لا يعرفان متانة

العلاقة بيني وبين الضابط (مازن) أو أني ذراعه الأيمن الذي يعتمد عليه.

- لا يا (سعيد)، سأرشح غيرك لهذا الدور، قد تتطور الأمور لمرحلة لا أريد إقحامك فيها، مجرمان كهذين لا يجب أن نأمن عاقبة رد فعلهما إن اكتشفا الأمر أو حتى شكا فيه مجرد شك صغير.

- لا داعي لأن يراودك القلق يا حضرة الضابط، عملنا لا يليق به بطبيعة الحال، سألعب هذا الدور، أنا له.

قالها ذلك المساعد باسمًا قبل أن يأتيه رد رئيسه قائلاً:

- حسنًا يا (سعيد)، حسنا، دعنا إذن نعد للأمر سريعًا الآن، فكما ذكرت قبل قليل، عامل الوقت هو الأهم الآن بين جميع عوامل اللعبة.

(22)

كانت ليلة هادئة إلى حد كبير، قضاها (عبد الرحمن) وصديقه (العوضى) كعادتهما في سابق الليالي بين جدران تلك الشقة الصغيرة التي يملكها (عبد الرحمن)، سمر معتاد شامل لكل الأمور المتعلقة بحياة الصديقين بجانبيها الهادئ والمثير، قطعته تلك الطرقات على الباب، قام (عوضى) بفتح الباب بعد تبادل للنظرات مع صديقه وسؤال معتاد عن هوية الطارق بلا إجابة شافية من أحدهما، فتح الباب ليجد ذلك المتنكر قائلاً:

-أهلاً سيدي، هل لي أن أساعدك بشيء ؟

- أأنت السيد (عبد الرحمن)؟

- حقيقة لا، أنا صديقه، لكننا سواء على كل حال، ستجد لديه فقط ما ستجده لدي وما دون ذلك، لن تجده.

- اعذرني يا سيدي، الأمر يتعلق بالسيد (عبد الرحمن) فقط ولا أحد غيره.

- لا بأس بذلك، هو بالداخل على كل حال، تفضل سأستدعيه لك لتلك المقابلة التي تريدها، بحضوري!

تركه (العوضى) يدخل وتوجه إلى صديقه الجالس بشرفته ينتظر قدومه كاشفًا عن هوية الطارق الذي تركه قبل قليل لاستكشافه وقد استقبله بقوله:

- ترى من يكون زائرنا في مثل هذا التوقيت؟

- لا أعرف، أحد الغرباء يريد الحديث إليك شخصيا.
- يريد الحديث إليَّ أنا؟ ألم تسأله من يكون وماذا يريد؟
- فعلت ورفض الإفصاح عن أي شيء قبل أن يراك، رفض الاقتناع أن حديثه إليك لن يتم إلاّ بحضوري.
- حسنًا، دعنا نلبي رغبة ذلك الغريب، لا أحبذ كثيرًا ذلك الجو الغامض، يكفينا معايشته في أوقات العمل، لا حاجة لنا به في أوقات الراحة أيضًا.
دقائق قليلة كانت كفيلة بظهور (عبد الرحمن) منتظرًا ما يحمله له هذا الزائر غير الاعتيادي الذي استقبله قائلاً:
- لابد أنك (عبد الرحمن)، أليس كذلك؟
- لا يحتاج الأمر إلى تخمينات يا عزيزي، أنا في خدمتك.
- لن أطيل عليك كثيرا سيد (عبد الرحمن)، جئت أعرض عليك تعاونا بيننا، قد يثمر في نهايته عن إقصاء عدو طالما أرَّقك وأرَّقني وأرَّق صديقك هذا.
كلمات تحظى بقدر كبير من الغرابة، تبادل على أثرها الصديقان نظراتهما، قبل أن يعودا إلى مخاطبهما بنظراتهما تلك يتبعها قول (عبد الرحمن):
- أرى أن تراعي في حديثك مستوى ذكائنا المحدود يا سيدي، كلامك بحاجة للمزيد من الإفصاح عن غايتك من تلك الزيارة.

- عذرًا سيد (عبد الرحمن)، لم أقصد إبهاما أو إهانة بطبيعة الحال، هو فقط تمهيد للقادم من تفاصيل عرض جئت أعرضه عليك.
- إلينا إذن بذلك التمهيد الذي يأبى الخروج من بين شفتيك، من تقصد بذلك العدو الذي أرّق الجميع؟
- (مازن السيد)، ماذا عنه؟
- بل ماذا عنك أنت؟ لم تفسر بعد ما قصدته بإمكانية التعاون بيننا للقضاء عليه أو إقصائه كما تسميه أنت.
- لن أطيل سرد المقدمات أكثر من هذا وقد بدا عليكما التأفف يا سادة، من أمامك الآن يا سيد (عبد الرحمن) هو (سعيد) الذي كان حتى وقت قريب الذراع الأيمن لعدوكما اللدود الضابط (مازن السيد).
-كان؟ أرى خلف ستائر صيغة الماضي تلك الكثير من دلائل قد تكشف بعضًا من غموض زيارتك تلك يا سيد (سعيد).
- كنت محقًا إذن حين لجأت لرجل بمثل ذكائك يا سيد (عبد الرحمن)، لم يخذلني حدسي كعادته...أطاح بي (مازن) بعد ثبات تورطي في قضية رشوة، عُرِضَ عليَّ فيها التغاضي عن عملية تهريب تورط فيها رجل أعمال كبير مقبل مبلغ خيالي، وحين عرضت عليه تعاونًا مشتركًا بيني وبينه كان رده بـ.....
- كان رده بالرفض بعد تمسكه بدواعي شرف المهنة وأمانة العمل، أليس هذا ما تود قوله يا سيد (سعيد)؟

- ألم أقل لك إن ظني بذكائك المفرط لم تلحقه الخيبة حين لجأت إليك؟ كان منطقه المعروف عنه برفض تلك المعاملات التي يسميها فسادًا، وعليه فكان إيقاعه بي وبرجل الأعمال الذي يمثل الطرف الثاني للصفقة.

ضحكة صغيرة كانت الرد الأوحد لـ(عبد الرحمن) ناظرًا للأرض قبل أن يرفع رأسه من جديد يصفق ساخرًا من زائره قبل أن يقول:

- بل يمثل الطرف الثاني للتمثيلية، أداء تمثيلي لا بأس به يا عزيزي، غير أن سيدك (مازن) قد اختار مؤديًا فاشلاً لدور كساه الفشل من الأساس قبل أن يُجسَّد.

- ماذا ؟ لكن !.

رفع (عبد الرحمن) يده مشيرًا له بالسكوت، وقد تحولت هيئته من تلك الساخرة إلى نقيضتها الجادة قائلاً:

- لعلك تتفق معي أنك حصلت على فرصتك الكاملة في عرض ما تريد يا سيد (سعيد)، أراني الآن ذا حق بنيل نفس الفرصة في الحديث إذا لم ينل هذا الأمر من إزعاجك أو إفساد خطتك وخطة رئيسك حضرة الضابط.

صمت (سعيد) وقد سرت بين عروقه تلك المشاعر المتضاربة بين تخوف من فضح وشيك لأمره بدا واضحًا من سياق كلامه وانتظار للآتي من كلام (عبد الرحمن) الذي استطرد كلامه في جدية قائلاً:

- يبدو أن سيدك (مازن) قد أخطأ تقديره لخصمه مجددًا، لازال يترفع عن الاعتراف بصلابة رآها كثيرًا من هذا الخصم صعب المنال، إضافة لاختياره ممثلاً فاشلاً للقيام بدور تخيل أن سذاجتي قد وصلت لمرحلة تسمح بتصديق مثل هذا الهراء والاقتناع به، أما إذا لجأنا إلى الخيار المسمى بحسن النية وصدقت قصتك تلك، فأنا أبدًا لا أضع يدي في يد خائن لسيده الذي عمل إلى جانبه سنوات، قد تنقلب عليَّ أيضًا ذات يوم، لا تتعجب من منطقي هذا، فقد أكون مجرمًا، لكن للمجرمين مبادئهم أحيانًا يا عزيزي، وتذكر أن هذا فقط في حالة تصديقي لقصتك العجفاء، وهو بالطبع البعيد تمامًا عن الواقع، تستطيع الانصراف الآن، ولا تنسَ إبلاغ حضرة الضابط خالص تحياتي وامتناني عن ذلك الفاصل المسلي الذي حظينا به.

كلمات تمنى (سعيد) بعدها لو أن الأرض قد انشقت وابتلعته، قبل أن يقف موقفه ذلك الذي غمره فيه خجله من فشل سريع ذريعة أصاب محاولته، تلك التي أعد لها مع رئيسه كثيرًا، غير أن عمر تطبيقها كان أقصر كثيرًا من عمر إعدادها، لم يملك الآن إلا الانصراف صامتًا خجلاً، غير قادر حتى على النظر في وجه (العوضى) أو (عبد الرحمن)، بعدما تفوقت حنكة ذلك الأخير على كل ما كان بينه وبين سيده الضابط من تدابير.

ها هو (عبد الرحمن) يثبت من جديد أن النيل منه قد حظي من العسر بقدر أوفر من بلوغ السماوات أو الحفر على الماء، لم تأتِ الحيلة إذن

بالنتيجة التي رجاها ذلك الضابط ومساعده، أصابها الفشل كما أصاب محاولاته العنيفة قبل ذلك، فكان مصير الطريقتين واحد، وقف ذكاء (عبد الرحمن) ساترًا يمنع نفاذ أي من الطريقتين إليه، فظل على حاله من الأمان المؤقت الذي لا يحظى بمثله كثيرًا أصحاب العيش الإجرامي، غير أن وضع (عبد الرحمن) المختلف مازال يثبت نجاحه في توفيره فترات تُعد أعمارًا في مثل عالمه ذاك الذي يجمعه بخصومه هؤلاء.

دقائق قليلة بعد رحيل ذلك المتنكر، الفاشل تنكره، قضاها الصديقان في حديث باسم حول ما سمياه بالموقف الهزلي، ضحكا له حينا وتخوفا منه آخر، بعد تيقنهما أن محاولات (مازن السيد) لم ولن تهدأ للنيل منهما...

كان لرنات هاتف (العوضى) ذلك الصوت الذي نجح في قطع حديث الصديقين، أنهاه صاحبه بإجابة معتادة لاستقبال مكالمة هاتفية، قبل أن تتغير هيئته من الهادئة ذات الصوت المنخفض إلى المصدومة صاحبة الصوت العالي، من ذات العينين الضائقتين في برود إلى صاحبة العينين الجاحظتين في مفاجأة قائلاً:

- ماذا؟ متى كان هذا وكيف؟ كيف حالته الآن؟ حسنًا ، حسنًا أنا قادم على الفور وبصحبتي (عبد الرحمن).

قالها ثم أغلق الهاتف قبل أن يأتيه استفسار (عبد الرحمن) قائلاً:

- ماذا دهاك؟ ماذا حدث غيَّر هيئتك هكذا ؟ ومَنْ هذا الذي تسأل عن حالته؟ والى أين سنذهب على الفور؟

- أحد رجالنا يقول لي إن المعلم (سعد) قد نقلوه إلى المستشفى فجأة، بعدما فقد وعيه تمامًا ويرقد الآن في العناية المركزة.

- ماذا؟ هيا بنا سريعًا إذن.

- هيا بنا.

القليل من الدقائق احتاجاها ليلتقطا معطفيهما ويهبطان إلى سيارالهما، قبل أن يستقلاها يقودها (العوضى) بكل ما استطاع وأمكن للسيارة إحرازه من سرعة، عدة شوارع جانبية مظلمة إلى حد كبير كان للسيارة أن تخوضها بهما قبل الوصول إلى الطريق الرئيسي، غير أن ظلام تلك الطرق قد ضم إلى ظلامه شيئًا غريبًا غير اعتيادي، توقف (العوضي) أثر رؤياه، توقف فجأة على جانب الطريق، متعلقة عيناه بسيارة أخرى واقفة بلا قائد قبل أن يجول نظره بينه وبين (عبد الرحمن) السائل في تعجب:

- لماذا توقفت فجأة هكذا؟ وما سر إعجابك بهذه السيارة إلى هذا الحد الكبير؟

- انظر إليها، تشبه كثيرًا سيارة ذلك الممثل الفاشل الذي زارنا قبل قليل، بل إني لا أظنها إلاّ هي بعينها.

- وكيف عرفت؟

- رأيته يستقلها بعد انصرافه بعد ما كان من مقابلتنا معـــه، كنـــت أراقبه من شرفتك حيث قادها وابتعد.

- لا بأس، ماذا عن توقفك الآن؟ لم يعد لنا شأن به بعد ما حـــدث، ثم إن وقوفه قد يكون اعتياديًا لا علاقة له بهذا المناخ البوليســـي الـــذي تصر على سيادته.

- تابع الوضع بتركيز أكثر يا صديقي، انظر إليها أنها بلا سائق، لمـــاذا يتوقف في مثل هذا المكان الذي لا حاجة لعابر سبيل في الوقوف فيه؟

- ألهذا السبب توقفت؟ هيا يا (عوضى) بالله عليك، أمامنا مـــن هـــو أهم الآن، لا شأن لنا به...كان فقرة طريفة استمتعنا بها وانتهى الأمر، المعلم (سعد) يحتاجنا بجانبه الآن، الأهم فالمهم يا عزيزي، وإن كنـــت أرى هذا الذي تفكر فيه لا يمت للفظ الأهمية بأي صلة تُـــذكر مـــن الأساس.

- انتظرني هنا!

قالها وفتح الباب منطلقًا إلى تلك السيارة يعاينها لدقائق، قبل أن يعود سريعًا إلى صديقه، وقد عكس اتجاه سيارته عائدًا بها إلى البيت وســـط استغراب شديد من (عبد الرحمن) الذي بادره بسؤاله قائلاً:

- إلى أين أنت ذاهب؟

- هذه السيارة توقفت هنا رغم أنف صاحبها، بابها الأمامي به بعـــض العلامات الدالة على أنه قد فُتحَ عنوة دون رغبة من السائق في ذلك!

- ماذا تعني؟

- الآن سنعرف إن كان ما أعنيه ذا قيمة أم أنهـــا مجـــرد اجتـــهادات لشيطاني الرجيم.

عدة دقائق أخرى كانت كفيلة بعودة الثنائي إلى قواعده من جديـــد، أسرع (عوضى) إلى الشقة يتبعه (عبد الرحمن)، الذي لا يفهم أي شيء مما يعنيه صاحبه البادية على وجهه علامات مـــن العجلـــة، لا يفهـــم لظهورها تفسيرًا، غير أنه قد آثر الانتظار للكشف عما يقصده بكـــل تلك التصرفات، التي يراها نالت من الغرابة حظًا لا بأس بـــه، فـــتح (العوضى) باب الشقة، واتجه إلى الداخل، وفي ظله صـــديقه قبـــل أن يتوقف الاثنان في هيئة هي الأجدر وصفًا بالمصـــدومة الأحـــق لفظًـــا بالمتفاجئة، بعدما اتسع محيط جفونهما وتجمـــدت أقـــدامهما، كأنهـــا المزروعة بالأرض منذ أمد بعيد تمتد جذوعهما إلى سنوات طـــوال، ولم لا وقد وجدا أمامهما ذلك المنظر الـــذي تشـــيب لمـــرآه خصـــلات الولدان، ذلك الرجل الذي زارهما قبل قليل لقى حتفه مذبوحًا غارقًـــا في بركة من دمائه، جثة هامدة بلا حراك.

(23)

كانت ليلة الضابط (مازن) بقسم الشرطة جديرة بتسـجيلها، ليلـة مشهودة قضاها ينتظر ما ستسفر عنه تخطيطاته وتنفيذ مسـاعده لهـا، غير أن ساعات انتظاره قد طالت كثيرًا، لا يجد من بينها مـا يـؤنس طول دقائقها ولا يزيل عناء فراغها إلاّ تلك السجائر الـتي اسـتقبل صدره قدرًا لا بأس به من أدخنتها، يستعين بها متأففًا من انتظاره على ساعات ذلك الانتظار..

- (عبد الرحمن)، كم أرهقني التفكير فيك أيها المجرم العتيـد، كنـت ومازلت الوحيد الذي أرَّق جفوني لليال لم ينجح سواك في اصابتي ولو بدقيقة واحدة من مثل أرقها، ها هي جولة جديدة من السباق لا أعلم عما ستسفر عنه عند خط نهايتها، هل عن فوز آخر تضيفه إلى حلقات سباقاتنا السابقة؟ أم تكون آخر الجولات حين تقيـد يـداي يـديك أصحبك إلى سجن طالما كنت الأجدر بأن تكون من نزلائه، سـنوات طوال وما زالت أحبال صراعاتنا على حالها من الاتصال دون انقطاع، عامان اختفيت فيهما عن الأنظار كانا الأكثر هدوءًا بين سنوات عملي السابقة لاختفائك والتالية لظهورك من جديد كبطل علـى مسـارح الجريمة التي طالما كنت نجم شباكها الأول، لا أزال حتى الآن لا أعرف لموقفنا المعلق هذا المناسب من الأسماء، هل فشل لقدرتي البوليسـية في الإيقاع بمجرم الجميع على علم بإجرامه؟ أم كما يسـمونها عبقريـة إجرامية حظيت بها وباتت جينًا من جينات جسدك المعتاد على الجريمة

والمعتادة عليه، لم أعد أرى جدوى من كل تلك الخواطر علـى كـل حال، يبقى الحال على ما هو عليه، ضابط يجتهد في مطاردة مجرم يهدد أمن الجميع، ومجرم يجتهد في الإفلات من كمائن ذلك الضابط المهـدد لأمنه فقط، وبين اجتهادي واجتهادك يبقى لكل منا ثقله في عالم الجريمة الذي يعرف أهله كلانا تمام المعرفة.

(24)

منظر دموي هال الصديقين لم تسعفهما ألسنتهما عند رؤيته بالتعبير حتى عن دهشة قائمة بشدة بين أضلعهما، فاكتفت ملامحهما برسمها على وجهيهما قبل أن ينطلق صوت خافت لـ(العوضي) قائلاً:

- توقعت سوءًا، لكن ذهني أبدًا لم يصل بتخمينه إلى مثل تلك النقطة السوداء، أقصى ما توقعته أن يكون قد عاد للتفتيش عن شيء يديننا أو ما شابه ذلك، لكن يبدو أن الأمور قد دخلت مرحلة من التعقيد لا أرانا نحتملها!

- م، ماذا سنفعل الآن؟

- لابد من الابتعاد عن هذا المكان بأسرع وقت، لا شك أن الشرطة ستصل إلى هنا بين لحظة وأخرى، قاتل هذا الرجل أراد تورطنا، ولن يدخر جهدًا في استدعائها بمجرد رؤيتنا ندخل هذا المكان.

- أتعني أننا مراقبان الآن؟

- من دون شك، هيا هيا، لا وقت لدينا للحديث.

انطلق الصديقان إلى جهة لا يعلمها أي منهما وهما المشغولان عن ذلك بالابتعاد لأكبر مسافة ممكنة عن مسرح جريمة هما بعين الجميع الآن بطلاها، رغم أنهما لم يصعدا خشبة المسرح من الأساس..

دقائق من تفكير كليهما الصامت سبقت تلك الكلمات التي بدأ بها (عوضى) حديثه في نبرة أقرب للضعف قائلاً:

- يبدو أن أحداث الفيلم في طريقها للمزيد من السخونة الآن، الأمور تتخذ منحنى أخطر مما وصل إليه تشاؤم أحدنا بكثير، ومخرج الفيلم يتابع الأحداث من بعيد بشفتين باسمتين وعينين كساهما الرضا التام بعد نجاحه في التلاعب بجميع الأبطال كما الدمى.

- ومَن تراه يكون هذا المخرج المجهول؟

- هذا ما عصرت ذهني أحاول اكتشافه، وقد حان الوقت لأتيقن تمام اليقين من وساوسي حول هويته الآن.

قلها وأمسك هاتفه يضغط بعض أرقامه قبل أن يرفعه إلى أذنه محادثًا الطرف الآخر في استعجال قائلاً:

- كيف حال المعلم (سعد) الآن؟ حسنًا أعطِ الهاتف للطبيب الذي يجاورك أريد الاستفسار منه عن الحالة بتفصيل أكثر.

- ثوان قليلة واستطرد قائلاً يحادث الطبيب:

- أهلا يا سيدي، أنا (عوضى) من رجال المعلم (سعد)، أردت فقط الاستفسار عن ما حدث له تفصيلاً إذا سمحت.

ظل دقائق على حالة من الإنصات الذي بدا جليًّا عليه تركيزه المطلق، قبل أن يعود من جديد إلى الطبيب قائلاً:

- أشكر لك مجهودك حضرة الطبيب، إليَّ بمن كنت أحادثه قبل قليل إذا سمحت.

ثوان فقط انتظرها بلا حديث، قبل أن يعود من جديد إلى ذلك الذي يقصده سائلاً:

- من كان أخر من جالس المعلم (سعد)؟ هل أنت متأكد؟ حسنًا!

قالها وأغلق الهاتف وسط متابعة قتلها الشغف لاستكشاف ما وراء حديثه من (عبد الرحمن)، الذي قطع لحظات شرود صديقه بعد المكالمة قائلاً:

- هل وصلت لشيء ذي قيمة؟

- الآن فقط انكشف حل ذلك اللغز المتشابكة أركانه، قال لي الطبيب إن المعلم (سعد) قد تناول قدرًا من المخدرات كفيل بإرساله إلى العناية المركزة، غير أنه لم يصل لدرجة ترسل اسمه إلى سجلات الأموات، ساعد على ذلك وجود تلك الكمية مذابة في مشروبه الدافئ الذي أعده له أحدهم، فساعد المشروب على تخفيفها بعض الشيء، وبسؤالي عن أخر مجالسيه قيل لي أنه (شوقي)!

- هل تعنى أن (شوقي) كان وراء كل ما حدث؟

- هل لديك من التفسيرات ما يخالف هذا التفسير؟

صمت (عبد الرحمن) حينًا، يعجز عن إيجاد مبرر لما حدث غير هذا بالفعل، قبل أن يستطرد صديقه (العوضى) المتابع لصمته:

- أدار (شوقي) الجريمة باحترافية شديدة، كان على علم بقدوم (سعيد) رجل (مازن) بشكل أو بآخر، وحين علم بمغادرته بعد لقائنا به تمت جريمة القتل بمنتهى السرعة في دقائق، قبل أن يوصي أحدهم بمهاتفتنا لإخبارنا بمرض المعلم (سعد) الذي أداره هو أيضا بمنتهى الدقة

وحين تأكد من ابتعادنا عن البيت قام بنقل الجثة إلى الشقة؛ لتكتمل أركان الجريمة بمنتهى الاحترافية.

-لكن، أيمكن لرجل مثل (شوقي) أن يدير جريمة ضخمة متكاملة الجوانب كهذه؟ ليس إلاّ رجلاً من رجال (العامرى).

- قائمة أعدائك وأعدائي أطول من أن تحصيها عيناك وعيناي مجتمعتين يا عزيزي، استعان بجانبين ساعداه في ذلك أحدهما أصبح ضحية مثلى ومثلك وهو (مازن)، الذي أعجبته فكرة الإيقاع بنا عن طريق مساعده، غير أني لا أظنه كان على علم بباقي خطوات وترتيبات المؤامرة.

- ومن تراه يكون الطرف الثاني العالم بكل الأركان؟

- لا يحتاج الأمر لتفكير طويل يا عزيزي، هناك من لم ينس بعد ثأره القديم معك ومعي قبل أعوام.

-أتقصد.....؟

-نعم، هو بعينه، هل في قائمة أعدائك من يتمنى الخلاص منك ومن صديقك ومن معلمك مثله؟

(25)

جلسة منتظرة علت بالضحك أصوات جالسيها، بعدما تحقق لهم ما أرادوا وأكثر، عقب تخطيط ناجح بكل المقاييس، لم يعد عليهم الآن إلا الانتظار فقط لما ستسفر عنه تدبيراتهم للإيقاع بهذين اللذين أسكتوهما بجحورهما سنوات.

- ما أشد دهاءك يا (شوقي)، لم أكن أعلم أن مقدار كراهيتك لـ(عبد الرحمن) وصديقه بهذا القدر الذي دفعك لمثل هذا التدبير المحكم لمؤامرتنا تلك.

- لا زالت اللعبة في مستواها الأول يا معلم (جابر)، وأقسم أن هذا الذي تراه الآن لن يهدأ له بال حتى الوصول بنجاح لخط النهاية.

- قلبي يحدثني أن جعبة مؤامراتك لم تفرغ بعد.

ضحك (شوقي) ضحكة خفيفة طأطأ لها رأسه قليلاً، قبل أن يعود ناظرًا بابتسامته الخبيثة التي عهدها منه الجميع إلى (جابر) قائلاً:

- لم أكن أظن أن فرحتك بهذه الخطوة سترضى طموحك لتكتفي بها بهذه السهولة يا معلم (جابر)..

- ماذا تنوي أن تفعل الآن أيها الداهية؟

-يقولون إنك إن أردت أن تقضي على خصمك فادخله في صراع مع أقوى وأعنف أعدائه، فان لم يقضِ عليه ذلك العدو، فهو بالتأكيد سيكبده العديد من خسائر تفت بقوة في عضده، حينها تستطيع بكل سهولة الانقضاض عليه، تمحو أي أثر له في طريق تقدمك.

- لكننا بالفعل أدخلناه هذا الصراع، لا أظننا نجد أعنف من (مازن السيد) لنجعله في مواجهة (عبد الرحمن) و (عوضى)، هذان الرجلان الآن في نظره هما قاتلا أقرب مساعديه إليه، لا أظنه يتنازل بسهولة عن ثأر كهذا.

- لكن هذا المساعد ليس أعز من تضمهم جدران هذا الضابط يا عزيزي.

- ماذا تقصد؟ لا زلت لا أفهم.

- (عبد الرحمن) الآن متهم بقتل المساعد الأول لـ(مازن)، ومجرم بحجم (عبد الرحمن) لن يستسلم بسهولة، قبل أن يجرى بعض المساومات التي سيتفتت لها كبد (مازن) غيظًا، فقط بعض من محاولات ينتهجها المجرمون في مثل موقفه هذا.

- أقسم أني لم أفهم أي حرف مما قلت للتو.

كلمات أثارت ضحك (شوقي) الذي تابع شرب كأسه في هدوء أقرب لأن يسمى برود قبل أن يستطرد قائلاً:

-لا بأس يا معلم (جابر)، لا بأس، اعلم فقط إن حلقات المسلسل لا زالت تُعرض، لم نصل لحلقة النهاية بعد.

(26)

كان (عوضي) على حق إذًا حين صرَّح لصديقه بشكه في وجود داعم خفي لـ(شوقي) ساعد وبقوة في سير الأمور على مثل هـذا النـهج المحكم الذي أدى في نهايته إلى مثل تلك النهاية المؤلمة للصديقين المبهجة لأعدائهما.

لا زال الحديث موصولاً بين الصديقين الباحثين فيما بينهما عن حـل للخروج من مأزق نجح (شوقي) و (جابر) بامتياز في جرهما إلى نيرانه، جريمة محكمة الأركان عتيدة الأعمدة أسرت في قيودها (عوضـي) و (عبد الرحمن) بشكل عسير عليهما التخلص منه وهما المتورطـان الآن في جريمة قتل لا ذنب لهما فيها على الإطلاق

- هل لي بسؤال يا (عوضي)؟

- بالطبع يا صديقي، هات ما عندك فليس بـين اثنينـا مثـل تلـك الاستئذانات.

-ألا زلت على اعتقادك أني صديقك ذلك الذي غاب عن عالمك قبل أربعة أعوام وعاد إلي أحضان صداقتك قبل عامين؟

سؤال غريب لم يتوقع (العوضي) أن ينطقه لسان صاحبه، بـل إنـه لم يفهم ما وراءه من مقاصد أراد (عبد الرحمن) إيصالها لإدراك صـديقه، فكان رده الناجم عن لسان لوجه علته بشدة علامات الاستغراب:

-أرى أن أخر الأحداث تلك قد نالت من صلابة صديقي التي لم أعهد لها انكسارًا أمام الكثير من أحداث سابقة.

- لم تُجبْ بعد سؤالي يا (عوضي).

- ماذا تقصد يا (عبد الرحمن)؟ أهو ذلك الشـك الأجـوف حـول هويتك من جديد؟ ليست المـرة الأولى الـتي تـراودك فيهـا هـذه التخمينات.

انطلقت كلمات (عبد الرحمن) بعد رد صديقه ذلك تشـوبها بعـض دموعه التي لم يستطع السيطرة على سريانها على خديه قائلاً:

- لماذا لا يفهمني أحدكم؟ لماذا تجتهدون في تعذيبي؟ لست ذلك المجرم الذي تقصدون، لم أشعر يومًا بانتمائي لعالمكم ذاك ولـو مـن بعيـد، لستُ إلاّ مصابًا في حادث لا يملك من تذكارات ماضـيه البـائس إلاّ صورة لميت وورقة ذات تاريخ قادم بعد سنوات ذيَّله توقيـع ذلـك المسمى (علاء)، ليس ذنبي أن ألقتني أقداري بين خصوم لا يملكون من أماني الحياة إلاّ رؤيتي أتمزق أمامهم تمزيقًا، لا لشيء إلاّ لجرائم لا أذكر أني ارتكبتها في حق أحدهم يومًا ما، إلاّ من تلك الحكايات التي ذكرتها ومعلمك لي، إن كنت فعلتها فالرحمة أيها الخصوم، دعوني لحياة هادئة لا أعادي فيها أحدًا ولا يعاديني فيها أحد، وإن لم تقترف يـداي مـا تزعمون، فلا أملك إلاّ عفوًا عن الجميع زاهدًا فيمـا كـان لي مـن الحقوق، اللعنة على ذاكرة ابن آدم وقد حظيت بذلك القدر العظـيم من التفاهة، حادث لا يتعدى عمره ثوان كفيل بإلقائه إلى أمواج مـن نيران الغموض بلا فلك تسعفه أو ربان ينقذه إلى شاطئ ينفض فيه عنه ما داهمه من هموم هو على يقين أنه لم يكن لحدوثها سبب قط، هكـذا

دومًا وصايا حدسي فاقد الذاكرة لي، يحدثني أنك لم تُخلَق لمثل هـذه المطاردات والمؤامرات، خلقت لحياة النهار لا لحياة الليل، لعيشة الاستقامة لا لعيشة الانحراف، من أصدق بحق السماء؟ حدسي القاصر أم ألسنتكم الظالمة؟ ذهني المريض أم سردكم القاسي؟ إليَّ بالحلول يـا صديقي الوحيد، إليَّ بالحلول وأنقذ صديقك الواقف على حافة الهلاك.

لم يكد يتم كلماته الأخيرة تلك إلاّ وانهار باكيًا غير قادر على إكمال حديثه الدامع أوله المنهار بالبكاء آخره، لم يدرِ (عوضي) ما يجيب به صديقه غير يده يربت بها على كتفه وقد ضم رأسه الباكي إلى صدره، يربت بيده الأخرى على ظهره المنحني من كثرة ما حمله من المآسي قائلاً:

-أعلم يا أخي ما أنت فيه، صدقني لو قلت إني أعيش ما تعيشه وأكثر، حياة الأجرام لا تروق لأحد يا عزيزي، غير أننا نشأنا عليها وفى رحابها كانت تربيتنا، لا أحد يحب حياة المطاردات أو يُحبذ عيشة المؤامرات، لكنها حياتنا التي لم نعرف سواها أو نلاقي غيرها، عشنا قبلها نلتحف برد الشتاء ونكتوي بلهيب الصيف، لا مغيث لنا من كليهما إلاّ بضعة قروش يَمنُّ بها علينا أحد المارة حين تطرق دموعنا باب الرحمة في فؤاده، سنوات عشناها لا نعلم لنا أهلا ولا نرى لنا مأوى، أما وقد أغنانا (سعد العامرى) مرارة السؤال وذل الحاجة، فلم يكن أسهل علينا من أن تقتادنا سذاجتنا إلى طاعته ويدفعنا حرماننا إلى تصديقه، لا لشيء إلاّ رغبة في لقمة تلبي نداءات بطونا جائعة وغطاء

يأوي تشرد أبدانا سلبتها أدميتها رياح ليل بارد، هكذا بدأت حكايتنا وهكذا ستنتهي يا صديقي الوحيد، لا أحد يكتب سطور صحيفته يا صديقي، تكتبها أقدارنا وتنفذها جوارحنا بكل اقتدار، أعلم رغبتك الجادة في الشرود عن طريق الجريمة إلى غيره بأسرع ما يكون، لكننا الآن في ورطة يا صديقي، خلاصنا الوحيد يكمن في تفكير منظم مركز للخروج مما نحن فيه، وأعدك بعدها أننا سنودع تلك الحياة تمامًا إلى أخرى نصادق فيها الهدوء ونجالس بها الاستقامة، فقط دعنا نرتب أوراقنا الآن للخروج بأفضل النتائج.

لم تكن العلاقة بين (عبد الرحمن) و (عوضي) مجرد صداقة جمعت طفلين مشردين آوتهما جدران عائل واحد، أو أخوة ضمت رجلين مجرمين يعملان لحساب نفس العائل، كانت علاقة من نوع آخر مختلف، نوع لا يراه الكثيرون متواجدًا في حياة لا تشهد إلاّ الدماء ولا يرى أهلها إلا سفكه، ذلك النوع الخفي الحامل لبعض من شعور بالغربة حين تدق ساعات العمل الإجرامي، الضام لبعض من إحساس بالضياع حين تغرب شمس الهدوء ويطغى ليل المؤامرة بعنفوانه، كثيرًا ما انتابتهما ذلك الشعور الواحد بالرغبة في حياة أكثر سكينة من تلك التي يعيشانها وعيش أقل خطرًا من ذلك الذي يتقلبان في عسره، غير أن تلاحق الأحداث من جانب وفقدان البديل من جانب آخر ووساوس الأبالسة من ثالث الجوانب كان لها رأي آخر خالف تمامًا رغبة الصديقين، لتستمر بكليهما أيام التشتت بالغة بهما حدًا من

الانفصام الغريب الذي لم يعتد أهل ذلك المجال بلوغه في كثير من الأحيان، لا يهنئ الكثير من المجرمين بضمير لا زال ينبض ببعض الأمل في التوبة، وعليه فهم في كامل الرضا عما تقترفه أياديهم وتسير إليه أقدامهم، أما وقد ضمت جنبات هذين المسكينين مثل هذا الضمير نصف الحي، فهما لا يزالان في تلك المنطقة الرمادية بين سواد الجريمة وبياض التوبة، تشدهم أمانيهم إلى ثاني الطوابق وتأبى أيامهم إلاّ جذبهم لأولها، وهما بين شد الثانية وجذب الأولى لا يزالان ينتظران ما ستسفر عنه معركة المنطقتين.

(27)

الوضع في مسرح الجريمة الآن ليس على مثل هدوئه الذي كان عليه قبل قليل، ضج المكان برجال الأمن والمباحث وعلى رأسهم ذلك الضابط المصدوم مما وصلت إليه سخونة الأحداث، وقف على جانب من تحركات تابعيه ورجاله وقد شرد بتفكيره إلى عوالم أخرى، كلها ذات صلة وثيقة بذلك العالم المتلاحقة أحداثه على نحو أسرع مما توقعه وتوقعه محيطوه، ظل على شروده ذلك نحوًا طويلاً يهيم على وجهه بين كل ما كان من مصادمات مع ذلك الثنائي الهارب يحدث نفسه قائلاً:

- ها قد أضعت بغبائك أقرب مساعديك أيها الضابط الأرعن، جرتك رغبتك في الإيقاع بذلك الحقير إلى التضحية ببرئ لا علاقة له بخصومة تجمعكما، لا داعي لإخفاء رأسك في رمال الغرور أكثر من ذلك، طالتك الهزائم مرارًا من ذلك المجرم، وأنت العاجز حتى عن رد الضعيف من صفعاته، وإن كانت صفعاته لم تعرف للضعف سبيلاً قط، حتى بلغت أخيرًا تلك المرحلة من الرعونة، لتنقاد وراء توجيهات تافه مثل (شوقي) لم يُردْ يومًا إلاّ تخليص ثأر جمعه بهذين القاتلين، أي أنك وبك بساطة قد سخَّرت جهاز الشرطة بأكمله لرغبة مجرم هو الآخر على خصومة مع عدويك، اجتمعت خصومتكما لتُعجِّل بقيامة أفضل معاونيك على الإطلاق، إن كان قد سامحك هو فماذا عن يُتم أطفاله، إن كان قد عفا عنك فماذا عن ترمل زوجته، إن كان قد صفح عنك فماذا عن ثكل أمه، هل من طاقة تملكها فتحمل عن كاهلك الضعيف

صراخ اليتامى وبكاء الأرملة وأنين الثكلى؟ آه عليك يـا مسـكين، كيف بك لصد كل تلك الضغوط التي توشـك أن ترسـل بـك إلى جحيم أولاك قبل جحيم أخرتك، ويا ليتك ببالغه فتهرب ببلوغه ممـا أحاطك من مطاردة سنوات..

الهروب، هل بات حلك الوحيد الآن؟ هل أصبح سـبيلك الوحيـد للخلاص؟ ما أضعفك أيها الضابط، لست إلاّ خيال مآتة نجـح مجـرم واحد في تصويره في هيئة الخصم الذي طاله عار هزيمته مـرارًا أمـام الجميع، أف لك إذ ناطحته وأف لك إن أدرت نطاحك معه بغباء،

دقائق من التيه عاشها (مازن) مرافقًا خواطره قبل أن يأتيه صوت أحد رجاله القادم إليه مهرولاً يسبقه قوله:

- سيدي، هاتف لك من المترل يريدونك في أمر هام.

تناول (مازن) الهاتف من الرجل مستفسرًا عن ذلك الأمر الهام قائلاً:

- (مازن) يتحدث، ماذا هناك؟ ماذا؟ ولدي؟ أنا قادم حالاً.

قالها وألقى الهاتف منطلقًا إلى مترله، بعدما ظهر أن هناك أمـرًا هامًـا يتطلب حضوره على عجل، ظهر جليًّا في صوت زوجته تحادثه علـى الجانب الآخر للهاتف، ليست إلاّ بعض أجزاء من الساعة كان كافيـا لوصوله إلى بيته؛ ليجد في انتظاره تلك الزوجة التي هدم البكاء تمامًـا معالم وجهها، فكانت رمزًا للانهيار نقشته أقلام مصـيبة حلـت بهـا وبزوجها للتو، ذلك الذي توجه إليها بسؤال احتل القلق نبرة صاحبه تمامًا:

- ماذا حدث لولدنا؟ أين هو؟

أجابته بصوتها الذي كادت دموعها تخفى ما يلفظه قائلة:

- لا أعرف، دخلت عليه، دخلت عليه حجرته، فوجدت شرفته قـد كسر بابها، و...وعلى طاولته تلك الورقة التي يبدو أن خاطفـه قـد تركها لك.

تناول (مازن) ذلك الخطاب القائل:

- لا تقلق بشأن ولدك يا سيد (مازن)، هو في أيد قد تكون أمينة عليه إن أظهرت روح التعاون، قد تستعيده إن نجحت في تنفيذ ما سـنطلبه منك لاحقًّا، فقط كن على كامل الاستعداد لاستقبال أوامرنـا عمـا قريب.

لم يكد (مازن) يتم قراءة تلك الكلمات حتى مزق الورقة تمزيقًا، وقـد أخذ يضم شفتيه إلى بعضهما في غيظ محدثًا نفسه قائلاً:

- تجاوزت كلَّ ما أمكن لك أن تتجاوزه من الحدود يا (عبد الرحمن)، والله لتنالن مني ما يؤسفك ويؤسف صديقك وبأقرب مما يتوقع خيالك الذي أوهمك بمستوى للذكاء تملكه يفوق مستويات الجميع.

(28)

عدة أيام مضت على (عوضي) و (عبد الرحمن) في تلك الشقة القديمة التي اتخذاها مخبأ لهما وهى المملوكة لـ(عوضي) منذ سنوات، لا يعلم بوجودها الكثيرون إلاّ من خاصة رجال (العامرى) الذي يرقد الآن بين أسرة المستشفيات لا يدرى عما يحدث أي شيء، خرج (العوضي) لقضاء بعض الحاجيات التي يحتاجها كلاهما تاركًا (عبد الرحمن) لأفكاره بعض الوقت قبل عودته السريعة الحاملة لجديد الأخبار، بدا من هيئته أن حدثًا جديدًا قد أُضيف لقائمة من الأحداث شهدهما فترهم الماضية، أنفاس متلاحقة ووجه شاحب، إضافة للسان راغب في الكلام غير قادر على إيجاد بداية مناسبة لسرده، فطن صديقه بالطبع لوجود ما نال من هدوئه المعتاد وأثَّر على هيئته الصامدة فكان سؤاله إليه:

- ماذا حدث؟ أراك كأنك الخارج من معركة!

- مصيبة...مصيبة يا (عبد الرحمن).

- ماذا هناك؟ تكلم!

- أخبرتني عيوننا أن أحدهم قد قام بخطف ابن الضابط (مازن السيد)، وبطبيعة الحال كل أصابع الاتهام تشير إلينا للضغط عليه في قضية قتل مساعده.

- ماذا؟

- لا زال (شوقي) يدير خيوط اللعبة بكل اقتدار، نجح تمامًا في تحويل كافة الأنظار إلينا وخرج هو من دائرة الضوء يراقب نجاح لعبته بكل ارتياح.

- مهلا يا صديقي، مهلا، لم لا ننظر للأمر من الجانب المشرق؟ نصف الكوب الممتلئ كما يقولون، الوضع ليس بهذا السوء.

كلمات عجيبة تشير للإشراق في موقف لا يحمل إلا غيومًا تجتهد في حجب أي وميض لشمس يحمل إشعاعها الخلاص من تلك الأزمات، لم يملك لها (العوضي) ردًا سوى ضيق للعينين رامز للاستغراب يصاحبه سؤاله:

- ماذا تقصد؟

- إن استطعنا أن نعيد لـ(مازن) ولده في سلام من براثن (شوقي) سيكون ذلك دليلاً غير هين على براءتنا في قضيتنا الأولى، قد يكون هذا هو خطأ (شوقي) الذي أوقعه فيه إمعانه في استخدام ذكاء ظن المسكين أنه يملكه، فرصتنا قد حانت يا صديقي ولا أراها قادمة من جديد في ظل ذلك التلاحق العجيب للأحداث.

- اقتراح لا بأس به، لكن لا تنسَ أن (شوقي) يضم في صفوفه من المساعدين ما تتفتت على صخور كثرهم أمواج رغبتنا تلك ونحن اثنين فقط، قد يكون ما تنويه أقرب إلى انتحار منه إلى إثبات براءة.

- لم أعد أهتم بالتسميات يا صديقي، إثبات براءة كما أسميه أنا أو انتحار كما كانت تسميتك لا يمثل ذلك فرقًا جديرًا بالأخذ في

الاعتبار، اسمع يا (عوضي)، بغض الطرف عن أزمتنا تلك واحتياجنا لكل خطوة تقربنا للخلاص مهما كانت صعوبتها، هناك الآن أثناء حديثنا ذلك طفل يرقد خائفًا بين أنياب مجرمين لا علاقة له بمعاركنا معهم أو ذات المعارك مع والده، أستطيع أن أرى آهات أمه ودموعها الآن تلمع أمام عينيَّ، دعنا نفعل شيئًا واحدًا ذا قيمة في حياتنا يا صديقي، قد يشفع ذلك لنا أمام ضمائرنا إن حاسبتنا ذات يوم.

ثوان من الصمت علت أجواء اللقاء بين انتظار من (عبد الرحمن) لرد صديقه، وتفكير من صديقه قبل هذا الرد الذي أتى أخيرًا على لسان آمن صاحبه تمامًا برغبة صديقه الملحة في إثبات انتسابه للإنسانية الحقة؛ بإنقاذ هذا الطفل الذي لم يذنب في حق أي من أطراف النزاع الثلاثة:

- حسنًا يا صديقي، أنا رهن إشارتك في كل ما تريد حتى تأتينا البراءة أو يأتينا الموت، رغم أن ذلك الضابط لا يستحق لحظة واحدة من عمرك تعرضها للخطر لأجله.

- قضيتي ليست (مازن) يا عزيزي، إنما هي الرغبة في التشبث بآخر خيط قد يربطنا بصفات الإنسانية مجددًا، كل ما أريده منك الآن أن تبذل قصارى جهدك لمعرفة أين يخفي (شوقي) ذلك الصغير.

- وماذا بعد معرفة المكان؟

- لا عليك مما بعد ذلك، أعلم جيدًا ما يجب عليَّ فعله.

(29)

أقلام التعقيد تفيض بأحبارها الآن على صفحات الأحداث، لعل آخر ما توقعه الجميع أن تتعلق كل خيوط اللعبة بيد ذلك الصبي الصغير دون الثانية عشر، بنجاته تلتصق نجاة الصديقين كما هو تصورهما، أما إصابته بسوء فلا تعني إلاّ إضافة خانة أخرى إلى خانات مصائبهما التي لا تحتاج من الأساس إلى زيادة.

عدة أيام نجحت خلالها عيون (العوضي) في اكتشاف ذلك المخزن القديم الذي يخفى فيه (شوقي) طفل (مازن) الصغير، معلومات أضافت بعض ماء الأمل إلى نيران القلق المتأججة في قلب (عبد الرحمن)، منذ تمت حادثة القتل الشهيرة تلك التي بدأت على أثرها تتعقد الأمور على الجميع.

- أحسنت يا (عوضي)، كل ما عليك فعله الآن هو محادثة (مازن) في الهاتف وانتظره حيث المكان الذي حددته لك، حتى يكون مجيئي إليكما بالصبي يتوجه النجاح، كل تفصيلة تمثل قيمة كبيرة يا صديقي كن حذرًا محترفًا كما عهدتك.

- قلبي لا يطاوعني على تركك وحدك في معركة كهذه يا صديقي، هو الوقت الأكثر إلحاحًا لوجودي إلى جوارك.

- ليس الوقت بحاجة إلى مناقشات جانبية يا عزيزي، كل دقيقة تمر تملك من القيمة ما ملكته آلاف الدقائق قبل اليوم، مصيرنا يتعلق بتلك

الليلة يا (عوضي) دعنا لا نضيعها، لنفعلها على أكمـــل وجـــه كمـــا اعتدنا يا صديقي، لنفعلها.

طأطأ (العوضي) رأسه في اقتناع مشوب بالحزن على تـــرك صـــديقه وحيدًا في مهمته تلك التي يراها أقرب لوصـــفها بالانتحاريـــة، وقـــد أوشك خوفه عليه يُجهز عليه قبل أن يعود من جديد إلى رفع رأســـه يخاطبه قائلاً:

- لكن ألم يكن من الأفضل أن يساعدك (مازن) فيما ترمي إليه لإنقاذ وحيده؟ إن رأى بنفسه أن ولده مخطوف من قِبل آخرين لا نمت لهـــم بصلة ونحن نساعده في استعادته قد يقتنع ببراءتنا إلى حد كبير.

- بل قد يشك في كونها لعبة لجأنا لأدائها حين ضاق علـــى أعناقنـــا الخناق، إما إن أتينا له بولده دون جهد منه فهذا بالتأكيد سيثير لديـــه شعورًا مختلفًا كفيلاً بجعله يعيد التفكير بعمق في كل مـــا كـــان مـــن أحداث، ضف إلى ذلك رغبتي في رد ثأري من تلـــك الحشـــرة الـــتي يسمونها (شوقي).

- لكن ما الدليل أمامه على أنك بالفعل من أنقذت الصبي؟ قد يأخذه تفكيره إلى أنها نفس اللعبة التي ذكرت قبل قليل.

- لا أملك حينها إلاّ شهادة الصبي نفسه.

- أمل ضعيف ذلك الذي تتشبث بذيوله يا صديقي.

- لا أملك غيره بكل أسف، دعنا نكتفي الآن بما أضاعه حديثنا مـــن وقت كان أجدر بنا استغلاله فيما هو أهم، ســـأغادر الآن إلى حيـــث

أنهى دوري، وفى الميعاد المحدد سأقابلك بعد جلبك لـــ(مـــازن) كمـــا كان اتفاقنا.

- حسنًا يا صديقي، حسنًا.

قالها (العوضي) وبات وصديقه كيانًا واحدًا يجمعهما عنـــاق حـــار دام لدقائق، كل يتمنى السلامة لمعانقه، يرجو لو يقـــوم وحـــده بالحـــدث فيكفي الآخر خطر المشاركة ومشقتها، صداقة بلغت ذروتها الســـامقة في تلك اللحظة الفارقة في حياة الكثيرين، حين تبدو الحيـــاة في عـــين صاحبها بلا قيمة إذا ما قارنها بدقيقة واحدة من حياة صديق عمـــره، غير أن تقسيم الأدوار كان السُنَّة التي اعتاداها منذ بداية وعيهما على حياة لم يريا فيها إلاّ متاعب أرهقت بشدة كاهليهمـــا، بـــل وكهـــول الجميع من المشاركين في الأحداث.

(30)

بدأت أنوار الشمس تخفت بشدة الآن، ظلام قد كسا الكون في ليلة لمع قمرها على استحياء، وتألقت نجومها على مضض، تسلل (عبد الرحمن) خفية بجوار ذلك المخزن كما هو مشهود في حياة الجرائم، ويتقنه أهلها بشدة كونه أحد بدائيات حياتهم الغامضة تلك، دقائق فقط كانت كفيلة بدخوله إلى حيث يوجد ذلك الصبي الصغير، لم يُلاق الكثير من الصعوبة في ظل حماية ضعيفة للمكان، وكأن (شوقي) يتحدى أن يصل أحد من الأساس إلى ذلك المخبأ، فقط رجلان أحدهما على الباب الأمامي نجح (عبد الرحمن) في اجتيازه خفية دون أن يلمحه، وذلك الآخر أرداه مغشيًا عليه بعد اشتباك بسيط دام عدة دقائق أنهاها (عبد الرحمن) في صمت، الوضع الآن مهيأ بشدة لفك قيد الصبي والهرب به إلى حيث إنهاء المهمة كما نص اتفاقه مع صديقه (العوضي)، وهو ما عكف عليه وسط فرحة للصبي بوجود من أتى لتخليصه عائدًا من جديد لأحضان أمه وقبلات أبيه، هكذا كان تصوره الصغير وهكذا كانت فرحته باقتراب هذا التصوير من الدخول إلى حيز الواقعية، غير أن زائرًا منتظرًا ألقى بتصورات الصغير وفرحته إلى مهملات التخيل وقمامات السراب، وقد أضاء أنوار المكان الخافتة واقفًا إلى جوار ذلك الحارس الآخر الذي كان بالخارج مرحبًا بضيفه في سخرية قائلاً:

- يا للمفاجأة السعيدة، يبدو أننا حظينا بزيارة ميمونة لنجم الشباك بطل الأحداث الهمام، هل لي أن أظفر بصورة للذكرى إلى جوارك يا نجمنا العزيز؟

قالها (شوقي) مستهزئا بـ(عبد الرحمن)، وقد نظر إليه تلك النظرة الدالة على احتقار تام، بعدما تبادل مع حارسه ذلك القليل من ضحكات ساخرة علت قهقهتها بشدة بين أرجاء المكان مزيلة الكثير من صمت أحاط أسواره، قبل أن يكون رد (عبد الرحمن):

- رغم أني لم أعتد التصوير إلى جانب الحشرات بكل أسف، إلاّ أن رأيي قد أغيره الليلة وأعطي جثتك هذا الشرف، يبدو أن سخافتك قد زادت حدتها بشدة في آخر الأيام أيها التافه.

- لست بحاجة لأن يخونك لسانك بإهانة صاحب المكان يا عزيزي، يكفيك ما أنت فيه وقد زرت المكان الخطأ، قد لا يروقك رد الفعل كثيرًا.

- صاحب المكان؟

قالها (عبد الرحمن) وأتبعها بضحكة استفزازية نالت بشدة من غيظ خصمه قبل أن يستأنف حديثه قائلاً:

- لا أراها تلائمك كثيرًا صفة الملكية تلك يا (شوقي)، أم تُراك نسيت تلك الليالي التي قضيتها في مخازن المعلم (سعد العامرى)، تفترش أراضيها نائمًا تنتظر تعليمات بالعمل أصدرها أنا؟ لا أظن ذاكرتك بهذا الضعف يا رجل كان هذا في الماضي القريب قبل شهور، على كل

حال أتحرق شوقًا لرؤية رد فعلك هذا، لن يزيد بأية حال من الأحوال عن محاولة فاشلة لتلميذ فاشل أمام أستاذ طالما أرهقه غباء تلميذه بغيض الذكر ذلك.

كلمات نالت من غيظ (شوقي) بشدة، فاحمرت وجنتاه باحثًا عن رد يرد به صفعة تلقاها لتوه بلا جدوى، فاستطرد (عبد الرحمن) قائلاً:

- على كل حال، لا شأن لذلك الصغير بما بيننا يا (شوقي)، دعنا نسوى أمورنا بعيدًا عن حياة صبي لا ذنب له بما يأكل قلبك من نيران حقد تجاهي.

قول لم يجد من الردود إلاّ ضحكة علا صوتها، أتبعها تصفيق من (شوقي) مستهزئًا بكلام مخاطبه قبل أن يقول:

- ها قد استفدنا شيئًا جديدًا من زيارة ضيفنا الحكيم، قلب المجرم يحظى ببعض العاطفة بين حين وآخر.

- أنت كما أنت لن يصيبك للايجابية تغيير يا صبي (العامرى) وحليف (الصياد).

- تقولها وكأنك لم تمر بممر الصبيانية أو تخطو سبيل التحالف أيها المتغطرس.

- صبيانيتي وتحالفي كانا لرجل واحد، لم أكن يوما مهرجًا أتنقل بين جميع أحبال اللعبة أيها الـ...مسكين.

قول نال بقوة من ثبات (شوقي)، بعدما فشل في إيجاد رد مناسب لقولة (عبد الرحمن) التي لمست للحقيقة جانبا كبيرًا داخل وجدانه؛

فكان رده العصبي الملفوظ من هيئة جادة، وقد أشهر مسدسه متوجهًا إلى ذلك الضخم الواقف إلى جواره بكلامه قائلاً:

- كفانا إضاعة للوقت في هذا الهراء الذي لا طائل من ورائه نستفيد منه، اذهب واحضر هذا الصبي فورًا.

قام الرجل ينفذ كلام سيده آخذا الصبي بشدة من يدي (عبد الرحمن)، الذي لم تسعفه سرعته بإشهار سلاحه رادًا على خصمه، الذي استطرد قائلاً بعدما أصبح الصبي محور الزيارة بين يديه:

- والآن يا زائري العزيز، هل من رسالة أنقلها لصديقك المغرور قبل مقتلك؟ ثق تمامًا أني سأتكفل بنقلها بكل أمانة.

- لا داعي لتلك الثقة يا عزيزي، دعنا نضيف تعديلاً بسيطا للعرض، ماذا إن عرضت أنا عليك نقل رسالتين بدلا من واحدة؟ أولى لـ(جابر) وأخرى لـ(مازن)؟ ولا تقلق بأن أمانة نقلها...سأتحلى تماما بها في نقلي الدقيق للكلمات، فقط أخبرني ولا تحمل همًّا بشأن الباقي.

- لا زلت لم تتخلَّ عن تغطرسك حتى وأنت في آخر لحظات حياتك أيها العنيد، رحيلك سيريح الكثيرين من متاعب طالتك شباكها قبل أن تطولك.

- لا أظنك على قدر من الفطنة يسمح بافتراض نظريات عما كان من طبيعة حياتي، على كل حال يؤسفني القول أني لا أرى تلك اللحظات التي تحادثني عنها قد حانت بعد، حدسي يحدثني أن العمر لازال ينعم ببقية قادمة.

لم يعد (شوقي) يملك المزيد من الردود؛ فكان تناوله لسلاحه قائلاً:
- سنرى إن كان مازال ينعم بتلك البقية أم أنها أكاذيب حدسك المخدوع، هانت نهايتك أيها المغرور.

قالها ولم يدرِ إلا بـ(عبد الرحمن) يتناول مسدسه بسرعة خاطفة، لم يستطع (شوقي) مجاراتها قبل أن يسدد رصاصة إلى رأسه وأخرى إلى صدر مرافقه، الذي نجح في إصابة ذراعه، قبل أن يتخذ مرقده قتيلاً إلى جوار صاحبه الذي يخاطب (عبد الرحمن) جثته قائلاً:
- كان عليك مخاطبة نفسك بآخر كلماتك تلك، اعذرني لن أتمكن من منحك شرف الصورة التي طلبتها في بداية حديثك ووعدت جثتك بها، ينتظرني ما هو أهم، إلى الجحيم خصمي المبتدئ.

قالها ثم صاحب ذلك الطفل الذي علت وجهه علامات الهلع وملامح الرعب فعمل (عبد الرحمن) على تهدئته قائلا:
- لا عليك مما كان يا صديقي الصغير، أنت الآن بأمان تام، ليس إلاّ وقتًا قصيرًا وتعود من جديد لحضن والدك الضابط، أليس هذا ما تريده؟

أجابه الصبي برأسه أن نعم غير قادر على إخراج حرف واحد يدعم به إجابته التي تكفل بها رأسه، حتى ضمه (عبد الرحمن) إلى صدره دقائق، قبل أن ينطلقا مجددًا إلى حيث الميعاد المنتظر مع (العوضي) و (مازن) بعد أن تمت المهمة بنجاح.

(31)

لم يكن (مازن) لينتظر كثيرًا بعدما وصلته مكالمة (العوضي) التي لم تطل دقائقها كثيرا، فقط عدة كلمات مفادها أنه بانتظاره إن أراد استعادة ولده سالمًا حيث تضمه أحضانه من جديد...المكان ملائم للأحداث إلى حد كبير، خلو كامل من البشريين إلاّ من (العوضي) ذلك الذي ينتظر مستندًا بظهره إلى مقدمة سيارته، وقد اتخذ من سيجارته ذات المقدمة اللامعة باشتعالها والرائحة التي عبّر عن سوئها دخان كثير أضاف جوًا مناسبًا من الغموض إلى عينيه الضائقتين تتحاشيان ذلك الدخان الذي اعتاد على ملامحها واعتادت على رائحته..

ها قد صعد بطل جديد إلى مسرح الأحداث، ذلك الضابط المكلوم الذي وصل لتوه آملاً في عودة سالمة لولده المفقود وإيقافًا لدموع زوجته التي نال منها فراق ولدها إلى حد أقسى من أن تصفه أقلام واصفين، المشهد أقرب للسينمائية كثيرًا منها إلى الواقعية الآن، خصمان في مواجهة بعضهما البعض في لقاء ليس الأول من نوعه الذي تشهده وقائع تاريخهما الطويل معا، كل أمام سيارته وقد أحيط المكان كله بأسوار من سكون معتاد لليل منطقة نائية لا تطأها باستمرار أقدام بنو آدم، كثير من أمطار بدأت غزارتها تجلو بشدة، لم يعبأ لها الطرفان كثيرًا وهما المشغولان عنها بأحداث تتعلق بتلابيبها مصائر الكثيرين ممن يهمون الطرفين، سواء كان صديقًا لأول الأطراف أو ابنًا لثانيهما.

كان لسان (مازن) الأسبق إلى بدء الحديث، بعدما قتله شوقه لولده وخوفه عليه في آن واحد تجسدت فيه معاني الأبوة بكامل أركانها قائلاً:

- أين ولدى يا هذا؟

- هذا؟ تعرف اسمي جيدًا يا حضرة الضابط، بداية متسرعة غير موفقة يا عزيزي قد تدفعنا لإنهاء حديثنا قبل أن يبدأ.

- وكيف برأيك تكون البدايات مع سافكي الدماء وخاطفي الأطفال؟

- هذا إن كانوا حقًّا كما تراهم سافكين وخاطفين، يبدو أنك مصمم على إنهاء الحديث باكرًا، إن استمرت لهجتك على هذه الوتيرة العنيفة فلا أظن النهاية تروق لك كثيرًا.

- أتهددني أيها الوقح؟

- عدنا من جديد لأسلوب الضباط الذي أبغضه، لا زلت عند رأيي يا سيد (مازن) أنك بحاجة للمزيد من دروس في إدارة المواقف العصبية وأسلوب حوارها.

- وأنا لا زلت عند رأيي أنك بحاجة للمزيد من دروس في استفزاز الآخرين من أعدائك، مستواك بحالة يُرثى لها كثيرًا.

- بل هو بأفضل حالاته، ما دمت أقررت بفشلي في استفزازك فلا أراني إلاّ نجحت بامتياز في ذلك، شهادتك دائما معكوسة بالنسبة لي يا حضرة الضابط، هذا من أساسيات عملنا نحن معشر المجرمين، لا أظنك بحاجة لمثل هذا التذكير.

كلمات يتلقاها (مازن) واحدة تلو الأخرى يزيد لها حنقه وتعلو لسماعها مستويات غضبه قبل أن يستطرد قائلاً:

- إليَّ بولدي قبل أن أقضي عليك وعلى صديقك القاتل!

- ولدك في طريقه إلى هنا بصحبة هذا القاتل الذي تتحدث عنه، هذا القاتل الذي تتحدث عنه جابه الموت لإنقاذ وحيدك الذي جئت لرؤيته.

جملة لم تجد من ردود (مازن) إلى ضحكة صفراء استهزاء بما يتلقاه من كلمات خصمه التي يراها نائلة من السذاجة حدًا كبيرًا قائلاً:

- خطفه وجابه الموت لإنقاذه في آن واحد، يا لروعة التدبير، أتعلم ما طامتكما الكبرى أنت وصديقك؟ دوما ما يقودكما تفكيركما إلى تصور الجميع على درجة كافية من الغباء تسمح لكما بفعل ما تريدانه دون أدنى مقاومة عقلية من الخصوم.

جملة سمعها (عوضي) لا تحمل من المعاني إلاّ ذلك التكذيب الصريح من (مازن)، لما كان من توضيحه، فما كان منه إلاّ أن خفض رأسه يضحك ضحكة صغيرة، استفزت (مازن) كثيرًا قبل أن يواصل استفزازه قائلاً:

- يبدو أنهم حتى أغبى مما تصورنا يا، هذا.

- ماذا؟ أمدرك أنت لهوية من يخاطبك أيها الحقير؟

- سجلات جرائمي ممتلئة عن أخرها يا عزيزي، لن يضيرها أن أضفت إليها تهمة سب ضابط أو حتى، أو حتى ضربه.

- ضربه؟...تجاوزت كل الحدود أيها السفيه، افعلها إن استطعت، فهي بالتأكيد آخر مشاجراتك بين بنى الأحياء.

- يسعدني وبشدة أن أسحق عظامك مسحوقًا واحدًا متجانسًا يا عزيزي، كم هو جميل ضرب ضابط متغطرس، أظنني سأحب ذلك كثيرًا، وددت لو كان هذا مصورًا أضحك لمشاهدته كل ليلة قبل نومي، هلمَّ إليَّ فريستي التافهة، ولو أني سأحتاج لغسل يديَّ بعد افتراسك المسلى هذا.

- سنرى من يسحق ويضرب ويحب ويفترس، وأخيرًا يغسل يديه من دماء الآخر أيها المجرم القذر.

(32)

الوضع الآن على الضفة الأخرى من أمواج الأحداث تكتسي رداء من الهدوء يخالف تمامًا نظيره الملتهب، حيث ذلك الشجار الدامي الذي تخلى فيه طرفاه عن آخر بذرة كان يحملها من صبر على الآخر، قيادة هادئة من (عبد الرحمن) لسيارته التي جلس في مقعدها الأمامي إلى جواره ذلك الصغير، الذي تعلقت عيناه بشدة بمنقذه الذي يراه بطله الآن، فطنت لعينيه عينا (عبد الرحمن)، فكان تحوله من تلك الهيئة الشاردة لسائق أرهقه تركيزه فيما كان وما سيكون إلى هيئة مخالفة علتها ابتسامة هادئة نظرت للصغير لثوان، قبل أن تعود إلى طريقها، وقد قال باسمها:

- لم تخبرني باسمك أيها الصغير، أم أنك لا تحب كثيرا التعرف إلى الغرباء؟

- أمي دوما ما توصيني بذلك، غير أني أود كثيرًا لو تعرفت بك، اسمي (سيف)، (سيف مازن السيد).

ضحكة صغيرة أطلقها (عبد الرحمن) أثارتها براءة ذلك الصغير سبقت رده باسمًا:

- لست بحاجة لذكر اسم والدك يا صغيري، أعرفه جيدًا كما يعرفني بشكل أكثر جودة، أخبرني الآن، هل أنت بخير؟

- نعم، نعم أنا بأفضل حال، ماذا عنك أنت؟ ذراعك ينزف بشدة.

- لا تقلق بشأني أيها الصغير، اعتدنا على مثل تلك الإصابات كـــثيرًا في عالمنا ذلك، ليست إلا امتدادًا لإصابات مماثلة سابقة.

- أعلم ذلك تمامًا، تشبهون إلى حد كبير أبطال القصص المصورة التي أحبذها ويجلبها لي أبي باستمرار.

ابتسم (عبد الرحمن) من تلك الثقافة الناشئة المقتصـــرة علـــى بعـــض الصور ، التي لا علاقة لها بواقع الذئاب ، الذي سيصطدم به هذا الفتى شيئًا فشيئًا قبل أن يقول:

- مادمت على علم بتفاصيل عدة هكذا، ما الداعي لتلك النظـــرات المبهمة إذن بين الحين والآخر منذ بداية الطريق؟ لازلت صغيرًا علـــى إتقان مثلها، أم أنها جينات البوليسية التي ورثتها عن أبيك؟

- أحلم دومًا بالفعل أن أكون ضابطًا ناجحًا مثل أبي، غير أنه تبين لي أنك لست أبدًا كما يقول عنك.

- وماذا تراه يقول عني؟

- يقول إنك مجرم شرير تعمل على تهريب المخدرات، وهو دائمًا مـــا يطمح في الإيقاع بك منذ سنوات.

قول كالعادة وجد من (عبد الرحمن) تلك الضحكة الصغيرة من براءة طفل لا يعبأ بوقع كلامه على محادثه، وهو الذي لم يتقن بعـــد فنـــون التلون التي يحظى بها الآدميون، قبل أن يكون رده علـــى قـــدر إدراك ذلك الصغير قائلاً:

- قد يكون محقًا إلى حد كبير يا عزيزي، على كل حال أنت تحظـــى بمكانة عظيمة بين جدران قلبه، كان قلقًا عليك إلى حد كبير، لكن هل لك أن تخبرني إن كنت قد سمعت شيئا ذا قيمة من هـــؤلاء الأوغـــاد خلال مدة بقائك بينهم؟

- شيء مثل ماذا؟

- أي شيء قد يكون ذا قيمة يا صغيري، أي شيء.

- نعم نعم، سمعتهم يتحدثون في بداية وجودي بينهم عن نجـــاحهم في الإيقاع بك في قتلهم لصديق أبي.

- ممتاز أيها الصغير، هل لي إذن بطلب بسيط تسديه إليّ يا عزيـــزي؟ ستمثّل تلبية طلبك هذا فارقًا كبيرًا في حياتي وحياة صديقي.

- بالطبع، أنا رهن إشارتك إن استطعت تنفيذه.

- نعم تستطيع بكل تأكيد.

- ما هو؟

- لا أريد منك إلا ذكر تلك الكلمات التي أخبرتني بها الآن لأبيك بلا تغيير، شهادتك تلك ستظهر العديد من الحقائق الغائبة.

- أهذا فقط هو الطلب؟

- هو كذلك فقط .

- هل إن فعلتها أكون قد شاركت في تلك القضـــية العصـــيبة الـــتي تلهثون جميعًا خلف حلولها؟

- بل تكون قد أنهيتها بإظهار تلك الحلول يا صغيري.

- يا للأمر المثير، سيُذهل أصدقائي في المدرسة كثيرًا من بطولتي تلك.
قول لاقى من ضحكات (عبد الرحمن) الكثير من تفكير سطحي لهذا الطفل، الذي لا يعبأ من الأحداث أو المخاطر إلى بتلك التي ستنصبه بطلاً في أعين أصدقائه الصغار دون النظر إلى قاتل أو مقتول، ظالم أو مظلوم، فقط صورة رسمها خياله الساذج لنفسه، وتغاضى عن المحيط من تعقيدات، قد تُذهب بمصائر الكثيرين إلى المجهول.

- بل إن الذهول سيصيب كل أطراف اللعبة إن علموا بوجود الحل بين يديّ مثلك.

قالها (عبد الرحمن)، واستمر حديثه الباسم مع ذلك الطفل الصغير، الذي لا يملك من أدلة براءته في قضية خطفه وقتل مساعد أبيه إلا هو الآن قبل أن يقوده شروده من جديد إلى حوار اعتاده بينه وبين صوت عقله القائل:

- آه عجريمتك.عبد الرحمن)، ها أنت الآن تكتشف كنزًا جديدًا سلبك إياه عالم جريمتك الذي تتخبط بين جدرانه، ذلك العالم الذي شهد بتأثيره السلبي عليك الجميع حتى أعداؤك، صدق (شوقي) حين قال إن شباك الجريمة قد طالتك قبل أن تطال أعداءك، ماذا لو كانت حياتك مثل الكثيرين تحظى بالهدوء، وتنعم ببعض الحركة البريئة التي يقودها مثل هؤلاء الصغار؟ تزوجت جريمتك .

ولم تظفر بأبناء إلاّ قلقك الدائم وهروبك المستمر، إيهٍ لك من مسكين يقضى أيامه باحثًا عما حرمته منه أيامه دون القدرة على الظفر بإحداها، وبعد؟ إلى أين ستسير بك فصول قصتك؟ هل إلى نهاية رجوعهما إلى جوار صديقك صغيرين أم إلى تلك الأخرى حيث النهاية المفزعة لمجرمي الأفلام؟ لازلت تلعب دور المظلوم من دنياه بإتقان كبير كممثل قدير، دور ثانوي لحشرة بين ألواح الحياة لا تعبأ أي من الأقدام بدهسها في استضعاف إن تراءت لها، وأنت المالك لفرصة اقتناص دور البطولة من أفواه الجميع، البطل الذي هزم مطامعه وألقى ملذاته إلى بحر لا تعرف أمواجه إلاّ دفن ما تحتويه كعادة العتيد من الأمواج، غير أنك لم تملك بعد من شجاعتك القدر الكافي لاقتناص ما تأمل به، يكفيك قتلك الآخرين، حسبك تهريب السموم، يكفيك القتل وحسبك التهريب، ولا زلت بعد كل ذلك تدَّعي أنك المُجبر على القتل المُقاد إلى التهريب، أي قوة تلك التي تدفعك إلى عكس ما تبتغي ومضاد ما تريد؟ ليست إلاّ تلك البذرة السوداء المتعلقة بنبضات قلبك تأبى موتها، أرسلتك إلى حيث أرادت لا إلى حيث أردت...دفعتك إلى حيث طمعّت لا إلى حيث طمعْت، وما بين إرادتها وإرادتك وطمعها وطمعك، ظللت على حالك البالي ذلك دون تغيير.

أفكار متخبطة ورؤى متداخلة كان لها دور الريادة في ذهن (عبد الرحمن)، حتى وصل بصحبة مرافقه الصغير الذي ظل يراقب شروده

ذلك طوال طريقهما إلى حيث ذلك الشجار الدامي، الذي كاد طرفاه يفوزان بدماء بعضهما البعض، هرول (عبد الرحمن) إلى موقع الشجار معنفًا كليهما بقوله:

- ما هذا؟ هل وصلت بكليكما الرعونة إلى هذا الحد؟ كُفًّا عن هذا السخف فورًا، حياتنا وحياة هذا الصغير قد تجد الآن في أي لحظة من يُرسل أصحابها إلى قبورهم.

التفت الاثنان إلى ذلك الصوت، فكان انفصالهم المشوب ببعض المناوشات وقد حظى وجه كليهما بالعديد من كدمات زرقاء اللون إضافة لبعض الدماء السائلة من أفواه كليهما، ساعد تدخل (عبد الرحمن) كثيرًا في ذلك الانفصال، قبل أن يتوجه بلومه إلى صديقه قائلاً:

- أهكذا كانت وصيتي إليك باحتواء الموقف حتى أعود؟ أكان ذلك الشجار الأرعن طريقك لتنفيذ وصيتي؟

- حاولت إفهامه دون جدوى، تسرعه دومًا ما يوقعه في المتاعب، لم يعطني أدنى فرصة لإزالة إبهام الأمر كما أردنا.

لم يكن (عبد الرحمن) ليعطى المزيد من الوقت لمناقشات جانبية، هو على يقين أن وضعًا بهذه السخونة ليس بحاجة للمزيد منها؛ فكان التفاته إلى ذلك الضابط الذي استند إلى ركبتيه وقد شغله احتضان ولده وتقبيله عن حديث هذين اللذين طالت مطاردته لهما وطال هروبهما من تلك المطاردات قائلاً:

-ها هو ولدك بين يديك من جديد يا حضرة الضابط، بإمكانك الآن سؤاله عن حقيقة خاطفيه، وما سمعه منهم حول مقتل مساعدك.

تلقى (مازن) تلك الكلمات دون رد إلاّ من التفات إلى ابنه العائد لأحضانه من جديد للتو قائلاً لأبيه:

- عليك أن تكافئ هذا الرجل يا أبي، أثبت بطولة كبيرة في إنقاذي من يد هؤلاء المجرمين، كادوا يقتلونه يا أبي، لقد ضحَّى بحياته لأجلى، أنه ليس أبدًا كما قلت عنه في أحاديثك السابقة.

لا زال (مازن) على حاله من السكون يُقلِّبُ وجهه بين جميع الحضور يستمع إلى كلماتهم في اهتمام، قبل أن ينهض من مكانه إلى جوار ولده جاعلاً إياه أمامه واضعًا يديه على كتفيه مخاطبًا (عبد الرحمن) وصديقه قائلاً:

- قلتها قبل ذلك ولا زلت أكررها الآن وتكراري لها سيدوم لسنوات قادمة، درجة ذكاءكما تكفى بالكاد لخداع ذلك الصغير، لم ترتقِ لخداع الكبار بعد.

نظر (عبد الرحمن) مستغربًا إلى صديقه علَّه يجد لديه مقصدًا لكلام ذلك الضابط غير أن رجاءه قد خاب؛ ليعود من جديد إلى (مازن) متسائلاً:

- ماذا تقصد بهذا الكلام؟

- أقصد أن تلك الدماء السائلة من ذراعك، إضافة لبعض طلقات الرصاص أطلقتها، وأطلقها شركاؤك قد تمثل أركان تمثيلية أتقنتموها،

بلغت حدًا من الجودة يكفى بالكاد؛ ليجعلها تنال تصديق هذا الصبي، لكنها أبدا لن ترقي بمستواها لتنال نفس القدر من تصديق والده الذي يحفظكما عن ظهر قلب.

كلمات لا تعبر إلاّ عن تكذيب صريح لذلك الضابط لما كان لمسامعه أن تعانقه من سرد الجميع، ساهمت في زيادة مؤشرات اليقين لديه في ارتكاب هذين الصديقين كل ما نُسِبَ إليهما من جرائم.

استشاط (العوضي) غضبًا لسماع تلك الكلمات؛ فكان إسراعه من جديد إلى (مازن)، وقد انتوى الاشتباك معه من جديد قائلاً في غضب:

- يبدو أن درسي الذي لقنتك إياه لم يكن على درجة كافية من الإتقان ليعيدك إلى رشدك الغائب عنك، والله لأجعلنك تتخلى عن رعونتك هذه ولو بالقوة.

قالها وانطلق ناحيته مسرعًا في غضب قبل أن يصمَّ آذان الجميع ذلك الصوت المدوِّي لطلقات اخترقت صدره ترديه على الأرض يصارع منيته، ليلتفت (مازن) إلى مصدر الصوت متفاجئًا برجاله يحيطون المكان، وقد هرول إليه مساعده مُطلق النار قائلاً:

- سيدي، هل أنت بخير؟ هل كل شيء على ما يُرام؟

- اللعنة عليك، ماذا فعلت؟

قالها (مازن) في غضب شديد نال من ثبات مساعده الذي كان رده الخافت صوته قائلاً:

- س...سيدي، كنت فقط أنفذ تعليماتك وحسب، أوصيتني أن أتبعك إلى هنا إن تأخرت عن الساعة... وهذا ما اتبعته بالحرف الواحد.

- أخبرتك أن تتبعني، لا أن تنطلق إلى صدر أحدهم بنيرانك فتقتله!

- وجدته يسرع في تحركه نحوك يا سيدي، ولا أظنه كان يريد بك إلاّ شرًا كان واضحًا وبشدة في حركته إليك.

- ماذا أقول لك بالله عليك؟ إن طال هذا الرجل مكروه فلن يتبادر إلى ذهنك قط، ما ستلقاه من عقابي.

قالها يمسك بتلابيب ثيابه وسط ذهول الجميع من موقف ذلك الضابط تجاه مجرم، هو بنظر الجميع خاطف لابنه وقاتل لأقرب مساعديه، وقد غاب عنهم أن في أعماق ذلك الضابط فيض من إنسانية تخلى عنه الكثيرين من أهل ذلك المجال.

لم يكن هذان الصديقان الملقيان على الأرض ليهتما كثيرًا بذلك الحديث الأجوف بين الضابط ومساعده الأرعن، ألهتهما دماء أحدهما ودموع الآخر عن كل شيء سواهما، وقد عكفا على قتال الزمن يتصيدان منه اللحظات التي بدت وكأنها الأخيرة الجامعة لحديث طالما امتد لساعات طوال سنوات:

- يبدو أن حكم الأقدار كان أقسى وأسرع مما توقعناه يا صديقي الوحيد، قلت لك إننا سنقاتل حتى تأتينا البراءة أو يأتينا الموت، فكانت حكمة الأقدار في ثاني الاختيارات.

قالها (عوضي) خالطًا بها آهاته ودموع محتضنه تسمع أذناه بالكاد ذلك الصوت الغارق في دموع ناطقه القائل:

- لازالت ساعاتك ممتدة يا صديقي، ليست إلاّ إصابة اعتدناها طوال مشوارنا العامر بها وبمثيلاتها طوال سنوات.

- آه عليك يا (عبد الرحمن)، لا زلت آملاً في كرم أيـــام لم نعهـــد إلاّ بُخلها يا عزيزي، دعنا نرى الحقائق كما هي يا صديقي، هكذا كانت وصايا بعضنا لبعضنا طوال ثلاثة عقود، ثلاثة عقـــود، مـــرت كأنهـــا نسمات ليل بارد استمتعت بمداعبته وجوه كلينا بين الحين والآخـــر، لينتهي بها الأمر الآن كذكرى تنعم بها رأس الحي فينا وتبتسم لها روح الراحل إلى عالم الأموات، انتهت كما هو حال كل جميل ظفرنا به من سنوات أعمارنا، يبدو أنك ستكمل خطـــوات الطريـــق وحيـــدًا يـــا صديقي، ذلك الطريق الشاهد على علاقتنا الأسمى بين كل ما أقمـــت من علاقات، الضام لذكرياتنا الأزهى بين كل ما عهدت من ذكريات، علاقة وذكرياتها ظلت دوما مسطورة بأحبار من الخلود على صفحات قلبي المودع لحياة الآدميين الآن، الحياة أقصر مما يتـــوهم أهلـــها مـــن الأحياء يا أخي، لا يدرك ذلك إلاّ المشرفون على توديعها من أمثـــالي، ليس من الحكمة أبدًا قضاء تلك القصيرة فيما لا تريد، ما مـــن أحـــد يملك القدرة على إجبارك على فعل ما لا تريد، هي حياتك لا حياتهم، انتهز القادم من أيامك في تحقيق ما أملنا فيه ومنعتنا منه أباليســـنا يـــا صديقي، لست بهذا القدر من الضعف الذي ترى نفسك عليه، ليست

إلا إيحاءات واهمة أرادتك عليها نفسك الأمارة بالسوء، يكفيـــك مـــا وجدت من حياة المطاردات وعيشة الجريمة أيها الآمل في هدوء الأيام، وصيتي هذه أمانة في عنقك يا صديقي، علّي حين ألقاك في العالم الآخر يومًا ما أقاضيك عند ربي إن لم تنفذها، لا أدري وأنا الراحل الآن عن حياة ما فوق الأرض ما ستشهده حياتي القادمة تحت تراب قبورهـــا، حيث كل شيء بميزان لا تُرجح كفته إلاّ بمقدار عادل، وأني وإن كنت المالك لتاريخ لم يشهد إلاّ الجريمة، ولم يعمل إلاّ بها، فهذا أملي في أرحم الراحمين كفيل باكسابي بعضًا من طمأنينة لم أظفر بها كثيرًا حين أملـــت في بنى البشر، بقى لي رجاء أخير يا (عبد الـــرحمن)، لســـت أدري إن حظيت ذاكرتك بالقوة الكافية لاستعادة كل ما كان من أيامنـــا معـــا طوال ثلاثين عام أو يزيد، لكنها وإن ضلت طريق التذكر ذاك فـــاعلم يا صديقي أن ما مضى من أيام عامينا الماضيين لم يكـــن إلاّ اســـتكمالا لصداقة شهد على متانتها حتى ألدُّ أعدائنا، صداقة كانت الأقوى بـــين قرينائها في مجال لم يذق أهله للصداقة طعما قط، ولم يرتشفوا لحلاوتهـــا كأسًا أبدًا.

****

استمرت كلمات (العوضي) متتابعة لصديقه، قبل أن يتجه بنظـــره إلى ذلك الضابط المتابع للحديث من مسافة قريبة قائلاً:

- اعلم أيها الضابط أني لا أنطق الآن إلاّ حقًّا وأنا الأحوج إلى موقف ناصع ألقى به ربي أتشفع به عنده، هذا الباكي الآن بين يديك ليس إلا

مسكينًا ألقته دنياه إلى بحر لا تعرف أمواجه للسباحة معنى وقد أبدلتها بغرق سريع للملقَون بينها، وحين أراد الخروج إلى شاطئ يداوي على رماله جراحه، كانت تضحيته لأجل ولدك القائم بين يديك الآن، اجعل من عقلك حكمك يا سيدي وضع الأمور في نصابها الصحيح.

قالها يخاطب (مازن) ذلك الذي طالما جمعت بينهما حلبات الصراع، قبل أن يعود من جديد لصديقه مستكملاً آخر كلماته إليه:

- أخيرًا يا صديقي، لست أدري إن كانت قادم أيامك ستمن عليك ببديل يكمل إلى جوارك رحلة العمر وما ستعمر به من أحداث، لكنك وإن وجدت بديل (العوضي) ذلك يا صديقي الذي يرسم إلى جوارك خطواته على رمال درب أيامك، فكن دومًا على ذكراك الطيبة لـ(العوضي) يا (عبد الرحمن)، كن دومًا على ذكراك لذلك الذي لو استطاع لاستزاد من حياته لحياتك، لو تمكن لأضاف من قوته لقوتك، فيرحل طفلاً لتموت هرمًا، ويموت عاجزًا لترحل في عنفوان قوتك، الوداع يا أعزّ من رأت عيناي وأصدق من أحب فؤادي، الوداع يا صديقي الوحيد، الوداع يا (عبد الرحمن).

ها هي آخر سطور تلك الصداقة تخطها أقلام ذلك القتيل الآن، خطها بدمائه في صحيفة اعتادت كتاباتها على مثل تلك الدماء، لتنتهي بها آخر الفصول إلى جزء آخر من الرواية لا يعلم فحوى سطوره إلاّ عالم الغيب جل شأنه، جزء لا يضم من الأبطال إلاّ واحدًا رحل عنه قرينه في وقت هو الأحوج لوجوده فيه من غيره، لم يكن ذلك الضابط

الساخط على تسرع مساعده بمعزل عن تلك الكلمات التي نقشها لسان (عوضى) على فؤاد صديقه الباكي، مشاعر عدة متصارعة وجدت لصراعها ميدانًا داخله قبل أن يسافر بخياله إلى حديث نفسه قائلاً:

- ما هذا الذي تشهده عيناك أيها الضابط؟ هل هذان حقًّا هما المجرمان المحترفان اللذان أضنتك محاولات الإيقاع بهما سنوات؟

هل هذا الباكي الضعيف هو فعلا (عبد الرحمن)، الذي لم تشهد لعينيه إلاّ تحديًا لواثق من الفوز به؟ هل هذا المودع الحكيم هو فعلا (العوضي)، الذي لم تعهد للسانه إلاّ تهديدًا من موقن في تنفيذه؟ مَنْ هذان بحق السماء؟ هل لنفس العين أن تذرف دموع الإخلاص بنفس صدقها الذي نظرت به نظرات التحدي للعدالة؟ هل لذات اللسان أن ينطق كلمات الوفاء الحياة بذات البلاغة التي نطق بها كلمات التهديد؟ أي تناقض هذا الذي يحويه هذان المجرمان؟ مجرمان؟ أهما حقًّا جديران بهذا اللقب؟ أم أنهما مجرد عابري سبيل طرقا أبواب الحياة، فلم يُفتَح لهما إلا باب الجريمة يأويهما من برد لاذع لدنيا لا تتقن من الأمور قدر إتقانها تعذيب العابرين في طرقاتها؟ مهلاً أيها الضابط، مهلاً، لا تنسيك عاطفتك ما اقترفاه من ذنوب، كنت أكبر الشاهدين عليها طوال أعوام طوال، بل مهلا أيها الإنسان، لا تنسيك قسوتك ذلك الصدق الذي أحاط ذلك الموقف العصيب الذي كنت أبرز

الرائين له، إلى أي المهلين تقودك أقدارك أيها الضابط الإنسان؟ إلى أي المهلين تقودك أقدارك؟

كلمات حادث بها نفسه قبل أن يتقدم خطوات بطيئة باتجاه الصديقين مخاطبًا (عبد الرحمن) ذلك الدامع قائلاً:

- لا أملك عما حدث من الأعذار ما يُطفئ نيران حزنك يا عزيزي، أعلم ما أنت فيه الآن، غير أني أقدم لك خالص اعتذاراتي وتعازيّ في آن واحد بشأن كل ما كان، هذا كل ما أملكه لك الآن بكل أسف!

كلمات لم يُلقِ لها ذلك المنهار الباكي بالاً، وهو الذي لا يبدو على هيئته أنه يسمع من الأصوات إلاّ كلمات صديقه يعيدها عليه عقله الباطن دون انقطاع.

ظل الوضع على حاله حينا، حتى أعطى (مازن) أوامره لرجاله بالانصراف قبل أن يقترب منه مساعده قائلا:

- ألا نقبض عليه الآن يا سيدي؟

- بل نتركه لأحزانه فقط، لا أعتقد صراعه معها بحاجة لتدخل من نوع آخر لا يحتمله هذا المسكين، سأتكفل أنا بأمره في وقت لاحق، عملنا لا يعني أبدًا تجردنا من مشاعر من المفترض أن يضمها بنو الإنسان بتلك الدرجة التي تتقنها أنت.

-لكن يا سيدي ...

- لا أظنك تراني مستعدًا للمزيد من المناقشات، القرار نهائي لا رجعة فيه، سأتحمل المسؤولية كاملة بشأن ذلك، أما الآن فلينصرف الجميع من أمامي على الفور.

(33)

كانت ليلة جديرة بنيل مكانة رفيعة في ذاكرة الجميع، تباينت ردود الأفعال حول ما كان من أحداث ذلك المساء، بين ساخط على الصديقين رغم رحيل أحدهما قتيلاً، واقتراب الآخر من الرحيل حزنًا عليه، ومشفق على كليهما من نهاية فرَّقت بين رفيقين لم يعهدا مثلهما كثيرًا في ذلك العالم ذي اللمسة الإجرامية الخالصة، غير أن اتفاق الجميع على الاعتراف بتمتع هذين الأخوين بقدر وافر من الوفاء كان السمة السائدة على الحدث..

أيام قلائل قضاها (عبد الرحمن) بعيدًا عن الأنظار يجالس أحزانه ويرافق آلام الرحيل، حتى كانت زيارته الأخيرة تلك إلى معلمه (سعد العامرى)، ذلك الذي لم يكد يراه حتى هرول إلى أحضانه باكيًا دون حراك من (عبد الرحمن)، فقط استقبال بارد لدموع الرجل وتعامل أكثر برودة مع أحزانه التي بدت صادقة إلى حد كبير.

- ها أنت مجددًا يا بني العزيز، كم افتقدتك في أيامي السابقة بعد عجزي عن إيجاد من يواسيني وأواسيه بعد رحيل (العوضي).

- أحقًا افتقدتني وتحتاج المواساة بعد رحيل (عوضي) يا معلمي؟

- وهل في ذلك يطول نقاش يا (عبد الرحمن)؟ رحيل (عوضي) كاد يؤدي إلى لحاقي به عقب معرفتي بالخبر، ماذا تنتظر من أب مات ولده الذي طالما رأى فيه امتداده؟

- أتعلم يا معلمي؟ كنت دائمًا على معرفتي أن للأبوة معنى عميق يدركه بنو آدم بالغريزة رغم عمقه، مهام عدة يعلمها الإنسان بالفطرة رغم تعددها، وبين العمق والتعددية ظلت تلك المهمة الرئيسية للآباء بحماية أبنائهم من أي سوء هي الأولى بالتنفيذ الأجدر بالأخذ في الاعتبار، كان هذا مفهومي عن الأبوة كما اعتاده الأسوياء من بني آدم، غير أن تطبيقك لمعنى الأبوة وإيمانك بمهامها كان ذا طابع مختلف يا معلمي العزيز، أطفأت نيران جوعنا وأشعلت جحيم إجرامنا، سكَّنت آلام تشردنا وأظعنت تلك الأخرى التي جنيناها من سنوات، لم نرَ من أحداثها إلاّ القتل والتهريب والسجن والكراهية المتأصلة في قلوب الجميع للجميع، فلسفة خاصة آمنت بها، وكان انتهاجك لها على أفضل ما يكون الانتهاج يا معلم (سعد)، غير أنها أثبتت فشلها الذريع في نهاية المطاف، لكنه للأسف الإثبات الذي أتى متأخرًا إلى حد كبير.

- كفى يا بني بالله عليك، كفاني ما أعانيه من رحيل صديقك.

قالها (سعد) وقد عجزت قدماه عن تحمله أكثر من ذلك فانهار جالسًا تشق دموعه طريقين صغيرين في خده، قبل أن يستطرد (عبد الرحمن) قائلاً:

- بني من جديد؟ لا بأس بالمسميات يا...أبي، لن تضيف للواقع المؤلم إيلامًا أو تنقص الحقيقة الجارحة جرحًا، فقدت أنت رجلاً من عشرات رجالك يا سيدي، أما أنا ففقدت سلواي الوحيدة في عالمكم المشئوم

ذاك، لعل أثمن ما يرثه الأبناء من أبائهم تلك الذكريات المتراكمة في أذهانهم طيلة سنوات، وأني وإن حرمتني ذاكرتي اللعينة تلك هذه الذكريات، فها أنا الآن أجني ثمارها مرة المذاق قبيحة المرأى في آخر أعوامي بين ظهرانيكم، لا جدوى الآن من كلام لن نغنم من ورائه إلا جراحًا جديدة لا تندمل تضاف إلى أخواتها القديمة، كفانا ما جنينا من كلامكم المعسول وأفعالكم التي تخالفه تمام المخالفة أيها السادة المقنعون بأقنعة الآباء، جئت فقط أوصيك بتذكر (العوضي) يا سيد (سعد) قبل رحيلي، كن على ذكراك له بالخير، كن على ذكراك لذلك الذي لو استطاع لامتدت خدمته لك إلى أبعد ما تمنيت واستطاع، غير أن أيادي المنية كان لها من الآراء ما خالف استطاعته وأمانيك.

- أبمثل هذا توصيني يا (عبد الرحمن)؟ خدمات (العوضي) تاج فوق رأسي حتى لحظة لحاقي به، لست بحاجة لتُذكِّر ذاكرا يا ولدى.

قول أثار ابتسامة خفيفة لـ(عبد الرحمن) نظر على أثرها للأرض قبل أن يعود من جديد لمخاطبة سيده قائلاً:

- أتمنى ذلك يا سيد (سعد)، أتمنى ذلك، والآن ائذن لي بالانصراف.

- إلى أين يا بني؟

- إلى حيث أنفذ وصية صديقي الراحل، قال لي إن الحياة أقصر مما يتوهم أهلها من الأحياء، لا يدرك ذلك إلاّ المشرفون على الموت أمثالي، هكذا كانت كلماته وهكذا كان إيماني بصدقها، أراك أيضا بحاجة لتلك الكلمات أيها العجوز، كفاك ما عانيت من متاعب الجريمة

وحياتها طوال عقود بدأتها شابًا وتنهيها الآن ذا شعر كساه الشيب، آن لشيخوختك أن تتلذذ بمعنى سامي للحياة، اشعر بقيمتها ولو للحظة واحدة، علَّك ساعة رحيلك تشعر ببعض من راحة يفتقدها كثيرًا الراحلون في عالمنا، الوداع يا معلم (سعد)، الوداع يا...أبي!

قالها وانصرف تتبعه أمنيات (العامرى) الباكية بالبقاء، غير أن تلك الرغبة الصادقة في التغيير التي استوطنت فؤاد (عبد الرحمن)، كانت أشد صلابة من أن تثنيها دموع ذرفتها عيون أحدهم أو رجاءات لفظها لسان آخر، لن تكون تلك الدموع بأغلى من دموعه على فراق صديقه بأية حال من الأحوال، ومهما كان تأثير كلمات الرجاء فأنها أبدا لن ترتقي لعظمة كلمات صديقه الراحل، يبدو أن آخر أمتار ذلك الوادي الذي قُدِّرَ لذلك الوحيد السير في طرقاته قد شارفت أخيرًا على نهايتها، واد وعر الجوانب مظلم الأركان، ثلاثة عقود رواها له صديقه الراحل لم تشهد من أحداث الحياة إلاّ تلك الساخنة التي ملأتها المطاردات، لا زالت ذاكرته على حالها من العجز الذي لم يسمح له إلاّ بالاحتفاظ بأحداث هذين العامين الأخيرين، لم يعد ذلك يُشكِّل في حياته فارقًا كبيرًا الآن، أحداث لم تختلف كثيرًا عما رواها له صديقه من مثيلاتها في أيامهما الخوالي، شيء مؤسف مثير للسخرية في آن واحد، أن تقتصر كل أملاكه التي ورثها من ماضيه على صورة ذات صاحب مجهول وورقة ذات تاريخ غامض، وأخيرًا ذكريات بعض الجلسات التي عمرت بها سنتاه الأخيرتان مع صديقه، لا يدري إن

كانت أملاكًا ذات قيمة أم أن دنياه قد أوهمته بامتلاك شيء تلهيه به عما فشل في الحصول عليه من ذات يحترمها صاحبها، وصحبة يلجأ إليها حين تتكالب عليه هموم الأيام، هو ذلك الأشبه بصغير ألهته أمه بدمُى اقتصرت عليها أملاكه كما تصور عقله القاصر فالتهى إذن، لا بأس بكل ذلك الآن وهو الباحث عن بداية جديدة، قد يجد فيها بعض ما رجاه إلى جوار صديقه، حدثته نفسه أن لا دربا نسلكه الآن إلاّ ذلك الممهد بالعزم المضاء بالاجتهاد، الاجتهاد لنيل الحلال والعزم لكسب استقامة تعينه على ذلك النيل المرجو، وهو وسط وصايا نفسه بالعزم والاستقامة قد آمن أن لا سبيل أمامه إلاّ النزول على رغبة نفسه الصادقة تلك.

(34)

كان صباحًا أقرب لحرارة الصيف منه إلى اعتدال الربيع الذي تواجد في تاريخه، شوارع القاهرة على عادتها من الازدحام المبكر على كل حال دون النظر إلى حرارة اليوم أو اعتداله، و(عبد الرحمن) سائر بين السائرين فاقد للهدف وليسوا بفاقديه، ضال للمقصد وليسوا أبدًا على حالة يبدو على أصحابها الضلال، لا يدري من أين يبدأ وإن عقد العزم على البداية، لعل مآذن ذلك المسجد وأبوابه المفتوحة قد ملكت جواب تساؤلاته، مسجد بدا كأنه هدية من بدر التمام أنعمت به السماء على أختها الأرض، بدت مآذنه كحروف تاج ضم في وسطه قبة خضراء بلون قلوب مصليه، يرى الرائي درجه ومن ورائه سجاده الأحمر اللامع في دلال بين أعمدته الرخامية، كأنها صورة أبدعتها ريشة أحد مصليه الذي امتلأ قلبه بعشق كذلك المعتاد من مسلم لبيته الذي لا يملك أغلى منه ملجأ لرب العباد، ولا أثمن منه ملاذًا للكريم الجواد..

سرت قشعريرة في جسد (عبد الرحمن)، ذلك المتأمل لعظمة المكان وشموخ أركانه ونقاء أهله في عين دامعة راغبة في العودة لخالقها الذي هجرت طاعته لسنوات، أحس بقدميه تخلعان نعليهما في هدوء دون أن تنظر إليهما عيناه المشغولة بتأمل المكان، سار عدة خطوات للداخل قبل أن يستند إلى أحد أعمدته شاعرًا ببرودة رخامه ينعش ظهره الساخن، قبل أن يأخذه نعاسه إلى نوم لم يشعر بلذة لحظاته قبل الآن.

ليست إلاّ دقائق يقتصر تعدادها على أصابع يد واحدة، حتى كان ذلك الظهور المفاجئ لذلك العجوز صاحب اللحية البيضاء المذيلة لوجه باسم انفتح فاه مكملا ابتسامته التي بدأها عيناه اللامعتان في هدوء، وقد بدا في جلبابه الأبيض كسفير خير لعالم كثرت شروره إلى حد بلغ عنده يأس الكثيرين مبلغًا لا يطيقونه، ومنهم ذلك النائم الحالم، تعلقت به أنظار (عبد الرحمن) محدثًا نفسه قائلاً:

-يا الله، إنه هو، أنه هو صاحب الصورة!

قالها لنفسه وقد فوجئ به يعطيه ظهره مغادرًا إلى جهة لا يعلمها سواه قبل أن يهرول إليه (عبد الرحمن) دون استطاعة لمسه صائحًا:

-أيها العجوز، أيها العجوز، انتظر أيها العجوز، من تكون يا رجل بالله عليك؟ أرهقتني بشدة محاولات ذاكرتي الفاشلة لعناق ولو ذكرى واحدة عمرها لحظات لصورتك تلك المصاحبة لمعطفي دون جدوى.

التفت إليه ذلك المسن البشوش رادًّا في هدوء منتظر وابتسامة آخذة في الزيادة قائلاً:

-لم يحن وقت حديثنا بعد يا بني، أمامك الكثير لم تخطه قدماك في درب رسمته أقدارك بكل اقتدار، أخطه في ثبات وبعدها يطول خطابنا.

قالها وتابع سيره وسط توسلات (عبد الرحمن) بإيضاح ذلك الغموض الذي أحاط كلماته قائلاً في لهفة المتعجل لكشف إبهام قد يساعد كثيرًا في توضيح العديد من العلامات على ذلك الطريق المظلم لأيامه:

-انتظر أيها العجوز، انتظر.

غير أن الصمت كان الرد الوحيد الذي حظى به ذلك الحالم من ذلك العجوز المنصرف.

- لا يتراجع أهل الأحلام عن وعودهم يا بني العزيز.

قول ألف (عبد الرحمن) نبرة صاحبه جاءه عن يمينه فالتفت إليه بقوله:

- (عوضي)؟

- اشتقت إليك يا صديقي العزيز.

- كم أفتقدك الآن يا أخي وأنا الأحوج لداعم الباحث عن مساعد، أتوق كثيرًا لدعمك ومساعدتك يا عزيزي.

- الحياة لم تنتهِ بعد يا (عبد الرحمن)، تكفيك نيتك الصادقة بالبداية من جديد مضحيًا بما أمكن لماضيك أن يوفره لك.

- كانت هذه وصيتك وكان هذا حرصي على تنفيذها يا صديقي، لكن أخبرني يا (عوضي)، من يكون هذا العجوز؟

-لو علمت لما بخلت عليك بهويته يا عزيزي، يبدو أن الغموض قد عقد عقده الأبدي مع أيامك، على كل حال لا أراك بحاجة لاستكشاف ذلك الآن يا (عبد الرحمن)، هناك الأهم الأحق بتفكيرك يا صديقي، دع الأيام تكشف لك عمن يكون دون بحث منك، لا ريب في حدوث ذلك يومًا ما وأن بعد تاريخ ذلك اليوم، حان وقت رحيلي الآن، سأنصرف الآن يا صديقي على أمل بلقاء آخر قريب يطول فيه حديثنا.

لم يكن نوم (عبد الرحمن) ليطول كثيرًا بعد حلمه ذلك، وقد تواجد على مسافة قريبة منه ذلك الشيخ المقارب للستين ومرافقه في بداية الثلاثينات، بدا أكبرهما في جلبابه الأسود وغطاء رأسه بنفس اللون إلى جوار مسبحته التي بدت بين أصابعه كطائر سعيد بمداعبة فروع أيكة ألفها وألفته، في حين كان الآخر ذا الشعر الذي نال من التصفيف حظًا وفيرًا ومن الطول حظًا أوفر، وقد ارتسمت ملامحه كما هي هيئة النابتين من جذور التربة المصرية إلى جوار مرافقه ينظران إلى ذلك النائم وقد تعلق حديثهما به:

- يبدو أنه عابر سبيل ألقاه يأسه إلى رحاب ذلك المسجد، مساجد القاهرة تمتلئ بمثل هؤلاء كثيرًا على كل حال.

- زيارتنا للقاهرة قد طالت يا شيخ (بهاء)، لم نظفر منها إلاّ بمثل تلك الملاحظات التي امتلأت بها مذكراتك وملأت بها مذكراتي.

- هكذا أنت دائما يا (مهاب)، عجول لا تسمح لنفسك بالاستمتاع بلحظات قد لا تعود كثيرًا في قادم أيامك.

- أراك بحاجة لمراجعة قياسات المتعة لديك يا عمى (بهاء)، أترى في استلقاء رجل لا نعرفه على سجاد مسجد نوعًا من المتعة جدير بمتابعتنا؟

- يبقى مثل هؤلاء الأجدر بالمتابعة والرعاية إن صدقت القول يا عزيزي، على كل حال دعنا من هذا الحديث الذي لن نلتقي فيه الآن،

واذهب لإيقاظ هذا الرجل قد قارب وقت آذان الظهر، ليست إلاّ دقائق.

- لسنا إلاّ غرباء عن المكان، لندع تلك المهمة للقائمين على أمر المسجد علّه يكون من بينهم أو على معرفة بأحدهم.

- أي مهمة يا بنى؟ ليس الأمر إلاّ إيقاظًا لنائم لأداء الصلاة.

- حسنًا، لا بأس مادام في هذا راحتك.

قالها متأففًا وانصرف إلى (عبد الرحمن) يهز ظهره الذي أعطاه لرحاب المسجد وقد أعطى وجهه لأحد أعمدته نائمًا إلى جانبه الأيمن قائلا:

- أيُّها الرجل، أيُّها الرجل، انهض يا عزيزي فقد حان وقت أذان الظهر.

أحس بيده (عبد الرحمن)، فكان انتباهه من حلمه وما رآه فيه ملتفتًا إلى موقظه، يفرك عينيه وقد استوى جالسًا يستند إلى يمنى كفوفه، قبل أن يزيل يديه عن وجهه ناظرًا إليه شاكرًا له مبادرته في صوت كان أقرب للنعاس منه لليقظة قائلاً:

- شكرا لك يا عزيزي، شكرا لك.

قول لم يجد من ذلك المدعو (مهاب) إلاّ دهشة هي الأقرب لوصفها بالصدمة، وقد جحظت عيناه وفغر فاه إضافة للجلجة لسانه متسائلاً في صوت خافت على غير عادة صاحبه:

-شر...(شريف)؟

تعجب (عبد الرحمن) من تلك المقولة المفاجئة لذلك الغريب والتي ساهمت في إفاقته بشكل كبير، فكان التفاته حول باحثًا عن ثالث يقصده ذلك الرجل، غير أنه لم يعثر على ذلك الثالث فكان رجوعه إليه يشير بسبابته إلى صدره متسائلاً في استغراب:

-أتقصدني أنا بهذا الاسم يا عزيزي؟

(35)

لا زالت ساعات ظهيرة ذلك النهار على ذات الحرارة التي بدأت بها ساعات بكوره، غير أن نسيم المتوسط قد أضاف بعضًا من البرودة إلى شوارع الإسكندرية منعمًا على أهلها ببعض من راحة افتقدها أهل القاهرة حيث سابق الأحداث، الأمر ليس ذا أهمية أو استحقاق بالأخذ في الاعتبار بالنسبة لذلك البيت العجوز، بيت برزت شرفته التي تزينت ببعض من أزهار بدا عليها اعتناء أهل البيت إلى حد بعيد، مسكون أول الأدوار مهجور ثانيه منذ أعوام، غير أن ذلك الدور الأول قد بات مماثلاً بشكل كبير لأخيه الثاني في آخر الأيام، بعدما تركه اثنان من أهله إلى القاهرة؛ لأجل عمل تاركين تلك الثالثة رفيقة جدران امتلأت ببعض من لوحات توسطتها بعض صور الآدميين، وقفت بردائها الأبيض ووجهها الملتفح بنفس اللون تزينها نظارتها دقيقة الحجم رقيقة المرأى، والتي بدت كجزء من وجهها زاده إلى جماله جمالاً وزانه إلى هدوءه هدوءًا، هيئة لملاك آدمي زينت يد الأقدار خديها بلون حجابها الوردي؛ فاكتملت بريشته لوحة لبريئة توَّجها العفاف.

تعلق نظرها النابع من مقلتين فاضتا بشوق للقاء قد انقطع منذ سنوات بذلك الإطار الخشبي الضام بين ثناياه البنية صورة طرف اللقاء الثاني، قليل من عبرات خطتها على خديها أقلام حنين لما كان من سالف الذكريات، كان مصيرها الاختباء بين تلك الصفحات التي تحتفظ بها

على منضدها الصغيرة هناك إلى جوار سريرها، تكفل كفها بمسح تلك الدموع، قبل إن تنصرف إلى حيث أوراقها المذكورة تلك تستعيد منها ما يسمح لها وقت فراغها به، كما هي عادتها مع بداية كل يوم ونهايته.

بعض من خواطر سطرتها أقلام ذلك الغائب قديمًا قبل رحيله، فباتت الأثر الوحيد الباقي منه لأحبابه الذين طالت إلى جوارهم سنوات بقائه، استهلتها بكلماته القائلة:

- تبقى البحور المثال الأقرب للحياة الإنسانية ثرية التناقضات غنية المتضادات، تثور بعد هدوء ثم تهدأ بعد ثورة، تصفو بعد شيب ثم تشوب بعد صفاء، تارة تحوي من البواخر ما يبهر مقل الناظرين، وأخرى تتناقل أمواجه قوارب تُشفق لمرآها قلوب المتابعين، قاع مظلم وسطح لا يعبر عن إظلامه، وسطح بخيل وقاع فياض لا يعكس بخل سطحه، هي الحياة الإنسانية التافهة القاصرة على كل حال، فقط لأن صاحبها كائن نال من التفاهة والقصور ما يجعله جديرًا بالصفتين.

لم تكن لتستمر في قراءتها إلى أبعد من هذه الكلمات، نحَّت ما بيديها من الأوراق جانبًا قبل أن تعود من جديد إلى صورته مخاطبة إياها بقولها:

- أواه على بلاغتك المداعبة سالف الذكريات أيها الشريف الغائب، كم عشقت هذه الأمواج السكندرية وعشقتك، لا زالت خلواتك ومعشوقك شاطئ المتوسط خالدة بين هذه الصفحات شاهدة على

إيثار محب لم يشأ يومًا أن يضيف إلى هموم محبيه همومه؛ فكان إفضاؤه إلى قرينه من أبناء الطبيعة، ذلك البحر الزاخر بما حوته ضلوعه من متاعب أخفاها عن نواظر الجميع، طالما حملت من أحزاننا جميعًا ما لم يقدم غيرك حتى على التفكير في السؤال عن أصحابه، ونحن إن لم نكن لك كما كنت لنا، فلا أملك الآن وأنا الطوَّاقة للقائك إلاّ اعتذارًا عن ثلاثة افتقدتك جلسات شتائهم الدافئ الذي بات باردًا وسهرات صيفهم السامر الذي قتله الملل، دفئ إلى برودة وسمر إلى ملل كان فقط الجانب الصغير المتحول من حياتنا من جوانب عدة تبدلت أحوالها بشدة بعد رحيلك، لا أدري إن كنت سألقاك يومًا أبلغك اعتذاري هذا بلساني إلى مسامعك أم لا، آمن الجميع بانتقالك إلى حياة ما تحت الأراضين، ولا زلت الوحيدة الموقنة أنك لا زلت تشارك الأحياء أنفاس دنياهم حتى لحظات مناجاتي تلك، لا أعلم إلى الآن سببًا حقيقيًا لغياب بلا عودة طال سنوات، لا زلت أذكر ذلك الصباح المشئوم الذي ذهبت فيه بلا رجوع، يومها ودَّعت الجميع بطريقة أثارت استغرابنا بشدة، حتى كان طول غيابك الذي أوحى للجميع بوفاة الغائب، قد أخطئ في تقديري بوجودك بين سكان الحياة في ظل غياب غير مبرر طيلة هذه المدة، لعله أمل شارد الصحراء في أيكة يستظل بفروعها قد لا توجد من الأساس بين رمال صحراءه تلك، غير أني سأظل أيها الشريف متعلقة بأملي في عودتي لظلال فروعك من جديد

يومًا ما، فكما كانت كلماتك لي ذات ليلة في نفس هذا المكان (حـــي بلا أمل ميت).

كلمات لفظها لساهُا صادق الإحساس مناجية ذلك الـــذي تـــرك في حياتها الأثر الأكبر بين جميع من رأت عيناها قبل أن تعود من جديـــد لانتظار أخيها وبصحبته مربيها المسافرين إلى القاهرة منذ أيام.

(36)

يبدو أن فقد الذاكرة ما زال يخفي وراء ستائره الكثير لذلك المسكين، ها هو على أعتاب حياة أخرى لا يعلم عنها أو عن أهلها شيئًا إلاّ من حلم عجيب رآه عدة مرات في غفواته، حين ظهرت هـــذه المتحدثـــة وأهلها في ثان طرقه دون استبيان لملامحهم، كان عجيبًـــا أن يوقظـــه أحدهم، ثم يصرخ في وجهه باسم لا يذكر أنه سمع أحدًا يناديه به قبل ذلك الموقف، حاول استيضاح ما قصده مخاطبه جاهـــدًا بقـــدر مـــا يستطيع، غير أن ذلك الـــ(مهاب) قد انصرف من أمامه مســـرعًا في هيئة أسارت انتباه الجميع، جمعت فرحة وخوفًا من كونها سرابًا في آن واحد، سرور وقلق من كونه حلمًا في آن واحد، انطلـــق إلى ذلـــك الشيخ الواقف هناك غير رائي للموقف، وقد أوشك على الشروع في صلاة ركعتين كما هو معتاد تسميته بتحية المسجد، ليفـــاجئ بـــذلك الممسك بذراعه بشدة موجهًا إياه بذراعه إلى حيـــث يجلـــس (عبـــد الرحمن) ذاهلاً قبل أن يقول بنفس نبرته المتفاجئة:

- انظر يا شيخ (بهاء)، انظر من هناك.

- ماذا حدث يا بني؟ ماذا دهاك؟

- تعال معي، لن يخطر ببالك من يكون ذلك الذي أرسلتني لإيقاظـــه، بل من أرسلتني الأقدار لإيقاظه.

- لا أفهم من حديثك العجول هذا شيئًا على الإطلاق، أفضل لك أن تهدأ لأتبين ما تريد قوله، من وجدت جعلك على هذه الحال؟

- تعال معي فقط وستعرف كل شيء.

لحظات فقط تضمنت بعض خطوات سأراها إلى حيث (عبد الرحمن) المتابع لكل ما يحدث دون فهم حتى اكتملت الصورة أخيرًا بظهور تلك الهيئة المذهولة لهذا الشيخ على حساب صاحبه الشاب ناطقا نفس كلماته:

-ش...(شريف)؟

لم يعد (عبد الرحمن) يملك المزيد من القدرة على احتمال تلك التصرفات العجيبة التي يراها من شخصين لا يذكر أنه رآهما قبل الآن؛ فكان قيامه في ارتباك مشيرًا بيديه للرجلين أن كفى قبل أن يقول:

- مهلا يا ساداتي، مهلا، تركتكما تعبران عن استغرابكما كما تشاءان، غير أنه يبدو أن في الأمر خطأ ما، لا أعلم من يكون (شريف) هذا الذي تتحدثان عنه، اعلما فقط أني لست إلاّ فاقدًا للذاكرة أرسله ضيق العيش إلى رحاب الله في ظلال هذا المسجد، قد تكونان من ضحايا سنوات عايشتها من الإجرام لا أذكر عن تفاصيلها شيئًا، غير أني لست بحاجة للبحث عن المزيد من المتاعب، يمكننا تصفية أي خلافات سابقة بيننا في هدوء الآن إن أردتما للأمر نهاية يرتاح لها الجميع.

كلمات حظيت من استغراب (مهاب) بقدر وفير؛ فكان نظره إلى ذلك الشيخ الذي تكشفت شفتاه عن ابتسامة قد لا يراها الكثيرون

ملائمة لهذا الموقف الغريب، ويداه لا تزالان تداعبان مسبحته قائلاً في هدوء:

- الآن فقط وجدنا للغزنا حلاً ينكشف أمام أعيننا بعد وقت طال انتظاره.

قالها وانطلق إلى (عبد الرحمن) يربت على كتفه قائلاً وابتسامته لا زالت تصاحبه:

- هل لك أن تصاحبنا إلى الخارج بعد أداء الصلاة يا بني؟ لا نريدك إلاّ في خير ليس في الأمر متاعب أو خلافات كما ذكرت، فلا أظن هيئاتنا تبدو حاملة علامات الشر أو لها علاقة بالجريمة كما كان تخمينك، كما أن هيئتك كذلك لا تبدو مالكة لشئ يجعلك تخشى ضياعه إن تبعتنا، ماذا قلت؟

كلام نال من المنطقية نصيبًا لا بأس به، لم يجد صعوبة ليسيطر على اقتناع (عبد الرحمن) بشكل شبه تام، فهو بالفعل لم يعد يملك ما يخسره، وأيًّا كان ما سيواجهه فلن يتخطى بالتأكيد حدود ما عايشه طوال عامين سابقين، إضافة لهيئات هذين الرجلين التي تبدو من رواد المساجد وأهل الصلاح، وبالأخص هذا الشيخ الذي كان له من اسمه نصيبًا غير قليل فارتسم البهاء بشدة على ملامحه.

انتهت الصلاة سريعًا وصحب (عبد الرحمن) الرجلين إلى الخارج حيث مقهى صغير من مقاه وسط القاهرة، حيث بدأ (عبد الرحمن) كلامه قائلاً:

- كلي آذان مصغية يا سيدي، من (شريف) هذا الذي قصدتماني به؟

- كان ذلك قبل بعض وعشرين عامًا، كنت أعمل لحساب تاجر كبير يملأ اسمه أسواق الإسكندرية جمعاء يقال له الحج (شاهين) والد ذلك الشاب (مهاب) الذي يجالسنا الآن وأخته (لبنى) التي تنتظر عودة كلينا للديار، توفيت زوجته في سن مبكرة، فكان لولده وابنته نعم الأب العطوف ونعم الأم الحانية، وظللنا على هذا الوضع سنوات وأنا لا أدخر في مساعدته في جانبي حياته العملي والشخصي جهدًا قطّ، حتى كانت زيارته للقاهرة يوما للتجارة عائدًا بصبي تخطى العاشرة يناديه (شريف)، قال إنه يتيم حكى له صديقه العامل بدار أيتام حكايته المؤسفة من موت أبيه صغيرًا ولجوء أحدهم به إلى دار الأيتام تلك بعد اختفاء أمه في ظروف لم يعلمها أحد أو يجد لها المناسب من التفسيرات، رقّ له قلب الحج (شاهين) كثيرًا وقرر كفالته كولد ثالث إلى جوار ولديه، وظل على حاله هذه وذلك الصبي (شريف) يعمل إلى جوار كفيله، ويعيش مستظلاً بظل رعايته إلى جوار ولديه (مهاب) و (لبنى) حتى رحيله لاحقًا بزوجته تاركًا كل شيء إلى ذراعه الأيمن الذي يجلس أمامك الآن يسرد ما كان من سابق الأحداث، أوصاني كثيرًا بولديه لحظة احتضاره، أما عن (شريف) فقد خصّه بوصية خاصة عن الجميع، لم تخب نظرة الحج (شاهين) أو نظراتنا بعده يومًا في هذا الصبي، نجح رغم صغر سنه في كسب ثقة المحيطين وحبهم وعلى رأسهم مربيه الراحل، سارت الأمور بالصبية الثلاثة على منوال واحد

من الهدوء، وأنا أتابع أمورهم بكل ما أوتيت من قوة، يساعدني في ذلك (شريف)، الذي أثبت أنه يحمل من صلابة الرجال وعزائمهم ما يؤهله ليلعب دور المُربِّي لا المُربَّى، حتى كان ذلك اليوم قبل خمسة أعوام، حين ودَّعنا للقاهرة إلى حيث عمل خاص لم يُفصح عنه، طال انتظارنا لعودته كثيرًا دون جدوى، حتى أيقنَّا بفشلنا في إيجاد أي خيط يقودنا من جديد إلى الأمل ببقائه حيا، حتى قادتنا الأقدار من جديد إليه في هذا المسجد القاهري، حيث أخبرنا بفقده للذاكرة مفسرًا بذلك سبب غيابه الطويل عنا.

صمت (عبد الرحمن) حينًا ينظر إلى مجالسيه دون رد، حتى شاء لسانه الحديث أخيرًا متسائلاً يشير بأصابعه إلى صدره:

-أتقصد أني...؟

-إنك هذا الشريف الذي سردت لك قصدته الآن، لحسن الحظ أني أحتفظ دوما بصورة صغيرة جمعتك وهذا المهاب وأخته قبل رحيلك بإمكانك الاطلاع عليها.

قالها وأخرج حافظة عتيقة من جلبابه مخرجا تلك الصورة التي تناولها الحديث مناولا إياها لـ(عبد الرحمن) أو (شريف) كما أُطلق عليه قبل قليل، ذلك الذي تناولها وأطال فيها النظر يختطف بعض لحظات من نظره إليها ناظرًا إلى الرجلين، قبل أن يعيدها إلى مالكها من جديد غير قادر على نطق أي شيء، ها هو لغز جديد يظهر على سطح حياته، أناس آخرون يملكون دليلاً على قضائه إلى جوارهم سنوات انتهت

برحيله عنهم قبل خمس سنوات كما كانت رواية هذا الشيخ له، ماذا عن سابق أيامه إذن إلى جوار (العوضي)، الذي كان يملك إلى جواره صورًا قديمة جمعتهما كتلك إذن؟ ماذا عن (سعد العامرى) و (جابر الصياد) و (مازن السيد) و (شوقي)؟ هل يُعقَل أن يتفق كل هؤلاء الخصوم المتناحرين على مسلسل سخيف أتقنوا أداءه التمثيلي حتى آخر حلقاته برحيله عنهم؟ ما هذا الذي يلاقيه هذا المسكين من أيامه؟ أيام لا يرى أنها تريد لتيار حياته هدوءا ولا تبغي لأمواج دنياه تتابع، يبدو أن لهذا الحادث أثرًا كبيرًا في حياته لن يُمحَى إلاّ برحيله ميتًا عن هذه الحياة القاسية وأهلها الأشد قسوة، على كل حال هو الآن على مشارف حياة جديدة عليه أن يستكشف ما كان خلفها من تاريخ تجهله ذاكرته المريضة، لن يخسر شيئًا وهو الخاسر بالفعل لكل شيء، ليس الآن إلاّ مجرمًا تائبًا لن يقبل به الكثير من أصحاب الأعمال لما تضمه صفحات تاريخه الأسود، إضافة لذاكرته الضعيفة التي يراها بحاجة لمن يروى لها من تاريخ صاحبها الكثير، كما أنه سيترك القاهرة من الأساس وما له فيها من ذكريات عامين نالا منه كثيرًا كما كان تخطيطه حين كان لقاء وداعه لـ(العامرى)، وهو إن كان فاقدًا لصديق خطفته منه حياة الجريمة قبل ذلك، فها هي الفرصة سانحة أمامه لاكتساب آخرين لن تكون فرصة فقدهم الدراماتيكية قائمة بقوة في ظل الحياة التجارية الروتينية الهادئة التي يعيشانها.

(37)

لم يكن الثلاثة لينتظروا كثيرًا داخل حدود القاهرة بعدما أنهى (مهاب) والشيخ (بهاء) ما جاءا لأجله قبل أن تمنَّ عليهم رحلتهم بذلك الغائب العائد، كان يوما جديرًا بنيل مكان بارز على أرفف ذاكرة (شريف) صاحبة العامين، يوم وصوله إلى ذلك المترل الذي روى له مرافقاه ما كان من ذكريات قضاها إلى جوارهما صبيًا ثم شابًا ثم رجلا قبل الرحيل، كان على الثلاثة إيجاد الطريقة المناسبة لتمهيد الأمر لـ(لبنى)، تلك المنتظرة لعودة أخيها ومربيها وحيدين كما هي عادة سابق أسفارهما.

تطوع (مهاب) للقيام بهذا الدور كونه الأعرف بخصال أخته، دخل عليها ليجدها كما اعتادها غارقة بين دفتي أوراق خطتها أقلام (شريف) قبل سنوات:

- كنت على يقين أني سأجدك على ذلك الوضع يا عزيزتي، أوشكت على حفظها تمامًا بأدق حذافيرها عن ظهر قلب.

التفتت إليه باسمة وقد أغلقت أوراقها تضع إبهامها بين الصفحات حيث الصفحة التي توقفت عندها قراءتها قائلة:

- (مهاب)؟ مرحبا بعودتك السالمة يا أخي، بل حفظت أدق وأصغر كلماتها كاملة بالفعل يا عزيزي.

- أعلم أنها وصاحبها ذات قيمة لديك ولدينا جميعا، غير أنك تبالغين قليلاً في علاقتك بها، لم تتغلبِ بعد على بقاء الأوراق وحيدة دون صاحبها.

سبقت ابتسامتها قولها الضاحك:

- تسمونه بين الرجال ضعفًا ونسميه في عالم النساء إخلاصًا يا أخي العزيز.

ضحك ضحكة خفيفة قبل أن يجيب باسمًا:

- هكذا دوما تحاملك على صنف الرجال يا أختاه، لكن أتعلمين؟ يعجبني بشدة إيمانك بقولة (شريف) حي بلا أمل ميت، أراك تنتهجينها بشدة في مسألة عودته.

- إيماني بعودته يومًا ما لم يضعف أو يتلاشى لحظة واحدة، انتظر إطلالته علينا ذات صباح يشاركنا إفطارنا على مائدة واحدة تستقر الآن بالخارج في منتصف شقتنا تلك.

ضحك (مهاب) من دعابة أخته الكاشفة عن براءة زهدها الكثير من أهل هذا الزمان مجيبًا:

- قد لا يطول انتظارنا لإشراق هذا الصباح كثيرًا على أية حال، غير أني أراه سيشاركنا غداءنا لا إفطارنا.

- أراك قد عاودك بشدة أمل ماتت بذرته داخلك منذ زمن بعيد يا أخي.

- هذا لأني قابلت اليوم من جعلني أؤمن بتلك المقولة التي تعشقينها وآمنت بكلماتها مؤخرًا.

ضاقت عينا الفتاة في استغراب متسائلة في لهفة:

- من تراه ذلك المالك لمثل هذا التأثير القوى؟

- أظنك أعرفنا به يا عزيزتي، تفضل بالدخول يا صديقي العزيز!

قالها ونظر إلى الباب ينتظر القادم من ورائه، ذلك الذي دخل في هدوء تصول عيناه وتجول بين الأركان، حتى تثبتت أخيرًا على هذه المصدومة التي وقفت بلا حراك لثوان، وقد اتسعت عيناها، وانفتح فاها قبل أن يتلاشى صمود قدميها، فسقطت مغشية عليها في الحال يُظل سقوطَها دعابةُ أخيها القائل يخاطبها:

- وهذا ما تطلقن عليه رقة، ولا نسميه في عالم الرجال إلاّ مبالغة يا عزيزتي.

(38)

لم يكن (شريف) ذلك العائد إلى حياته من جديد بمدرك تمام الإدراك نظرة تلك الفتاة له من تقدير، كانت تراه المثل الأعلى الذي جابه للحياة مصاعب عدة لا يلاقيها الكثيرون من أهل الدنيا منذ ألقته الأقدار بينهم، وعليه فلم يكن ليتوقع رد فعلها ذاك بظهوره من جديد، دقائق فقط احتاجتها لتعود مجددًا إلى استكمال تلك اللحظة التي تمنتها طويلة برؤية ذلك العائد من جديد، كان مظهرها مستندة برأسها إلى صدر أخيها الذي نجح في إفاقتها يدعو لبعض الشفقة، وقد نال من عافيتها غياب طويل انتهى بذلك الظهور المنتظر، لفظت كلماتها الأولى في ضعف كسته الفرحة بتجدد لقاء أملته فتحقق قائلة:

- هل كان حلمًا استفز به الشيطان عقلي الباطن أم تُراه عطف الأقدار بتحقيق ذلك الحلم؟

لم تنتظر طويلاً حتى جاءها الرد على لسان أخيها الضاحك قائلا:

- بل هو ثاني الخيارات يا صغيرتي.

لم يحتج (شريف) كثيرًا ليشاركهما حديثهما قائلا يخاطب (لبنى) تلك التي أفاقت لتوها من غفلتها:

- حمدًا لله على سلامتك من جديد يا عزيزتي، أنه أخيرا ذلك اللقاء القديم الذي انتظره الجميع نستكمله مجددًا.

- ما زلت غير قادرة على تصديق ظهورك وأنا الذي انتظرته طويلاً يا (شريف)، افتقدناك بشدة طوال ما مضى من السنوات.

- لم يكن حالي بأفضل منكم كثيرًا، كنت ولا زلت بحاجة لرفقاء من أمثالكم منَّت بهم عليَّ الحياة من جديد.

قالها (شريف) متكلفًا قبل أن يأتيه رد ذلك الشيخ (بهاء) منهيًا ذلك الحوار قائلا:

- دعونا من هذا الترحيب الروتيني الذي لا يكون بين أمثالنا من أقوياء الصلة يا أبنائي، أظننا بحاجة للراحة من سفر طويل أتعب الجميع وبخاصة ذلك العائد، أما أنت يا (لبنى)، فسنترك لك مهمة إعداد ذلك الغداء الذي تحدث عنه (مهاب) قبل قليل، ولست في حاجة بالطبع لتوصيتك بطعام يروق لثلاثة في مثل تعبنا كما ترين.

قول تبعته بعض التعليقات الساخرة من جميع الحضور، قبل أن يمتثلوا لقول كبيرهم وعلى رأسهم (لبنى)، تلك التي دبَّت فيها الحياة من جديد فعادت جسدًا وروحه بعدما ظلت سنوات جسدًا بلا روح.

(39)

يبدو أن خبر عودة (شريف) قد انتشر بأسرع مما توقع الجميع، حتى وصل أخيرًا إلى حيث يجد من اهتمام سامعه قدرًا وفيرًا كفيلاً بإرهاقه ببعض المتاعب التي ارتاح منها منذ خمسة أعوام، لم يكن لاسم المعلم (عبد التواب البنهاوى) أن تغفله أذن أو يجهله لسان في الإسكندرية بأسرها، جلس ذلك الصباح كعادته في صدر وكالته، وقد تعلق نظره بذلك الصبي العامل تحت يديه قائلاً في لهفة:

- سيدي أحمل من الأخبار ما قد تهتم لسماعه.

قول استقبله (البنهاوى) ببرود تام وقد تكفل لسانه برد على نفس شاكلة بروده يُظله شاربه الثقيل كحاجبيه قائلاً:

- إن كنت تراه سيعكر صفو مزاجي؛ فاجعل كلماتك حبيسة فمك حتى إشعار آخر، لا حاجة لي بها أو بقائلها.

قول تلقاه الفتى ثم نظر للأرض يختلس إلى معلمه نظرات عمرها لحظات، وكأنه على يقين أنها ستنال من صفاء مزاجه كما كان تحذيره قبل قليل، لاحظه معلمه الذي رمقه ببعض من قلق بدأ يتسلله فكان قوله:

- ألهذا الحد ترى خبرك ذلك سينال مني؟

- في الحقيقة، في الحقيقة.

- أنصحك بالإسراع يا فتى أو تغرب عن وجهي، مزاجي لا يروق للمزيد من تعكير هو في غنى عنه.

كلمات نالت من شجاعة الشاب نيلاً لا بأس به؛ فآثر الانصراف من أمام سيده الذي بدا على ملامحه أن موجات غضبه آخذة في الشدة قائلاً:

- حسنًا يا سيدي، حسنًا، لنجعل الحديث في وقت آخر.

- بل الآن، هات ما عندك، ماذا حدث؟

- سيدي، لقد، لقد عاد (شريف) رجل المعلم (شاهين) رحمه الله!

لم يكن (عبد التواب) ليحمل من ردود الأفعال ما هو مناسب لقولة عامله إلاّ إلقاء لشيشته بيمناه، ثم ضربا لمكتبه بيسراه، قبل أن ينتفض في عنف قائلاً:

- ماذا؟ من أين لك بهذا الهراء الذي تقول؟

- ليس هراءً يا سيدي، الجميع يتحدثون عن عودته، كما أني رأيت الناس يتوافدون على منزل المعلم (شاهين) مهنئين برجوعه السعيد منذ يوم أمس.

أشاح (عبد التواب) عن صبيه محدثًا نفسه قائلاً:

- لم يمت إذن كما أشاع (بهاء)، يبدو أن هؤلاء المبتدئين قد قرروا العبث مع البنهاوى دون أن يقدره أي منهم قدره المناسب، كانت قصة موته تلك تمثيلية إذن؛ للهروب من عقابي حين نجح في الإيقاع برجالي في آخر عملية لتهريب السلاح عبر الميناء، غير أنكما غضضتما الطرف عن عدم اعتياد (البنهاوى) نسيان ثأره يا صغيراي!!

(40)

يبدو أن صحيفة ذلك الـ(شريف) لا تضم بينها من السطور ما كلماته الهدوء وسرده الطمأنينة، اعتادت من الكلمات مثيرها ومن السرد ساخنة، ها هو خصم آخر يظهر في الصورة قد حمل من كراهيته ما حمله سابقوه إن لم يكن أكثر، وكأن المتاعب تبحث عنه لتتسلى بما يلاقيه من أحداث منوالها واحد استوى على تعذيب ذلك المسكين.

مضى يومان على تلك العودة الميمونة وفرحة الجميع بـ(شريف) في زيادة لا نقصان، كانت جلسة اعتيادية مع مربيه (بهاء) وصديقه (مهاب)، حيث أحاديث عما كان من أيام بينهم لم تسعفه ذاكرته بتذكر ما كان من تفاصيل نجاحها وإخفاقها، أو مُجمل بزوغها وخسوفها..

انتبه لتلك الكلمات التي داعبت أذنه آتية من مسافة قريبة، حيث تجلس (لبنى) سابحة كعادتها بين أمواج ما تعشقه من أوراق، خطَّها ذلك العائد قديمًا يومًا ما قبل الاختفاء:

- تولد القلوب كصفحات بلا تدوين، لوحات بلا تلوين، مقطوعات بلا تلحين، وعلى المرء حينها اختيار تدويناته المخطوطة بين صفحاته، انتقاء ألوانه المزينة منقوشاته، واستبيان ألحانه الكاسية لمعزوفاته، وما بين الأقلام والألوان والألحان، يظل الأمر برمته بين يدي الإنسان.

كلمات هزّت أركانه بعنف وكأنها قد قيلت في وصف أمره، تبادر إلى ذهنه ما مضى من أعوام جريمته التي لطخت مؤامراتها صفحاته، وشوَّهت آثامها لوحاته، وأفسدت مطارداتها معزوفاته، يا للكلمات إن وُضعت في نصابها النفسه، أيمكن لأحبار الأقلام أن تلعب بمشاعر بني الإنسان إلى هذا الحد؟ بعض كلمات خطَّها لسان أحدهم ذات يوم في دقائق ولفظها لسان أخرى في ثوان، غير أنها وهي صاحبة عمر الدقائق والثواني قد حوت قصة عقود احتار صاحبها في إيجاد المناسب من تفسيرات أحداثها، هكذا كان حديث (شريف) لنفسه، قبل أن ينهض إلى حيث مجلس ناطقة الكلمات مخاطبًا إياها بقوله:

- لله در كلماتك يا (لبنى)، نالت من إعجابي وتقديري حظًا وافرًا.

انتبهت له فكانت ابتسامتها العائدة من جديد بعد اختفاء سنوات قائلة:

- عليك مخاطبة نفسك بهذا الإطراء يا عزيزي، تبقى الأحق به وأنت الكاتب لما هو أهل له، ليست إلا إبداعاتك.

قول تمكن من إثارة تعجبه؛ فضاقت عيناه متسائلاً في استغراب:

- إبداعاتي أنا؟

- نعم يا (شريف)، ظننتك تنسى كل شئ إلاّ هذا.

قالتها وقد ناولته ما بين يديها من أوراق، قد اصطفت بين دفتين خضراوين؛ فتلقاه يقلب صفحاته وينظر إليها قائلاً:

- ما هذا؟

- كانت هذه خواطرك المخطوطة بيدك قبل رحيلك، خلاصة صراعك مع الحياة وما ظفرت به من غنائم الحكمة بعد هذه الصراعات.

- يا الله، أكنت أديبًا أيضًا؟ ما هذا التناقض الغريب بين الشخصيتين؟

قالها ساخرًا يضحك من حاله الباكي، قبل أن يأتيه التساؤل:

- أي شخصيتين؟

- (عبد الرحمن) و (شريف)، تناقض عجيب بين سماهما، لا أصدق أني قادر على إتقان كلا الدورين.

- لم تعد بحاجة لدور الأول بعد الآن، أرى الثاني أحق بأن تعيش أيامه، وقد أيقنت تمامًا أنه أنت بما لا يدع مجالاً لأدنى شك.

كلمات جاءته من ظهره، التفت إليها يستعد لاستقبال التالي من كلمات قائلها (مهاب) ذلك الذي استطرد قائلاً:

- على كل حال بإمكانك الاختيار يا صديقي بين الطريقين بحرية مطلقة، وإن كنت أراك قد زهدت أول الطرق منذ رأيتك هناك في رحاب مسجد القاهرة، غير أن صفة عدم الرضا تبدو متأصلة في بني الإنسان أجمعين.

قالها باسمًا يمازح صديقه، قبل أن يكمل الشيخ (بهاء) الحديث بقوله:

- يبقى السر في عدم الرضا كامنًا بين طيات تلك النظرة البشرية القاصرة، تلتفت إلى الضئيل وتتغاضى عن النفيس، تغض الطرف عن الغالي وتلهث وراء الرخيص، وما بين التفاهما وتغاضيها تبقى الأجدر

وصفا بالغباء، بين لهثها وغض طرفها تظل الأحق بعدًا عن المديح والثناء!

- أشعر أن تلك الكلمات أيضًا ليست إلاّ إنتاج أقلامي يا شيخ (بهاء).

قالها باسمًا قبل أن يأتيه رد مخاطبه مؤكدًا ظنونه:

- هو كذلك بالفعل يا بني العزيز.

- جميعكم إذن تحفظون تلك الكلمات، ألهذا الحد كان إيمانكم بها؟

قالها ناظرًا إلى ثلاثتهم، وقد زاد ذلك الحديث حبه لهم أضعافًا، قبل أن يأتيه رد (لبنى) الواقفة عن يمينه:

- كان بمثابة دستور نتخذه لحياتنا، لست لتتصور مقدار ثقتنا في تفكيرك الذي أملى على يديك ما في هذه الأوراق من حكم.

لم يجد على مديحها من الردود إلاّ ابتسامة عريضة أتبعها قوله:

- كم أسعدني ذلك الحديث كثيرًا يا أعزائي، أشعر أني بين أهلي من جديد، ها قد أنعمت على دنياي أخيرًا بأكثر مما تمنيت.

- طائر وحيد كاف لإضافة جو من السعادة على بستان لا يحوى غيره، كذلك القلب البشرى، كلمة صغيرة كفيلة بجعله يتألق كما نجوم الليالي المقمرة، ودون أن تسأل كثيرًا، كانت هذه أيضا كلماتك.

قالتها قبل أن ينطلق الجميع في ضحكه؛ ليستطرد بعدها (مهاب) الحديث قائلاً:

- كذلك عهدناك دائمًا يا صديقي العزيز، كلمة صغيرة كانت كافية لإرسالك إلى روض سعادتك أو صحارى أحزانك.

- تذكرني كلماتكم تلك ودعمكم هذا بصديق لي رحل قبل لقائي بكم، لا أعبأ إن كنت صديقه القديم الذي رآني في عباءته أم لا، المهم أنه صادقني بإخلاص لم أعهده من غيره في حياة لا تعرف للإخلاص معنى، لا بأس بذلك الآن على كل حال، لدى استفسار بسيط إذا لك تمانعوا، هل تعرفون شيئًا عن هاتين؟

قالها وقد أخرج من جيبه الصورة المعتادة ورفيقتها الورقة الضامة للتاريخ؛ فالتقطهما (مهاب) يحدق فيهما، قبل أن يمررهما لأخته ولـ(بهاء) دون رد إلاّ من نظرات تعجب له ولأوراقه قبل أن يقطع (بهاء) حالة الصمت التعجبية تلك بقوله:

- يبدو أن سنواتك السابقة قد عمرت بأحداث جسام يا عزيزي.

ابتسم (شريف) ناظرًا للأرض قبل أن يعود بنظره إليهم قائلاً:

- أعدتني بكلماتك عامين للخلف يا شيخ (بهاء)، حين كان أول لقاءاتي بصديقي سالف الذكر، حينها أجابني بنفس إجابتك تلك، غير أنها الإجابة المتكررة التي لم تمحُ من سطور ذهني علامات استفهامها التي تملؤها.

- لا أظنك بحاجة لشغل نفسك بهما كثيرًا يا (شريف)، ما زال على ذلك الميعاد عامين، من يدري؟ لعلهما يحملان لك حل ذلك اللغز

الكبير، ومن يدري أيضا؟، قد يحمل لك هذا التاريخ خيرًا يزيل به كثيرًا من شقاء عاميك السابقين.

- ليس أمامنا إلاّ الانتظار العقيم إذن، لا بأس، لننتظر ما دمنا لا نملك للانتظار بديلاً يا شيخي العزيز.

ما كاد ينتهي من كلماته تلك حتى انتبه الجميع لصوت طرقات على الباب كادت تزيحه من مكانه، اتجه على أثرها (مهاب) يلبي نداء الطارق، الذي تعلقت به أنظار الجميع بعد فتح الباب.

- معلم (عبد التواب)؟

- هو بعينه يا أخ (مهاب)، جئت مهنئًا بالعودة الحميدة لبطلنا الغائب منذ سنوات، أم تُراكم لستم على استعداد لاستقبال زائرين؟

- تفضل يا معلم، على الرحب والسعة!

قالها (مهاب) وقد أشار إليه بالدخول ناظرًا إلى (شريف) و (بهاء) اللذين انضما إلى حديث ضمته بعض مقاعد توسطت المكان، وقد اتجهت (لبنى) للداخل تعدُّ شيئًا للترحيب بضيف غير مرغوب في وجوده من الأساس، لم تكن الفترة المنقضية على بقاء (شريف) تلك الكافية للتعرف على تفاصيل كل ما كان من أمر حياته السابقة لاختفائه، إلاّ أن جلساته إلى (بهاء) و (مهاب) و (لبنى) قد أعادت رسم بعض الخطوط العريضة عن حياته السابقة في ذهنه من جديد، وبالطبع كانت علاقته بـ(عبد التواب) من أبرز هذه الخطوط إن لم تكن أبرزها.

– حمدًا لله على سلامتك يا (شريف)، أسعدتنا عودتك كما لم يسعدنا غيرها..

قول كسته عباءات الافك لفظه لسان (البنهاوى) المعتاد على ذلك، فكان رد (شريف) المقتضب على قدر ما قيل له:

- جزاك الله خيرًا يا معلم، أشكر لك مجاملتك.

- لكن أين طال اختفاؤك طوال هذه المدة؟ طفت على السطح منذ ذلك اليوم المشئوم الذي فقدناك فيه أقوال كثيرة تتحدث عن....

- عن وفاتي، أليس كذلك؟

- عذرًا، لم أشأ لها نطقًا، غير أن العجب قد نالت منه غيبتك بقوة طوال تلك الفترة فكان الدافع لتساؤلي ذاك.

- لا بأس يا سيدي، أقوال الناس تُشيد أركان المصيبة أو تهدمها يا معلم (بنهاوى)، يبقى التحقق منها ضرورة لا مفر منها، إن أردنا للأمور سيرًا طبيعيًا بلا متاعب تنال من راحة الجميع.

- أصبت يا عزيزي، أصبت، أعلم أنك تحمل داخلك بعض شيء من ناحيتي يا (شريف)، جئت أزيل من طريق علاقتنا عقبات للخلاف أخرت كلينا عن تعاون، كان ليثمر عن نتائج تروق للجميع.

- كل شيء مُقدر بميقات يا معلم (عبد التواب)، ما مضى قد مضى ولا داعي لقراءة سطوره التي محتها سنوات غيابي من جديد، لست في موقف يسمح لي بكراهية أحد أو حمل ضغينة لأحد بعد الآن.

- كنت على يقين من رد كهذا، إيماني بنقائك لا يزال على حاله بلا تغيير، رغم كل ما كان بيننا من خلافات.

- أشكر لك مجاملتك يا سيدي.

ليس إلاّ الحق ولا شيء غيره، حان وقت انصرافي الآن، وأظننا بحاجة للقاء آخر يا (شريف).

- لا بأس يا معلم (عبد التواب)، يسعدني لقائك مجددًا.

- حسنًا، ماذا عن صباح الغد بمكتبي؟

- لا بأس يا معلم (بنهاوى)، سأكون جالسًا إلى جوارك في تمام العاشرة إن شاء الله.

- وهو كذلك، أنا بالانتظار يا عزيزي.

قالها وانصرف يصحبه (مهاب) إلى الباب، قبل أن يعود من جديد إلى حديث استأنفه الشيخ (بهاء) لائمًا (شريف):

- ما كان يجب أن تتعجل في إقامة لقاء آخر بدوننا يا بني، لا زلت لم تُحط علمًا بكل ما كان بيننا وبين هذا المجرم من نزاعات، لقاء الغد هذا كان بحاجة للتفكير فيه أكثر من ذلك، أراك بحاجة للتراجع عنه.

- أراك تعطي الأمور أكبر من حجمها يا شيخ (بهاء)، الرجل جاءنا مادًّا يده بالخير وحسب، ليس الأمر على مثل هذا التعقيد الذي تراه.

هنا كان تدخل (مهاب) بقوله:

- يبدو أن سنوات غيابك قد أنستك ما كان من حروبنا الضروس مع هذا الرجل، كن على حذر يا صديقي، لا ينقلب العدو صديقًا بهـــذه السهولة، خاصة إن كان في مثل عداء ذلك الـــ(بنهاوى).

- كونوا على ثقة فيّ أكثر من هذا يا رفاق، أستطيع التمييز جيدًا مـــا إن كان يريد الخير أم خلافه، قد تضع تلك الزيارة حد النهايـــة لهـــذه الحروب التي تتحدثان عنها، دعونا فقط نمر بالتجربة كاملة، لا نـــبني أفكارًا على قواعد من الافتراضات نندم عليها لاحقًا.

(41)

إنها العاشرة من صباح يوم جديد، ذلك التوقيت المتفق علـــى عقـــد جلسة أخرى بين (شريف) و (عبد التواب) فيه، الأمر يسير بصـــورة طبيعية تمثلت في وجود منتظر لـــ(شريف) أمام مضيفه الذي اســـتقبله بترحاب وصل حد المبالغة فيه، غير أن ذلك الضيف لم يُعطِ الأمر أكثر مما يستحق من اهتمامه فكان رده:

- أشكر لك ترحيبك يا معلم (بنهاوى)، ليس الأمر بحاجة لكل ذلك.

- بل بحاجة لأكثر من ذلك يا عزيزي، تفضل بالجلوس.

لبَّى (شريف) دعوة مخاطبه، وقد ظل سمعه على نفس اهتمامه بحـــديث (البنهاوى) الذي استطرد قائلاً:

- أعلم أنه ليس من حقي سؤالك عما كان من صراعك مـــع الحيـــاة طوال السنوات السابقة يا عزيزي، وعليه فقد دعوتك اليوم لنســـطر معًا بقلم التسامح سطورًا جديدة تغبُّ ما كان قبلها من سطور النزاع.

- لا أظن أحدًا يكره ما اقترحت أو يعارضه يا معلم (عبد التـــواب)، كما قلت لك بالأمس وأكررها الآن على مسامعك، لست في موقف يسمح لي بحمل ضغينة لأحد، يسعدني كثيرًا أن ننحي خلافتنا جانبًا.

- بل نأدُها تمامًا يا عزيزي.

قول لاقى من (شريف) ابتسامة أتبعها بقوله:

- أراك متحمسًا لبدء صفحة جديدة بيننا يا معلم (بنهاوى)، حســـنًا، دعنا نأدها كما تسميها أنت، لا بأس بالتسميات مادام المقصد واحدًا.

- حماسي لتسطير تلك الصفحة لا تتصوره يا صديقي، أما عن وأد ما كان، فلا أرى ذلك يتم إلاّ بتعاون مثمر بيننا.

قول أثار حاجبي (شريف) لاقتضاب أضاف على ملامحه لمسة جلية من الاستغراب دفعته للتساؤل قائلاً:

- أي تعاون تقصد يا سيد (بنهاوى)؟ باعتقادي لا زلت بحاجة للمزيد من الإفصاح عن ماهية ذلك التعاون الذي نريد.

- لا مجال لتعاون بيننا الآن إلاّ التعاون التجاري يا عزيزي، دعنا نقر أن تجارة أبناء المعلم (شاهين) رحمه الله قد تراجعت بشكل ملحوظ، في ظل غيابك الطويل وعدم اهتمام (مهاب) بها بالقدر المطلوب وهو المشغول بعمله الخاص، وعدم قدرة الشيخ (بهاء) على القيام بنفس الدور بنفس الكفاءة؛ لاهتمامه بدروسه الدينية التي يلقيها، وبالطبع لم تكن (لبنى) لتملأ ذلك الفراغ الضخم الذي خلفته وراءك، وعلى ذلك فأمامك صعوبات أرى وصفها بالكبيرة حقًّا؛ كي تعود واقفًا على قدميك من جديد، ولكم يسعدني يا عزيزي أن يكون (عبد التواب البنهاوى) مزيل تلك الصعوبات التي ذكرت.

-وكيف لـ(عبد التواب البنهاوى) أن يزيلها ؟ ألاّ تقدم عرضك كله مرة واحدة دون تقطيع؟ هذا أكثر راحة للجميع.

-حسنًا، سأقدم لك البضاعة التي تلزمك حتى تستطيع الرجوع إلى سابق عهدك من جديد، على أن ترد ثمنها في الوقت الذي يتم الاتفاق

عليه، على أن تكون لي نسبة من الأرباح تُخصم بالطبع من ديني لك، أي أنها شراكة بين مالي ومجهودك، فائدة تطال الطرفين، ماذا قلت؟

عدة ثوان من صمت (شريف) شغلها فرك ذقنه بأصابع يمينه يفكر في عرض (البنهاوى) قبل أن يجيب رادًّا:

- لكن ألاّ تراه عرضًا مغريًا إلى درجة جاوزت بعض الحدود يا معلم (عبد التواب)؟ استفادتي منه تفوق استفادتك بكثير.

قول وجد رده من (البنهاوى) كابتسامة عريضة أتبعها بقوله:

- أرى شهادتك جانبًا ايجابيًا لا سلبيًا يا عزيزي، قولك ذلك لا يعني إلاّ اقتناعك بنيلك جانبًا من الفائدة لا بأس به.

- نعم بالتأكيد، لكن ماذا سيعود عليك من النفع من وراء عرض كهذا؟ لا أراك بحاجة لمثل تلك الشراكة التي تريد عقدها معي.

- فهمت ما ترمي إليه، قد يأخذك الشك في عرضي هذا، ونحن اللذان طالت خصوماتنا كثيرًا لسنوات قبل الآن، هي فقط رغبتي في إعادة وئام، أراه كان يمكن أن يتواجد بيننا قبل الآن بكثير، إضافة لاستفادتي المادية من هذه الشراكة أيضًا، فتجارتي ستكتسب عميلاً جديدًا يشارك في اتساع رقعتها عما هي عليه، وإن كان ذلك بحاجة لبعض الوقت، لكنه الربح في نهاية الأمر، إن سارت الأمور كما نريد، لا أظنني بحاجة لعرض مساعدتي عليك دون الدوافع التي ذكرت يا (شريف)، بإمكانك التفكير في الأمر على كل حال، لكن دع عنك سوء الظن، فقد يهوى بالأمر قبل شروعه في التحليق في سماء الواقع.

- وهو كذلك يا معلم (عبد التواب)، دعني لتفكيري ولن يتأخر ردي عليك إن شاء الله، استأذن الآن بالانصراف.

قالها وقام من مقعده يصافحه، قبل أن يأتيه الرد من ذلك القائم يقابل مصافحته بمثلها قائلاً:

- حسنا يا عزيزي، لكن بقى لي رجاء أخير أرجو ألاّ تبخل عليَّ بتنفيذه.

- بالطبع يا معلم، هات ما عندك.

- لا أرى داعيًا لإخبار (بهاء) و (مهاب) و (لبنى) بتعاون وشيك بيننا، تعلم شعورهم العدائي نحوى وعدم تقبلهم لذلك الأمر وارد بقوة، في ظل تلك العلاقة المتردية بين الطرفين، إضافة لعدم تمتعهم بقدر من الخبرة في مجالنا يسمح لهم بالحكم على مثل تلك الأمور، وعليه فلن يضيف رأيهم التجاري جديدًا نستفيد منه.

صمت (شريف) قليلا ينظر إلى (البنهاوى) قبل أن يرد قائلاً:

- كنت لأطلب منك نفس الطلب يا معلم (بنهاوى)، اطمئن، أمور التجارة لا تتسع إلاّ لأصحابها فقط، هكذا علمنا السوق.

- بدأت أطمئن لموافقتك يا عزيزي.

قالها (البنهاوى) مبتسمًا، بعدما أراحته كلمات (شريف) بصورة كبيرة لم يتوقعها ليأتيه الرد من مخاطبه الباسم قائلاً:

- دعنا لا نسبق الأحداث يا معلم (عبد التواب).

(42)

الوضع الآن أشبه باستفهام كبير لم يتبين (شريف) مغزاه الأصلي، وإن انتابه شك كبير في حديث (عبد التواب) المعسول الذي وصل لينه إلى حد لا يطابق تمامًا ما قصَّه عليه أحبابه من صراعات سابقة، لكنه الكلام الذي يُلاقى الكثير من القبول في ذهنه، بعدما رآه يطابق المنطق في جوانب عدة، فالرجل من وجهة نظره مستفيد أيضًا ولو بجانب أقل منه، لكنها الاستفادة التي ستلقاها شراكته لـ(شريف) في نهاية المطاف، إضافة لصداقة هو في اكتسابها آمل وبقوة.

لم يشهد وصوله البيت الكثير من أحداث جديرة بالذكر، اللهم إلاّ من استفهام بسيط من الشيخ (بهاء) عما كان من لقائه مع خصمه، قابله (شريف) بإجابة روتينية كأن لم تُقَل من الأساس:

- لا شيء ذو أهمية، فقط رغبة من الرجل في إزالة ما كان بيننا من سابق الخلافات، أراه كان صادقًا إلى حد كبير هذه المرة.

- لا أنصحك بالاطمئنان لمثل هذا يا عزيزي، الجميع على علم بدهاء (عبد التواب البنهاوى) الكفيل بدفع ألدِّ خصومه إلى هاوية الضياع.

- لا داع لكل هذا القلق يا شيخنا، دعنا من ذلك الآن، لنفسح المجال لحديث أجدر بالتناول، سأستأنف العمل من صباح الغد إن شاء الله.

- لله درك يا (شريف)، كم انتظرت سماع مثل تلك الكلمات، ستزيل عني وعن صديقك (مهاب) الكثير من أحمال أرهقت كاهلينا طوال فترة غيابك، التي طالت سنوات مشقتها على ثلاثتنا بشكل كبير.

- لا عليك يا عمي (بهاء)، ليتفرغ كل منكم إلى عمله الخاص، فـ(شريف) هنا من جديد للتكفل بكل الأعمال.

-هكذا كان ظننا فيك وهكذا كان وجودك عند حسن الظن يا بني.

(43)

الحال الآن في مكتب (البنهاوى) يخيم عليه جو من الرضا التام بما كان بين صاحب المكان وضيفه العائد بعد غياب طويل، رضا تمثل في تلك الابتسامة العريضة، التي رسمتها ريشة السعادة الماكرة على ملامحه؛ فكان عناق شفتيه لخرطوم شيشته في ود زائد، وكأنه أراد مشاركة أحد لأفراحه، فلم يجد أمامه سواه، لم يكن (البنهاوى) ليصبح على مثل تلك السذاجة التي ظنها عليه (شريف)، لم ينسَ بعد إيقاعه به وبرجاله في آخر عملية تهريب قبل اختفائه، وعليه فقد كان اهتمامه به على مثل هذا النحو ذا دافع لا يعلمه إلاّ هو، وكأنه قد أراد إدارة اللعبة من جديد بحنكة سمتها الهدوء والصبر للإيقاع بغريمه دون خسائر، غير أن هذا المنطق الرزين لم يلقَ من اقتناع صبيه ومساعده الأول ذلك كثيرًا؛ فكان سؤاله لسيده النابع من ينابيع تعجبه قائلاً:

- لم أعد أفهم أي شيء يا معلمي، أبمثل هذا تستعيد ثأرك القديم؟ أم تُراك تغاضيت عنه كما أوحيت له وللجميع؟

قول قابله (البنهاوى) بضحكة صغيرة ساخرًا من قصور تفكير صبيه، قبل أن يجيبه بقوله المنطوق من لسان بارد:

- سألت وأجابك لسانك يا عزيزي، أوحيت له، لا زالت أقداري تُصِرُّ على ابتلائي بمن هم في مثل غباءكم يا فتى، أبدًا لن يسمو تفكيركم إلى تفكير الكبار.

- عذرًا يا سيدي، لكن تعاملك معه بهذا الكرم يكاد يصيبني بالجنون، لا يلائم أبدًا رغبتك السابقة الملحة في الإيقاع به.

- أتعلم يا (سيد)؟ كثيرًا ما تمنيت لو حظيت بمثل (شريف) هــذا في صفوف صبياني، لكن اختلاف مناهجنا أبى إلاّ أن يجعله في الصــفوف المقابلة، حيث يصطف أعدائي يستعدون لمعارك تجمعــني بهــم، كــان ليساعدني كثيرًا، وهو المالك لرأس ذهبية التفكير لا ينعم أحدكم ولــو بجزء ضئيل منها.

طأطأ الفتى رأسه في انكسار، وقد ملأه الغيظ من كلام سيده المهــين، قبل أن يأتيه كلام معلمه من جديد مستأنفًا:

- قد ترى في تصرفي هذا رعونة أو حمقًا، إدارتي الهادئة للأمر قد تلاقي من فهمك الخاطئ حظًا وفيرًا، ظننتَ أن في ذلك اختلافا عما نويتــه قبل ذلك من الإجهاز عليه فور رؤيته، و في حقيقة الأمر تعاملي الحالي مع الموقف هو ما يضمن لي نجاح مرادي على أفضــل مــا يكــون، سأستمر في عطائي له كل ما أمكنه سداده من تجارته، مبالغ صغيرة هو على الوفاء بدينها قادر، في ظل عبقريته التسويقية، وعلاقته الجيدة مع التجار، حتى يصل اطمئنانه لي إلى حد لا يجد في رأسه عنده ذرة شــك تردعه عن التعامل معي، حينها تكون الصفقة الكبرى، التي سأقرضــه إياها من بضاعة تضيق لها مخازنه، وعلى جانب آخر أكون قد أنهيــت اتفاقي مع التجار على بيع تجارة مماثلة بسعر أقل ممــا أراد البيــع بــه للوفاء بدينه، حينها تكسد التجارة، ويصبح في قبضتي، أتلاعــب بــه

كيفما شئت، وهو المدين لي بمبلغ لو عمل عمره كله لما استطاع الوفاء بشطره.

فترة قصيرة من الصمت سادت تفكير ذلك الفتى في كــلام ســيده، الذي تابع الاستمتاع بشيشته، بعدما كشف لفتاه المقرب عما في جعبة شيطانه من ألاعيب، قبل أن يستطرد في نفس هدوئه قائلاً:

- هل فهمت الآن ما قصدته من وراء تلك المعاملة التي ظننتها غبــاء من معلمك أو تراجعًا عن حق له؟

- العفو يا معلمي، لم أقصد ذلك بالطبع، لكن، في ذلك خسارة لــك أيضا يا سيدي، وخسارة ليست بالبسيطة.

- لكل سلعة ثمن يا فتاي العزيز، وسلعة (شريف) لا تقدر بثمن، ثم إن خسارتي قد عوضتها مسبقًا منذ حين.

ضاقت عينا الفتى وقد تساءل متعجبًا:

- عوضتها؟ كيف يا معلمي؟

- أنسيت ما نجحت في اقتناصه من المعلم (شاهين) قبل وفاته؟ تلــك الصفقة التي تسببت في وفاته مصدومًا، حين أجبرته على البيع بــثمن بخس لسداد ديونه، التي تفننت في تراكمها؟ ظفرت مــن وراء تلــك العملية بمبالغ طائلة، وإيقاعي بــ(شريف) لن يتكلف جزءًا من جــزء من أرباحي حينها، أنا الفائز في النهاية يا صغيري، معلمك لا يخطــئ التدبير، كل خطوة يخطوها لها حسابها الدقيق.

- كم يبهرني ذكاؤك يا معلمي العزيز.

- مهلاً، لن تنتهي اللعبة عند هذا الحد وحسب.

- ماذا هنالك من مشاهد الفيلم بعد ذلك يا سيدي؟

- أما عن ذلك الجزء من اللعبة، فدعني أفاجئ به الجميع، أنه الجــزء المفضل إليّ من لعبتي المثيرة تلك، كل ما أستطيع الإفصــاح عنــه، أن اختفاءه هذه المرة سيكون للأبد!

(44)

شهور مضت على هذا الحديث الحامل لكل معاني الحقد الضام لكــل إيحاءات الكراهية، سارت خلالها الأمور على مثل ما أراد (البنــهاوى) وأفضل، لم يكن أمام (شريف) من الحلول إلاّ هذا التعاون، الــذي لم يعلم به غيره، وهو المستلم لتجارة أوشكت علــى الانهيــار في ظــل انشغال (بهاء) و (مهاب) بعملهما الخاص دون تجــارة آمنــوا بعــدم قدرتهم على مجاراة (البنهاوى) فيها.

لم تكن فرحة (عبد التواب البنهاوى) بنجاح مخططه لتلهيه عن تساؤل طالما سأله لنفسه، عن تلك السهولة النسبية التي لاقاهــا في إقنــاع (شريف) بذلك التعاون، لكنه أبدًا لم يظفــر بإجابــة شــافية لســقم استفهاماته، وهو الجاهل بما كان من أمر فقده للذاكرة واختفاء ســابق الأحداث من ذهنه إلى حيث لا رجعة، وعليه فقد محت صورة معاملته الحسنة التي عايشها ما كان من سرد (بهاء) و (مهاب) و (لبنى) له عن أحداث عدة قاتمة لم يعشها، فكان محو ما عاش لما لم يعشْ، إضــافة إلى رغبته في إغلاق كل السبل التي قد تؤدي إلى متاعب هو في غنى عنها بكل تأكيد.

الأمور على كل حال في طريقها إلى حيث أراد (البنهاوى) وخطــط، عام وبعض عام قد مضى على ذلك التعاون المثمر بين الطرفين، قضاها (شريف) في عمل دءوب، رغبة منه في العودة السريعة الــتي يتخلــى بعدها عن دعم (البنهاوى) له، واضعًا حد النهاية لتلك الشراكة، التي

كانت بمثابة الغصة في حلق علاقته بعائلته الجديدة، وعليه فقد كانت رغبته الملحة في تحقيق أقصى استفادة من عمله إلى جوار (البنهاوى) في أقصر وقت، بما لا يؤثر على ثقة الثلاثة المطلقة فيه.

لم يدُر بخلد (شريف) قطّ أن نهاية الشراكة قادمة لا محالة كما أراد، غير أنها النهاية التي لم ترتقِ لها قطّ توقعاته، نجح (البنهاوى) أخيرًا فيما أراد، كانت تلك الصفقة الأخيرة بمثابة آخر الخطوات في درب ظنه، (شريف) مستمر إلى حيث اتفق مع غريمه على تعاون دائم، غير أن رسم (البنهاوى) لخطوات الطريق كان على غير ما ظنَّ ذلك الـ(شريف) وأراد، كسدت البضاعة في مخازنها، و(شريف) لا يملك من الحلول ما يؤهله للخروج من مأزقه ذلك، الذي وقع في شباكه كأضعف من عصفور مهيض الجناحين.

ها قد انكشفت الأمور أمامه تمامًا الآن، فطن أخيرًا إلى قوانين اللعبة التي كان ضحيتها الوحيدة، وأدارها عدوه على أفضل ما تكون إدارة المؤامرات وتخطيطاتها، لم يعد أمامه الآن إلاّ اللجوء إلى مفاوضات أخيرة في هدوء؛ علَّه ينجح في الوصول إلى حل يرضي الطرفين دون ضرر يمس أحدهما، خاصة وأن الضرر الآن قد يؤدي به إلى سنوات من السجن لا يعلم مداها ولا مدى ما يليها إلاّ الله، إضافة لفقدان تلك العائلة التي لاقى في كنفها من الأمان والحب في الله ما افتقده وبشدة قبل اجتماعه بهم.

كانت زيارة انتظرها (البنهاوى) طوال عام كامل، استعد لحديثها تمامًا، وهو المخطط بدقة لاستدراج فريسته إلى الخطوة الثانية، حيث الغرق بين أمواج لا يملك لها ذلك (الشريف) سبيلاً للنجاة...كان لقاء بين طرفين تناقضت بشدة ردود أفعالهما حول ما كان، هدوء تام لـ(البنهاوى)، وغيظ مشوب ببعض العصبية من (شريف)، ذلك الذي استهل حديثه الحامل لكلمات حنقه قائلاً:

- تهانئي الخالصة بنجاح مخططك يا معلم (عبد التواب)، لا شك أنك استمتعت بتنفيذه إلى حد كبير.

كلمات قالها (شريف) قابلها (البنهاوى) بابتسامة علاها الاستفزاز المتجسد بقوة في ملامحه، قبل أن يجيب قائلاً:

- أبمثل هذا ترد الجميل يا عزيزي؟ حسبتك تشكرني على المساعدة لا أن تنكرها؟ لم أعهدك قبل ذلك من ناكري الجميل.

- كان (بهاء) على حق إذن حين حذرني من مكرك المجاوز بفجره كل ما وضعه خصومك وأعداؤك من حدود التوقعات.

-لا أنصحك بتخطي أسوار حكمتك يا عزيزي، الهدوء أقصر الطرق وأنسبها لنتائج أراك في حاجة إليها.

قالها وصمت قليلاً، وقد قام من مجلسه سائرًا ببطء إلى ضيفه الواقف يراقب خطواته مستطردًا في هدوء:

- أراك تخليت مؤخرًا عن نصائح شيخك المبجل يا صديقي، لم تكن هذه عادتك قطّ قبل الآن...كنت تلجأ إليه في صغائر أمورك قبل كبائرها، أم أنها الثقة التي تلاشت بعد غيابك الطويل؟

- قد يؤازرك الحق بعض الشيء في الجانب الأول من الحديث، تخليت عن نصيحته، وها أنا الآن أجني ثمن ذلك التخلي الأحمق الذي كلفني الكثير، لكنها أخطاء نتعلم منها، تنفعنا تارة وأخرى تدفعنا للهاوية.

- مهلاً يا عزيزي، مهلاً، الأمر ليس بهذا السوء الذي تراه، لا زال باب الأمل مفتوحًا لم يُغلَق تماما بعد، بإمكانك اللحاق ببصيص الأمل الذي يعبره قبل أن تُوصده أقفال السجن إلى حيث لا رجعة.

- ماذا عن المزيد من الإفصاح؟ لا أظن الموقف بحاجة للمزيد من الإبهام الذي يعمر كلامك بجزء وفير منه.

- نتفق تمامًا في هذه النقطة يا شريكي العزيز، تعلم يا (شريف) أننا على علم تام بطبيعة بعضنا البعض، لعلّ هذا كان سببًا في عدم نيل أحدنا من الآخر تمامًا طوال فترة نزاعنا، اللهم إلاّ بعضا من طعنات عابرة من أحدنا للآخر مردودة بمثلها، حتى تمكنت منك مؤخرًا على أفضل ما يكون الإيقاع بالخصوم.

- لا أظنك تعتبر ما سبق من كلماتك هذه يرتقي لمستوى الإفصاح الذي قصدت واتفقت معي في ضرورة تواجده.

- لا تتعجل يا صديقي، الكلام لابد له من هدوء يتوِّجه حتى يأتي بمنشود نتائجه، أرى أن تسرعك هذا قد يغلق باب تفاوضنا مبكرًا.

صمت (شريف) بانتظار القادم من حديث (البنهاوى) الذي استطرد قائلاً:

- لن أسألك بالطبع عن سر اختفائك طوال هذه السنوات الماضية، لكن دعني أصارحك بإيماني الكامل، أنها لم تكن على نفس درجة الاستقامة، التي كنت تنتهجها قبل اختفائك، وعدت لانتهاجها بعد عودتك، أوقن تمامًا أن سنوات غيابك قد عمرت بالكثير من الأعمال أظلتها مظلة اللاشرعية، أم، تراني غير محق؟

- أراك تتكلم بثقة نادرة، وكأنك قد صاحبتني طوال فترة غيابي.

- ليست ثقة، هو فقط مجرد تخمين يحتمل الخطأ والصواب، وإن كنت لم أخطأ التخمين قبل الآن.

صمت (شريف) برهة قبل أن يتجه بسؤاله إلى خصمه قائلا:

- ماذا تريد يا (عبد التواب)؟

- أريد مساعدتك يا (شريف)، وجودك بجانبي سيعود بالرخاء على كلينا وبأقل المجهودات، انصت إلى كلامي، ودعك من هذا الثلاثي الذين يلتحفون المثالية ويرون نفسهم أربابًا لها.

- وماذا عساني يحل بي إن انصت إليك لثاني المرات؟ أنصت في الأولى وها أنا أصارع مصيري الأسود الآن أمامك، أما عن هذا الثلاثي، فلا أظنني أسمح بالمزيد من الكلمات في حقهم...وأما ثالثا فلابد أنك تقصد مساعدتي لك في نشاطك الإجرامي، أليس كذلك؟

- لا أرى في نبرة حديثك ما يوحى بالموافقة.

- من الجيد أنك فهمتها وحدك دون تصريح أجتهد في إيصاله إليك.

- دعنا إذن نُجرى تعديلاً بسيطًا على هذا العرض، ماذا عن العمل إلى جانبي حتى وفاءك بهذا الدين؟ ودعني أذكرك أن خيارات نجاتك الآن تنحصر في هذا الاختيار وحسب.

- كانت هذه خطتك إذن، إجباري على الغوص في وحل العمل الإجرامي هربًا من قيود السجن التي ستطالني بعد تراكم ديونك عليّ، لجأت للمساعد الخطأ يا عزيزي، يؤسفني القول أن الجزء الثاني من خطتك قد نال من الفشل الذريع حظًا وافرًا.

- لا أنصحك بالتسرع في الحكم على نجاح مخططاتي من فشلها، لعله لم يصل لعلمك أنه لم تفشل لي خطة قبل ذلك على كل حال، لن أعبأ بردودك الآن، علمتني الأيام ألاّ أؤمن بكلام لسان طوقته عصبية صاحبه، لن أتعجل موافقتك، وإن كنت أراك لا تملك دونها حلاً، تستطيع الانصراف الآن يا عزيزي، سأنتظر على حرارة لقاءنا القادم بعد يومين حيث نخطط لأولى العمليات، وتذكر جيدًا أن تأخيرك عن الحضور، يعنى لجوئي لحل لن يعجبك نزوله إلى أرض الواقع بأي حال من الأحوال.

(45)

غادر (شريف) المكان وقد تشابكت خيوط التفكير في ذهنه إلى درجة جاوزت عندها حدود التعقيد، هل صدق (البنهاوى) حين قال إنه لا يملك دون الرضوخ لعرضه من بدائل الحلول ما يضمن خلاصه؟ هل أصاب حين أخبره أن لا ملجأ من ديونه إلا إجرامه؟ يبدو أنه صدق في قوله وأصاب حقًّا إلى حد كبير، لم يكن (شريف) ليخدع نفسه كثيرًا، وهو الأحوج للمصارحة الآن أكثر من أي وقت مضى، لن يستطيع مهما كانت الضغوط إخبار (بهاء) و (مهاب) و (لبنى) بكل ما كان من تعاون سابق بينه وبين عدوهم، كانت ثمرته ضياع تجارتهم إلى لا رجعة، لن يجرؤ على التصريح بأنه أفقدهم كل ما تبقى من تجارة يملكونها، ليس بالإساءة يُقابَل الإحسان ولا بالخيانة تُلاقى الأمانة، أحسنوا إليه فكان رده بالإساءة، وحين ائتمنوه لم يجد في جعبته من الأجوبة إلاّ خيانتهم، وإن كان لم يرد سيرًا في طريق الإساءة أو يبغي شقًا لسبيل الخيانة، النتيجة واحدة على كل حال، هو الآن في موقع المُدان الفاشل، وليست إلاّ أيام فقط كفيلة بإرساله إلى حيث سجن كاف ليفقده الباقي من أنقاض حياة لا يعلم عن ماضيها ولو لحظة واحدة، لم يعد هناك من الوقت ما يسمح له بالتفكير فيما كان، هو الآن أحوج لكل دقيقة يسخرها فقط للتفكير فيما هو قادم، مضت مهلة (البنهاوى) له في تفكير متواصل، قاده في نهاية الأمر إلى الخيار الذي يكرهه ولا يملك له بديلاً، قبول عرض (البنهاوى) حتى يقضي ما عليه

من الديون، ثم تكون عودته بعد ذلك إلى سابق عهده النقي، وإن كان قد أضمر في نفسه هدفًا آخر هو على تنفيذه عازم، ولو كلفــه ذلــك الباقي من سنوات عمره!!

(46)

كان الوقت أقرب لظهيرة حارة، استشرت خيوط شمسها اللامعة بلون الذهب بين الخلائق معلنة استمرارًا معتادًا لماكينة العمل، الــتي دارت تروسها بقوة في تلك الساعة، التي أطلق عليها أهلها من العاملين ساعة الذروة، بدت شوارع الإسكندرية كمذياع كبير، اختلطــت داخلــه نداءات الباعة ومجيباتها من أصوات الشارين، تــداخلت بــه أوامــر الرؤساء وملبياتها من تنفيذات المرؤوسين، وبين اخــتلاط النــداءات والأصوات وتداخل الأوامر والتنفيذات يبقى كل مذيع على علم تــام بخبايا إذاعته وإيمان كامل بدوره البارز في نجاحها، يبقــى الحــال ذو اختلاف بعض الشيء لذلك المذيع الذي لا يعلم عن برنامجــه شــيء يعينه على نجاحه في تقديمه، ألقته فيه أيامه دون إعداد منه أو تحضــير، وهو لا يملك إلاّ تقديمًا مذبذبًا لدور لم تراوده ذرة إيمان واحدة أنه قــد خُلقَ له، فكان ضحك الجمهور لخيبته الجليــة واســتهزائهم بأدائــه الركيك، وفى المقابل قد خلت جعبته من كل الحيل إلاّ من بكاء يقابل ضحك الضاحكين وتأوهًا يلاقي استهزاء المستهزئين، ها هــو ذلــك المذيع الفاشل المُجبَرُ على فشله في طريقه من جديد للمزيد من حلقاته العامرة ببكائه وضحكات المتــابعين، المليئــة بتأوهــه واســتهزاءات السامعين، لا يظن حاله ذلك مستمرًا كثيرًا بعد الآن، أفضل له اعتزال جمهور يستمتع بآلامه، ويتلذذ بما يلاقيه من عقبات، أيام قادمة يراهــا ستشهد انعزاله وفرحة جمهوره باختفائه، رحيله وحزنهم على فقــدان

مصدر تسليتهم الأول في حياة لا تشهد الكثير من التسليات، هو المستقبل إذن الذي سيشهد إذاعة في غنى عن مذيع فاشل، ومذيع بلا حاجة لإذاعة ساخرة، لكنه فقط الانتظار لآخر حلقات البرنامج مع هذا الضيف، الذي تسير خطة قضائه عليه كأفضل مما أراد وطالت تخطيطاته.

ها هو (شريف) ذلك المذيع المسكين في مذياع الحياة في طريقه من جديد لأحد الضيوف الثقيلين على أيامه الأشبه ببرنامج فاشل، أجبره تفكيره من جديد على اللجوء لـ(البنهاوى) مبديًا موافقته الجبرية على عرضه السابق، لم يتفاجئ (عبد التواب) كثيرًا بزيارته، وهو الموقن تمامًا بأنه قد أحكم إغلاق كل الطرق في وجهه عدا طريق اللجوء إليه راضخًا لعرضه، الذي يعتبره (شريف) على نفس درجة القسوة التي تملكها قيود السجون، غير أن ذلك الطريق يملك الفرصة لترتيب الأوراق وتنظيمها، وهو ما لا يملكه ذلك الطريق الآخر خلف القضبان.

- ألم أقل لك مسبقا إني لن أعتبر كلامك السابق نهائيًا يا صديقي؟ صدق حدسي ولجأت من جديد لأقرب الحلول للعقلانية، على كل حال أهنئك على حكمتك وأهنئ نفسي على الظفر بمساعدة مثلك.

- بل إليك تهانئي أنا بدهائك يا (بنهاوى)، نجحت باقتدار ولا زال عرضك الناجح على حاله مستمرًا بنفس نجاحه الباهر.

- دعنا لا نرى بعضنا خصمين مجددًا يا (شريف)، عما قريب سيجمعنا عمل واحد يا رجل..ليس بين الشركاء يكون هذا النحو من التعامل.

- لا أظنك تملك حق التحكم في شعوري نحوك أيضًا، مشاعري باتت رصيدي الوحيد الآن، ولن أبدي أدنى استعداد لفقد القليل منها في حب زائف لمن لا أهل له، لك أن تسأل عن كفاءة العمل ودقة تنفيذه فقط، أما ما دون ذلك فلا شأن لك به تمامًا من قريب أو بعيد تحت أي ظرف من الظروف.

صمت (عبد التواب) برهة، وهو لا يزال محتفظًا بهدوئه قبل أن يكون رده:

- رغم كونها بداية غير موفقة، إلاّ أن ذلك الأمر قد أصابك فيه الصواب، هو راجع تمامًا إليك، تذكر فقط أني أردت إذابة خلافاتنا السابقة.

ضحك (شريف) ضحكة صغيرة استنكارية، وقد خفض رأسه قبل أن يرفعها مجددًا يخاطب خصمه:

- يبدو أن ثقتك في ذاكرتي أدنى مما توقعت يا معلم (بنهاوى)، أم تراك أنت من ضعفت ذاكرته كثيرا مؤخرًا؟ كلامك هذا كان السبب في تعاوننا ذلك الآن يا عزيزي رغم أنفي، دعنا من ذلك الكلام الذي يؤمن كلانا أنه بلا أساس الآن، بقى فقط لدى شرط أخير لإتمام تلك الصفقة.

قول قابله (البنهاوى) بضحكة ساخرة، قبل أن يستأنف الحديث ومـــا زالت ابتسامته العريضة على حالها تعلو وجهه قائلاً:

- من تراه فينا بوضع يسمح له بإملاء الشـــروط علـــى الآخـــر يـــا عزيزي؟ أنت اللاجئ إليّ لست من لجأت إليك.

صمت لثوان كان الرد الذي ملكه (شريف) على استفزاز (البنهاوى)، أتبعه برده المحافظ على قدر من الهدوء يتطلبه الموقـــف ليمـــر بســـلام قائلاً:

- ماذا إذن عن تسميته رجاء؟

- أرى في نبرتك تراجعًا ملحوظًا إلى حد كبير عـــن غطرســـتك يـــا عزيزي.

لم يُجب (شريف)، وقد نجح صبره في إخماد نيران غضبه، قبل أن يأتيـــه استئناف (البنهاوى) لكلامه قائلاً:

- حسنًا، لا بأس، هات ما عندك، بإمكاننا مناقشة كل التفاصيل قبل بداية العمل، ذلك أفضل لكلينا ولنجاح العمل.

- ألهذا الحد تهمك التسميات؟

- عملنا قائم على تلك الفروق التي تراها طفيفة يا شريكي العزيـــز، فرق واحد منها كفيل بإنجاح العمل أو إفشاله.

- أراها مبالغة للتهويل ليس أكثر، لست بحاجة لمثل هذه الأســـاليب على أية حال.

- هو إذن سوء الظن مجددًا، لا بأس، إليّ بما تريد.

- أريد لاتفاقنا القديم الناص على عدم معرفة أحد بتعـــاوني المشـــبوه ذلك معك، تذكر دائمًا أنه تعاون مؤقت فقط.

- لك هذا يا عزيزي، (عبد التواب البنهاوى) دومًـــا علـــى الموعـــد للوفاء بما نطقه لسانه من وعود.

ضحكة ساخرة أطلقها (شريف) لتلك الجملة الأخـــيرة متبعًـــا إياهـــا بقوله:

-لا زلت مصرًا على وصف نفسك بما لست أهلاً لـــه، لا داع لمثـــل ذلك أمامي من جديد يا عزيزي، نلت ما تريده مني وكان مـــا كـــان، أستأذن بالانصراف.

(47)

انتهى اللقاء أخيرًا بلا جديد يُذكر، غادر (شريف) ذلك المكان الذي باتت فكرة الثأر من أهله على أشدها الآن، ها قد تلاعبت بقاربه أمواج الحياة من جديد، فكان إلقائها له إلى شاطئ الجريمة، الذي عقد العزم قبل ذلك على عدم شد الرحال إليه مجددًا مهما كانت الإغراءات، لكنه عُتو الأمواج الذي لم يقوَ قاربه الشارد على مقاومته لوقت طويل، شاطئ طالما ذاق من حرارة شمسه وسخونة رماله ما يكفيه لتفضيل الهلاك على الرجوع إليه، ذلك الرجوع الذي كان أبعد ما يكون عن نيته ورغبته، بعدما رآه من شرور جرت عليه، حين سار في دروبه أبرزها رحيل (العوضي) صديقه الوحيد، لكنها العودة على أية حال التي أُجبِرَ عليها، أو بمعنى أقرب للدقة أجبر نفسه عليها.

كان تطور الأمر سريعًا إلى حد كبير، بعدما كان من اتفاق الخصمين على بدء العمل، بدأ التعاون على نطاق ضيق اتسع تدريجيًا، ساعد على ذلك خبرة (شريف) الكبيرة في ذلك المجال حين كان يعمل لحساب (سعد العامرى)، وإن كان لم يُخبر (البنهاوى) بحقيقة ذلك الأمر مُفضلا أن يتركه لافتراضه الساذج، أنها مهارة وحنكة وفرها له ذكاؤه ليس أكثر.

(48)

عام أو أقل قليلاً كانت المدة المارة على ذلك الوضع دون تغيير إلاّ من زيادة في إحساس (شريف) بالذنب من هذه الشراكة، وإن كان يُخفي وراءها ما يشفع له ساعة المواجهة التي كان إحساسه باقتراب قدومها يتزايد بمرور الأيام، وزيادة تقابله في ارتياح (البنهاوى) لسريان الأمور كما أراد وأفضل.

كانت ليلة فقيرة النسمات إلى حد كبير، يكاد الرائي يخال الأشجار تماثيل مثلتها أيادي صيف اشتدت حرارته، بعدما كان من ثبات فروعها دون حراك وبقاء أوراقها على نفس الشاكلة المُحبطة لأطيار لا يروق لها ذلك الجو كثيرًا، وهى المعتادة على مشاركة جميع أركان الطبيعة لها في تراقصها وتغريدها اليومي في مثل تلك الساعة.

كان (شريف) على موعد مع جلسته التي اعتادها مع كل إطلالة قمر في تلك الشرفة في منزل الحج (شاهين)، والتي تعلوها شرفته التي تركها لزيارة يومية اعتادها لجيرانه الأعزاء، لم يعبأ كثيرًا بحرارة الجو أو فقر النسمات أو ثبات الأشجار أو اختفاء الأطيار، وهو الذي غاص في حديث اعتاده مع نفسه أقوى حرارة وأشد قسوة:

- يا لمشوارك العجيب أيها الـ(عبد الرحمن) الشريف غير الجدير بثاني أسمائه ذاك، نعم غير جدير به، من أين لك بالجدارة وأنت المتخلي عن صفاته بأبخس الأثمان؟ لكن مهلا...من أدراك من الأساس أنك هذا الشريف الذي يتحدثون عنه ويتشدقون بمكارمه؟ ذكرياته معهم

وصفاته، التي شهدهًا هذه الذكريات بعيدة باستقامتها ونشاطها وذكائها كل البعد عما تملكه الآن من صفات، أهي قصة (عبد الرحمن) من جديد؟ قصة تعيشها وتجني شوكها، ثم تأتي الإثباتات في النهاية أنك الأشخاص، لجاني على نفسه المجني عليه من أيامه؟ إيهِ عليك يا مسكين، تختلف حولك التسميات ويتبدل إلى جوارك الأشخاص، وأنت على حالك من التخبط بين الاختلاف المؤلم والتبديل الذي نال من كل جميل كان يحتويك، لا بأس مما كان الآن وأنت لا تملك له التعديل، ماذا عن القادم أيُّها التائه؟ ماذا عن تلك الشراكة التي أخفيتها عن نواظر هؤلاء الثلاثة الذين تتواجد بينهم الآن؟ هل بمثل هذا تقابل احتضانهم لك وحرصهم عليك؟ هل يستحقون منك ذلك الإنكار الذي قد يعصف بتجارة هم مالكوها وليس أنت؟ أخفيت بداخلك أمرًا قد يُثبت أن تم أنك جدير ببعض ما يحويه هذا الاسم الذي يقترن بك الآن، لكن اعلم أنك إن فشلت فهو الخسران المبين لكل باق من أنقاض حياة تستهلك أيامها كما استهلاك الطفل لدمية هو زاهد في اقتنائها، لولا أنه الواقع الأليم الذي فرض عليه مثل هذا الاقتناء.

كلمات حدثته بها نفسه وحدثها بها قبل أن يأتيه ذلك التنبيه من خلفه لذلك الشارع في الجلوس إلى جواره قائلاً:

- لم أكن أعلم أن الصمت ممتع إلى هذا الحد!

انتبه له ذلك المحادث نفسه فكانت ابتسامته المتبوعة برده الهادئ:

- شيخ (بهاء)؟ الصمت يا عزيزي ليس إلاّ لغة من لغات الإنسانية لا يعي معانيها إلاّ أصحاب العقول ولا يفهم مرادها إلاّ ذوو الألباب، فقط اقرنه بابتسامة الثغر وصفاء النفس ونقاء القلوب...حينها فقط سيشعر خصمك بفداحة خسارته، ثم من قال إنه صمت؟

أدار الشيخ (بهاء) رأسه مفتشًا عن ثالث يمكن أن يطاله حديث (شريف)، قبل أن يأتيه استطراد محادثه قائلاً:

- ليس الحديث الذي اعتقدته يا شيخنا، إنما هو حديث النفس لصاحبها ورد صاحبها لحديثها، الحديث الأعنف بين أقرانه الأقوى بين أمثاله، لو كان لنفس لوامة لأجهدك عتابها لخطاياك ولومها على جرائرك، ولو كان لأمارة بالسوء لأرهقك وساوسها لارتكاب تلك الخطايا والوقوع في تلك الجرائر.

- أصبت يا بني، أصبت، لكن ماذا عن نفسك؟ أتراها تتحلى بانتمائها للأولى أم، يكسوها خزي الانتماء للثانية؟

قول قابله (شريف) بزفير حار طويل أخرجه قبل أن يقوم من مقعده سائرا بعض خطوات إلى جواره قائلاً:

- والله إني لا أعلم ماهيتها حتى اللحظة يا صديقي الشيخ، تدفعني لارتكاب الآثام، ثم لا تلبث أن تلومني على ارتكابها، تجرني للوقوع في السوء، ثم لا تلبث أن تعاتبني على الوقوع فيه، وأنا بين دفعها ولومها وجرها وعتابها قد زهدت معرفة حقيقتها بعدما شقَّ عليّ التمييز.

- هذا لأنك لا تريد أن تميز يا صديقي، أؤمن تمامًا بالنظرية القائلة أن من أراد شيئًا وعمل له سيظفر بتحقيقه يوما ما، وإن طال انتظاره لذلك اليوم، وإن لم يأتِ فيكفيه أن عمل له وعاش على الأمل الصادق بتحقيقه.

- قد يؤيدك الحق إلى حد كبير في آخر كلماتك تلك، غير أني سئمت رحلتي في مجابهة الأيام وعقباتها بلا زاد ولو حتى زاد معنوي، الحياة بلا هدف غاية في الإيلام يا شيخ (بهاء)، أشبه برحلة تعرف آخرها الأشبه ببدايتها القاتمة، وما عُرفَ آخره فقد الإثارة والرغبة في معايشته يا عزيزي، بات بلا دافع قوى لاستكماله أو الخوض في الباقي منه، والأكثر إيلامًا أنك مُجبر على استكماله، فقط لأن شريعتك تُحرم الانتحار!

قام (بهاء) من مكانه إلى ذلك الذي بدأت دموعه في التساقط، يربت على كتفه في حنان افتقده ذلك المتحدث كثيرًا طوال سنوات عهده بحياتيه المتناقضتين تلك قائلاً:

-أراك وقعت أخيرًا فريسة لمبالغات يأسك، لم يخطر ببالي يومًا أنك ستقف موقفك هذا، وأنت الذي طالما ربحت من معارك الأيام بمغانم تشهد عليها تدويناتك تلك التي نحفظها جميعا، وتثبت الأيام صدقها يومًا بعد يوم.

- كان هذا فيما مضى، الأيام خبيرة في تبديل أبنائها يا عزيزي.

- أتعلم يا (شريف)؟ كل ما تحتاجه فقط مدد يساعدك على الظفر بمعرتك تلك، مازلت طرفا بارزًا في أرض المعركة لم تطالك هزيمة دنياك بعد.

- ماذا تقصد؟

- أتذكر رغبتك القديمة في الزواج من (لبنى)؟

ضحك (شريف) ضحكة صغيرة أقرب للبكاء دون رد، قبل أن يأتيه تعجب (بهاء) من ضحكته تلك قائلاً:

-مثلي لم يُخلق للزواج يا شيخ (بهاء)، صاحب حياة متقلبة لم تعهد ولو يوما واحدا ينعم بالاستقرار منذ عاد إليها من حادث لا يذكر عن حياة ما قبله شيئًا، لا أراني أملك من مقومات الزواج ما يؤهلني للإقبال حتى على مجرد التفكير فيه، قد تكون رغبة قديمة لا زالت بذرتها داخلي، أبذل قصارى جهدي يومًا بعد يوم للقضاء عليها يومًا ما، لست من يناسب (لبنى) يا شيخي العزيز، (لبنى) بحاجة لمن هو في مثل نقائها، تبقى في ناظري الأقرب من بين من عايشت من بني البشر للكمال، أما عني، فلا أراني على نفس القدر من نقاء يضاهي ولو جزءًا من نقائها، ما بنجوم السماء تقترن ذرات التراب يا صديقي الشيخ.

- لا زلت لا أصدق أن تلك الكلمات ناطقها لسان ربَّت صاحبه يديّ هاتين، كيف بالله عليك لمثل هذا الكلام أن يقوله (شريف)؟

قالها (بهاء) وقد أمسك بملابسه معنفًا إياه مستطردًا:

- كأني بي أمام شخص غير ذلك الذي صاحبني لعقود، يبدو أنك بحاجة لراحة كبيرة تزيل عنك بعض ما أنت فيه، سأعود لحديث آخر يجمعنا حين تكون مستعدًا لتلقي نصائح مربيك المخلص يا بني.

أنهى (بهاء) كلامه، وقد ربت على كتف (شريف) منصرفا عنه إلى حيث ينعم ذلك الدامع ببرهة من الصمت، أو كما يسميها حديث النفس على أمل بلقاء آخر، ينجح خلاله ذلك الشيخ في تحسين الحالة المعنوية لصديقه الذي تربى على يديه..

أعطاه (بهاء) ظهره ومضى تاركًا إياه كما انتوى، غير أنه لم يمضِ غير خطوات معدودة على أصابع يد واحدة في نطاق الشرفة توقف بعدها، بعدما رأى (لبنى) قادمة بوجه غير الذي عرفها به الجميع، وجه تبدلت سماحته إلى غضب مشوب بحزن، تغيرت ابتسامته إلى استياء مخلوط بصدمة، وقد أمسكت في يمناها هاتف (شريف) النقال، مشيرة به إلى (بهاء) قائلة وهي تنظر إلى (شريف)، الذي اجتهد في تجفيف دموعه خفية:

- هل لك بالانتظار لدقائق يا عمي (بهاء)؟ أظنك بحاجة لسماع بعض الكلمات التي تحويها رسالة استقبلها هاتف ضيفنا الهمام.

كلمات أثارت استغراب ذلك الشيخ الذي دفعه استغرابه ذاك؛ لتساؤله بعدما نظر لـ(شريف) لثوان قبل أن يعود إلى حديثه مع (لبنى) قائلاً:

- أي ضيف تقصدين يا بنيتي؟

- وهل نستضيف إلاّ ضيفًا واحدًا يا عمي العزيز؟

- إن كنت تقصدين (شريف)، فليس إلاّ شريكا لثلاثتنا في هذا المترل يا عزيزتي، ماذا حدث؟ أنا لا أفهم شيئًا على الإطلاق، أي رسالة تلك التي تقصدين؟

- كان شريكًا كما تقول حتى وقت قريب يا عمي الشيخ، لكن يبدو أن الأيام ذات قدرة فائقة على تغيير الكثير من الأمور.

حديث استمر لدقائق يتابعه ذلك الـ(شريف) دون حراك، وقد أخذه شيء من الانقباض آملاً أن تخيب توقعاته، ناظرا للشيخ (بهاء) الذي أخذ الهاتف يقرأ رسالته، بعدما ضاق ذرعًا بهذا الغموض الكاسي للأجواء، بدأت قراءته في ذهول مسمعًا الحضور نص الرسالة قائلا:

- لقد تغير ميعاد التسليم يا (شريف) بعدما نما إلى علمي أن عيون الشرطة قد علمت بالميعاد القديم، انتظرك في الحادية عشر من صباح الغد في مكتبي، (البنهاوى).

انتهى (بهاء) من القراءة، وقد جحظت عيناه في ذهول محوِّلاً نظره إلى (شريف) الذي طأطأ رأسه متلقيًا استفسار (بهاء):

- ما، ما تفسير هذا الكلام؟

ظلَّ (شريف) بلا إجابة، وقد استمر تعلق نظره بالأرض قبل أن تتولى (لبنى) إجابة السؤال عنه قائلة:

- لا يحتاج الأمر اجتهادًا في تفسيره يا عمي (بهاء)، قادتني الأقدار لسماع هاتفه الذي تركه بالخارج، وحين هممت بإحضاره له انتبهت

لاسم المتصل فإذا به (البنهاوى)، ذلك الذي أرسل له تلك الرسالة بعدما فقد الأمل في رده، دفعني فضولي لقراءتها لتكتشف الأمور على حقيقتها تمامًا الآن، خان (شريفنا) الأمانة ومد يده لتعاون مشبوه مع عدونا الأول الذي كان السبب الأول في موت والدي وقلب حياتنا رأسًا على عقب.

صمتت قليلاً قبل أن تتجه بكلامها إلى (شريف) قائلة بنبرة قد غلب عليها هدوء الحزن اللائم إلى حد كبير قائلة:

- أتعلم يا (شريف)؟قبل سنوات من الآن طالما شهدت هذه الشرفة جلساتي وحدي أناجى ذكرياتنا معك، في يميني تتكدس أوراقك الشاهدة على سنوات من الكفاح النقي بلا شائبة من عمل مشين، لأي حين تنشغل يسراي بتجفيف عبرات لعينين أرهقتهما قراءة سطور ذلك الحكيم الذي افتقدناه، بعدما شهدنا حكايات هذه الكلمات عيانًا بيانًا، غير أنها سرعان ما تفقد الأمل بقدرتها على السيطرة على دموع لا ينقطع سريانها، انظر لهذا الشيخ هنا، كان الشاهد الأكبر على سنوات من العذاب الذي نال مني في فترة هي الأصعب بين سنوات عمري على الإطلاق، فقط لأني افتقدت خلالها من ظننته المثل الأعلى في حياة لا يلاقى فيها أهلها الجديرين بهذا اللقب كثيرًا، لا تزال آثار كفىّ عمى (بهاء) الماسحة لدموعي على خدي أشعر بدفئها إلى اليوم، ربَّانا سويًا على السير في درب الاستقامة الذي لا يعرف الاعوجاج، طالما صبرني بعودتك يومًا حيث تجمعنا من جديد أيام

تعوضنا براحتها عن شقاء سابقاتها، لا أظنه كان على قناعة تامة بسلواه تلك إليّ، قالها يزيل عن كاهلي بعض همومه التي رآها بلا تغيير إلاّ من زيادة كادت تقصمه وهو الضعيف، غير أن الأمل لم يفارقني لحظة في عودة أنقى من شهدت عيناي بين سكان الحياة، كنت على قناعة تامة أن مكافحًا بمثل قوتك لا يمكن أن تكون نهايته بمثل هذا الغموض، أظنني الآن قد آمنت بامتلاكي قدرًا غير ضئيل من السذاجة الأقرب وصفًا بالغباء، قديما قرأت مقولة خطتها أحبار حكيم أظنه مرَّ بمثل صدمتي تلك ذات يوم، قال إن رؤيتك لشخص ما، تظل صافية صفاء الينابيع لامعة لمعان النجوم، حتى تلك اللحظة الفارقة في سبيل علاقتك به، حين تأبى الأقدار إلاّ إظهار حقيقته الجبانة وطبيعته المعتادة على السير على كل الحبال، حينها فقط تشعر بغبائك الذي تملك قدرًا كبيرًا منه، ها قد جاءت اللحظة أخيرًا، لا أعلم إن كانت متأخرة بعض الشيء أو لا.. لا يهمني ذلك التأخير إن تواجد على كل حال...يكفيني منه رؤيتي لجانبه المشرق، فأنا على شعور كامل براحة الضمير وقد منحناك الأمان الكامل لوقت غير قليل، كنت قبل ذلك على عهدي مع الأيام أن ذكراك لن تفارق خيالي ولو للحظة واحدة، وكيف لا وهى إن فارقتني فارقتُ لفراقها حياتي بأكملها؟ لا أظنني سأخلف ذلك الوعد على أية حال، قد تبدو ذكراك للكثيرين كغيرها ، مجرد ذكرى عابرة بين دفتي كتاب من الذكريات تسهو عنها ذاكرتنا البشرية القاصرة، أما عني، فأنها وإن تعلقت بشخص لم

يراودني الشك لحظة في فراقه، فستظل ذكراه على حالها من الثبات ، بعيدة كل البعد عن النسيان، لن أسجلها ككتابات كما فعل صاحبها قبل الآن ، وقد أثبتت الأقلام قدرتها الفائقة على التلون كما الحرباء، سأحفظها بين ألواح قلبي الصادق ، متوارية خلف أسوار تأبى الظهور، ليس فقط لقسوة شهدتها لحظاتها أو حزن حملته بين أيامها، وإنما فقط لأن مصدر القسوة ومنبت الحزن لم يكن أبدًا ضمن أسماء المتوقع غدرهم أو المنتظر إيلامهم، هؤلاء الذين كانت طعناتهم الأكثر إيلاما بين قريناتها الأقوى وقعًا بين مثيلاتها، فقط لأنها بخنجر طالما قادني ظني الساذج أنه لم يُخلق إلاّ للدفاع عني، لم يكن زرعك وردًا وحصادك شوكًا أيها الشريف الزائف، زرعت من البداية بذور الأشواك التي أدمت في نهاية المطاف كل الأيادي التي امتدت إليك بالري والرعاية، على كل حال لا أظنني بحاجة للمزيد من كلمات حديث لن يفيد الآن، لن تعبأ بالكلمات أو بقائلتِها ، كما لم تعد تعبأ بك أو بردودك قائلتُها، اذهب سامحك الله وجزاك بما تستحق.

أنهت (لبنى) حديثها، وقد بدأت دموعها تبلل خديها، تتساقط لمرآها دموع شيخها (بهاء) الذي كانت كلمات (شريف) التالية موجهة له قائلاً:

- ألاّ تريد إضافة شيء آخر أنت أيضا يا شيخ (بهاء)؟

- لا أظنك على استعداد لسماع المزيد، الحق ما قالته بنيتي (لبنى) ولا شيء دونه!

قالها ثم أدار عنه وجهه قبل أن ينظر (شريف) للأرض لحظات، عاد بعدها لختام الحوار قائلا:

- الله وحده يعلم أني لم أكن قط زارع الأشواك أو مدمي الأحباب، لكنها دنياي المتفننة في تعذيبي من حين لآخر، يومًا ما ستعرفون حقيقة ذلك الأمر الذي تسمونه خيانة، كل شيء بقدر وكل قدر بميقات، لا أعبأ إن كان هذا الميقات عاجلاً أم آجلاً، لكنها ثقتي في عدل الأقدار أنه آت لا محالة يومًا ما، لا أعلم أن كنتم سترونني بعد الآن أم يكون ذلك اللقاء هو اللقاء الأخير، لكنه رجاء واحد فقط أرجوه الآن، حين تظهر الحقيقة وتعلمون الخائن والأمين، عودوا إلى ذكراكم إليّ بالخير، فقط لأني لم أحمل لأحدكم ضغينة قط في عاميّ اللذين قضيتهما إلى جواركما، غير مكترث إن كنت حقًّا ذلك (الشريف) الذي عشقتموه أم لا، الوداع يا أعزائي.

(49)

غادر (شريف) المكان لا يعرف لمغادرته هدف ولا يعلم لهـــا مقصـــد، قادته قدماه ضالة الهدف جاهلة المقصد إلى ذلك الســـور الحديـــدي، حيث كورنيش الإسكندرية الذي اعتاد أمواجه في لحظـــات صـــمته واعتادته ذات الأمواج في ذات اللحظات، وقف ينظر بعين لا يـــرى صاحبها إلاّ ذكريات مضت، لا تعطى حين ترتبط ببعضـــها إلاّ تلـــك اللوحة الفنية القميئة والمقطوعة الفنية الناشذة، وهو بين قمائة لوحتـــه ونشاذ مقطوعته قد وقف، تعانق شفتاه ســـيجارته الـــتي تصـــاعدت أدخنتها في عشوائية أقرب ما تكون لأيام عاشها في حياتين لا علاقـــة تربطهما إلاّ شبهًا لا يجد له تفسيرًا، حتى لحظات وقفته تلك، تعلقـــت أنظاره بتلك الأمواج المتتابعة تارة في هدوء وأخرى في عنف، يرى في عنفها معاملة أيامه له، ويأمل مع هدوئها في تغيير تلـــك المعاملـــة إلى ضدها.

- إيهِ أيها التائه بين حياتيك، أنه الضياع مجددًا بعد لقاء لا تذكر أنك شهدت مثله في ماضيك، الفراق مجددًا بعد اجتماع لا تـــذكر أنـــك عايشت شبيهه في ما سلف من سنوات اندثرت أحـــداثها...خمســـة أعوام أو أقل قليلاً منذ ذلك الحادث اللعين، تعددت خلالها اللقـــاءات التي أنهاها فراق أحبة لشخصين لا تعلم إن كنت أحدهما أم لا، كثرت فيهما النزاعات التي أشعلها خصوم شخصين لا تعلم إن كنت أحدهما أم لا، فراق لأحبة ونزاع خصوم وأنت بين محبيك وخصومك متخبط

بين اقتناعك تارة أنك هذا المجرم أو ذلك الحكيم، وإيمانك أخرى أنك لم تصل يومًا لإجرام أولهما أو حكمة الآخر، لا زلت فاقـــد التفســـير لامتلاك محبيك في كلتا الحياتين دلائل دامغة لوجودك بينهم لســـنوات طالت لعقود، وإن فقد الطرفان التفسير الأمثل لتلك الصورة القديمـــة لعجوز ميت، وتلك الورقة القديمة لُمعاهد مجهول مفسرين غموضـــهما بسنوات غيابهم عنك، أهي حياة ثالثة تنتظرك بها أيامك في نهاية هـــذا الدرب فاقد التمهيد عديم الأنوار مجهول المصير؟

صمت قليلا بعد آخر كلماته تلك يطـــأطئ رأســـه وكفـــه الماســـك لسيجارته قد وضعه فوق رأسه، بعدما استند بكوعه على ذلك السور الحديدي، قبل أن يرفع رأسه مستطردا:

- يبدو أنك أوشكت على الوقوع فريسة لتخريفاتك أسيرًا لتوهماتك يا......يا ماذا؟ بما أناديك أيها المسكين بحق السماء؟ بما أناديك؟

- لنجعله (شريف) مؤقتًا إذن حتى يثبت عكس ذلك التخمين.

التفت متفاجئًا إلى ذلك المتحدث متعجبًا لسماعه همسه لنفسه الذي لا يكاد هو نفسه يسمعه قائلاً:

- (مهاب)؟

- لم يصل إلى علمي أنك سلكت طريق التدخين أيضًا، طريق آخر غير الذي عهدناك عليه قبل الرحيل.

- اعتد مني على كل ما هو غريب يا عزيزي، أنا شخصـــيا تفـــاجئني تصرفاتي إلى حد كبير من حين لآخر.

- كأنك بك تراني لأول المرات.
- أهو لوم جديد جئت تضيفه أنت أيضا؟
- أهكذا كان عهدك بي وعهدي بك يا (شريف)؟
- (شريف)!
قالها محدثًا بها نفسه قبل أن يعود من جديد إلى (مهـــاب) رادًّا علـــى كلامه:
- أمتأكد أنت أن من يحادثك الآن هو ذلك الصديق القـــديم الـــذي اختفى قبل أعوام؟ أم أن ظهور شبيه له قد ألهاكم حتى استبيان حقيقة الأمر؟
- دعني أصدقك القول، بعدما ظهر من أمر تعاونك مع (البنـــهاوى) بدأت الأمور تأخذ منحنى الاحتمال الثاني بصورة أكبر.
- لم أتعاون وهذا المجرم رغبة في حياة الجريمة التي أفقدتني أعـــزّ مـــن أملك من أصدقاء قبل الآن، هجرتها وأنا المالك لحياة الملوك مفضـــلاً حياة مشرد في شوارع القاهرة مرتاح الضمير على حياة ملك مجرم في وكورها بلا ضمير من الأساس.
-إليّ بتفسير إذن، واعلم أن دافع تتبعي لك ووقوفي الآن بين يـــديك هو فقط لإيماني الكامل أن صديقي لم يكـــن ليرتكـــب مثـــل تلـــك الحماقات، واعلم أن صديقي تلك تشمل العامين الأخيرين أيضًا.
- حسنًا، أتذكر حين زارنا (البنهاوى) فور ظهوري بينكم من جديـــد وطلب يومها زيارتي له في الصباح التالي؟

- زيارة لا تنسى بالتأكيد.
- حينها لبيت طلبه بالزيارة وأوهمني أنه يســـعى لتصـــفية خلافـــات سابقة، كانت بيننا مقدمًا تسهيلات عدة؛ كي تكون عودتي من جديد للساحة التجارية على خير ما يجب أن تكون عليه...لم أشـــأ حينـــها إخباركم بما كان بيننا خوفًا من معارضة أنا على يقين منها، لعله كـــان خطأي الوحيد حينها، لكني أبدًا لم أقصد إلاّ تلك العودة التي تكفل لنا جميعا حياة تليق، حياة تلائم حجم تجارة كانت ملئ الأسماع والأبصار، بدأها ونمّاها وأرادها أبوك الراحل طوال عقود.
ابتسم (مهاب) من طيبة مخاطبه التي يعرفها مسبقًا، غير أنـــه أبـــدًا لم يتوقع بلوغها حدًا يؤدي به للوقوع في مثل تلك الهاوية، قبل أن يكون ردّه:
- تخليت عن قدر عظيم من ذكائك إلى طيبتك يا عزيـــزي، غيرتـــك سنوات الغياب بشكل ملحوظ، لا بأس، وماذا بعد؟
- استمرت تجارتنا وقتًا لا بأس به يسمح بتراكم قدر مـــن الـــديون أعجز عن رده، بعدما كسدت التجارة في مخازنها، بعدما عـــرض هـــو مثل البضاعة بثمن أقل من ذلك الطبيعي الذي قرنته أنـــا بالبضـــاعة، وعليه فقد....
- فقد أجبرك على مشاركته في أعماله غير القانونية حتى قضاء دينك، أليس كذلك دارت بقية أحداث اللعبة؟
- لا يبدو عليك علامات التصديق.

- ليس بالضبط، لا سبيل أمامي أسلكه إلاّ تصديقك على كل حال.

- أنت مُجبر على التصديق إذن!

- تعلم جيدًا أن صفة مُجبر تلك لم ترد في قاموسي قبل الآن، أكرهها وتكرهني يا صديقي، بل وبشدة.

- لماذا تبعتني إلى هنا يا (مهاب)؟

- جئت أساعدك، أوفي حقا لصداقة كانت بيننا، وكل أمنيتي أن يُعطر الصدق التام كلامك كله؛ لتدوم تلك الصداقة إلى حيث نلتقي في عالم آخر بعد زمن لا يعلمه إلاّ الله، فقط اثبت لي صدق كلامك؛ لأتمكن من مساعدتك دون أدنى غضاضة شك أحملها في سردك لي.

- جئت تخوض تجربة تحتمل من وجهة نظرك النجاح بصدقي أو الفشل بكذبي إذن يا عزيزي، أليس كذلك؟

- بل دعنا نقل أن مجيئي كان لإثبات نجاحها بصدقك يا صديقي.

صمت (شريف) حينًا، يتدبر كلام (مهاب) في تمعن، ناظرًا للأرض لثوان قبل أن يستكمل الحوار بقوله:

- حسنًا، في رأسي خطة ستقضي إن نجحت على جميع التكهنات، في تنفيذها نهاية (البنهاوى)، بل ونهاية خصم قديم لا زال الثأر منه يؤرقني حتى اللحظة، لعل الظروف قد هُيأت الآن لاستعادة مسلوب الحقوق من كليهما.

تعجب (مهاب) من آخر الكلمات تلك متسائلاً:

- خصم قديم؟

- لا تتعجل الأحداث يا صديقي، تعرف كل شيء في موعده المناسب، دعني الآن أطرح عليك فكرتي.

-حسنًا يا (شريف)، إلى أسماعي بما في رأسك.

(50)

لا زالت حالة الصدمة المشوبة بالحزن تسيطر بقوة على (لبنى) وعمها (بهاء)، جلست في شرفتها تحاصرها أفكار عدة أحاطها التناقض، لا تعلم لتلاقيها سببًا إلاّ تلك الحالة العجيبة من تخبط، فرضه عليها موقف تلك الليلة حيث رحيل (شريف)، في حين اتخذ الشيخ (بهاء) من كرسي في منتصف المترل متكأ له، يحيطه خليط من أفكار أخرى، وإن كانت السمة الغالبة هي ذات التناقض المميز لأفكار (لبنى)، انتبها سويًا لتلك الطرقات على باهما قاطعة أحبال أفكارهما الممتدة عبر ذهنين أتعبتهما تفكيراهما، قام الشيخ (بهاء) يستكشف هوية الطارق فاتحًا الباب قائلاً:

- بماذا أستطيع أن أخدمك يا سيدي؟

- أنا الضابط (مازن السيد) من مباحث القاهرة، جئت لمقابلة السيد (شريف) أليس هذا محل إقامته؟

- كان مقر إقامته حتى قبل قليل، تفضل يا سيدي، تفضل بالدخول أنا في مقام والده، قد أفيدك بما تريد الإفادة به.

لبَّى (مازن) دعوة (بهاء) بالدخول، حيث مجلس انضمت إليه (لبنى) بعد سماع اسم (شريف) مسبوقا بلقب (ضابط) ومباحث..

- قد تتعجبون من زيارة ضابط لمترلكم وأنتم غير المعتادين على مثل تلك الزيارات، غير أن مترلكم قد ضم في الآونة الأخيرة من هو جدير بزيارات متكررة لأمثالي.

- نعلم ذلك تمام العلم يا حضرة الضابط، وقد غادر قبل قليل لهذا السبب الذي ذكرت بعد اكتشافنا حقيقة الأمر.

- هل أخبركم بحقيقة نشاطه الإجرامي؟

- بل اكتشفناه نحن مصادفة..

صمت (مازن) حينًا، وكأنه لم يتوقع أن يغادر (شريف) قبل مجيئه، وكأنه كان على علم بمثل تلك الزيارة؛ فآثر تحاشيها غير أنه استطرد قائلاً:

- لعلكم علمتم ما كان من أمر (عبد الرحمن) أو كما تطلقون عليه (شريف) من نشاط إجرامي لصالح (سعد العامرى) منذ عودته لمسرح الأحداث قبل خمسة أعوام، تلك العودة التي استغرقت ثلاثة أعوام، قبل أن يختفي من جديد قبل عامين بعد مقتل صديقه (العوضي)، وبالطبع كان ذلك الاختفاء في جلباب ذلك (الشريف) الذي اختفى أيضًا من حياتكم قبل أعوام.

- بالضبط يا حضرة الضابط، أخبرنا عن كل تلك التفاصيل في بداية لقاءنا به قبل ما يقارب العامين.

تعجب (مازن) من قول (بهاء) وقد اتسعت عيناه متسائلاً:

- أخبركم؟ ألم تقل قبل قليل أنكم اكتشفتم ذلك بالمصادفة؟

فطنت (لبنى) أن ذلك الضابط لم يعلم بعد عن نشاط (شريف) مع (البنهاوى)، وإنما قصد ما كان من عمل سابق له تحت مسمى (عبد الرحمن)، والدليل أن كلامه لم يتضمن قطّ ذلك العمل الإجرامي خلال

حياته الثانية إلى جوارهم، بل إنه حتى وصف انتقاله للإسكندرية بالاختفاء، أفكار سريعة في رأس (لبنى) لم تتجاوز ثوان كانت كافية لتتدارك الموقف سريعًا بقولها:

- ما يقصده عمي (بهاء) أنه لم يخبرنا بكافة تفاصيل حياته الإجرامية السابقة، فقط بعض المواقف العابرة حين سألناه عن سنوات اختفائه.

- حسنًا، لكني لا أظنه أخبركما أنه قاتل لقتيلين.

هالت الكلمات (بهاء) و (لبنى) ؛ فقام على أثرها (بهاء) فزعًا يتساءل في هلع:

- ماذا؟ قتيلين؟

- نعم يا سيدي، كان هذا قبل اختفائه مباشرة، وبكل أسف لم أعلم بذلك إلاّ بعد اختفائه، ومن يومها وأنا أبحث عنه بين كل أماكن له التواجد بين جدرانه من أحياء القاهرة دون جدوى، حتى أخبرني أحد زملائي بمباحث الإسكندرية أن عيونه قد عثرت على شخص بمثل المواصفات التي أبحث عن صاحبها؛ فكان مجيئي إليه للتأكد من صحة ما وصلني من معلومات حول جديد ظهوره.

لم يجد (بهاء) و (لبنى) من الردود ما يناسب تلك المفاجأة إلاّ بعض النظرات المصدومة لبعضهما البعض دون حديث في حين استطرد (مازن) حديثه قائلاً:

- يبدو أن في حديثي ما أظهر بعضا مما أخفاه (عبد الرحمن) عنكما طوال إقامته هنا، لكن هل لي ببعض من المعلومات حول طبيعة العامين السابقين اللذين قضاهما بين ظهرانيكم تحت اسم (شريف)؟

تولت (لبنى) الحديث من جديد عن عمها (بهاء) قائلة:

- لا أظن ما نملك من معلومات ذا أهمية لتحريات الشرطة يا سيد (مازن)، ليست إلاّ أيام عادية لتاجر قائم على تجارة والدي رحمه الله، لكنها بعض الاختلافات في وجهات النظر انتهت أخيرًا برحيله عنا قبل مجيئك.

لم يعد أمام (مازن) الآن ما يبقى لأجله، جاء لخصم اختفى عن كواليس حياته قبل عامين، لكنها الأقدار التي أبت مواجهتهما، أو بمعنى أدق أجلت تلك المواجهة إلى ميعاد تسبقه المزيد من أحداث تشبه في سخونتها كثيرًا سابق الأحداث إن لم تفقها:

- حسنًا يا آنسة (لبنى)، حسنًا يا سيد (بهاء)، أظن وقت انصرافي قد حان الآن، هذه أرقامي أرجو أن نكون على اتصال إن عاد ذلك الهارب للأحداث من جديد.

كلمات قالها (مازن) قائمًا من على مقعده يناول (بهاء) ورقة مخطوط بها أرقامه التي سلف وذكرها قبل أن يجيبه (بهاء) قائلاً:

- بكل تأكيد يا حضرة الضابط، ستكون على علم بكل جديد إن شاء الله.

- أتمنى ذلك يا سيد (بهاء)، استأذن بالانصراف.

انصرف (مازن) يصحبه (بهاء) إلى الباب تتبعهما عينا (لبنى)، تلك التي ظل نظرها متعلقا بعمها (بهاء) الذي التفت لها بعد توصيل (مازن) بقوله:

- لم تبلغيه عن نشاطه الحالي مع (البنهاوى) رغم كل ما كان..

أشاحت (لبنى) بوجهها عنه بلا رد فكان استطراده:

- كنت على يقين أن مكانته لا زالت ذات قيمة داخلك يا بنيتي، مازال يعنى لك الكثير، على أية حال لا أستطيع لومك وقد كان لي نفس رد الفعل، أنه خلود ذكراه بيننا يا عزيزتي رغم أنف الجميع رضينا أم أبينا.

لا زالت صورة (لبنى) كما هي بلا قدرة على الرد، وقد ظلت هيئتها على حالها من الثبات لثوان، حتى سبقتها دموعها دافعة إياها للإسراع إلى حجرتها، حيث انفراد جديد بآهات قد عهدتها كثيرًا في غياب ذلك المذكور، وها قد عادت لمثلها من جديد بل أشدّ، تفكر في كلام عمها الذي لامس جدارًا بارزًا للحقيقة بين جدران قلبها لم ولن تستطيع لبروزه إنكارًا.

(51)

كان صباحا غلبت عليه لمسات شمس حارقة استاء لشدتها رواد شوارع القاهرة كثيرًا، غير أن استيائهم ذلك قد نحوه جانبًا وهم المقبلون على يوم جديد اعتاد المصريون على شقاء عمله الذي ينسيهم عادة شدة حرارته، الأمر ليس سواء للجميع على كل حال، ما زالت هذه الفئة من العاطلين تشكل شائبة لينبوع النشاط المتدفق من بيوت القاهرة إلى شوارعها مع إطلالة كل صباح..اتخذوا مكانهم المعتاد جلوس على كراسي مقاهيها في انتظار الفرج كما تحفظ ألسنتهم ولا تعقل ألبابهم، حتى يطول حبل الأيام لسنوات وانتظارهم على حاله كما هو بلا جديد.

لم يكن الحال لعمال هذه الوكالة يحمل اختلافًا كبيرًا عن أقرانهم في باقي الأنحاء، اتخذ كل منهم مكانه الذي ألفه وألف عمله منذ سنوات، في حين يجلس في صدر الوكالة صاحبها على مكتبه، الذي بات جزءًا منه كأنهما خُلقا سويا في هيئته المعتادة لناظريه من إمساك لشيشته وإحراق لأنفاسها بلا عمل مميز إلاّ من إعطاء الأوامر وانتظار تنفيذها، تعلق نظره بذلك العامل الذي بدت عليه ملامح العراك مع الأيام جلية، يفطن لها أجهل الرائين، وقد بدا عليه أنه جاء لسيده يريد الحديث إليه:

- سيدي، أحدهم يريد مقابلتك.

- أحدهم؟ ألم ترَه من قبل؟

- لا يا سيدي، لم أره قبل الآن، قال فقط إنه قادم من الإسكندرية يريد مقابلة المعلم (جابر الصياد) لأمر هام.

- حسنًا، دعه يدخل لنرَ ما وراءه!

- أمرك يا سيدي.

دقائق وكان السائل واقفًا أمام (جابر)، ذلك الذي اختفى من مسرح الأحداث مدة غير قليلة، وإن كانت أعماله المشبوهة لا زالت على حالها مع بعض التأثر برحيل (شوقى) أحد أبرز رجاله مقتولاً قبل عامين.

- أنت المعلم (جابر الصياد) أليس كذلك؟

- طلبت لقاءي، بماذا أستطيع خدمتك؟

- أنا (مهاب) أحد رجال المعلم (عبد التواب البنهاوى) أحد كبار تجار الإسكندرية، لعلك سمعت به من قبل.

- نعم نعم، تردد على آذاني هذا الاسم من قبل عدة مرات، غير أنه لم يُقدر لنا العمل سويًا قطّ قبل الآن.

- لعل الفرصة قد حانت إذن لمثل هذا التعاون يا معلم (جابر).

قول استقبله (الصياد) بابتسامة عريضة أتبعها بقوله:

- لكن معلوماتي تقول إن (البنهاوى) تاجر أخشاب، وأنا تاجر قطع غيار سيارات، لا أرى سبيلاً للتعاون يا عزيزي، وإن كنت أتمنى ذلك بالتأكيد.

ضحك (مهاب) ضحكة صغيرة يطأطئ رأسه لها في سخرية، تعجب لها (جابر) قبل أن يستطرد ذلك الضاحك كلامه من جديد قائلاً:

-ما لمثل هذا التعاون جئتك يا سيدي.

عقد (الصياد) حاجبيه إمعانا لتلك الهيئة المتعجبة التي استمرت ملامحه عليها حينا يتساءل قائلاً:

- ألاّ تفصح عن مراد زيارتك سريعا أيها الغريب؟

- حسنًا يا معلم (جابر)، هل لي برأيك عن هذه؟

قالها يسلمه لفافة صغيرة بقدر إصبع وسط ذهول (الصياد) الذي حدَّق في زائره مستغربًا من جرأته، غير أنه التقطها منه سريعًا يتفحصها قائلاً:

- أمثل هذا التعاون تقصد؟

- لا أظنك بحاجة لمثل هذا السؤال الآن يا سيدي، اتضحت الأمور الآن تمام الاتضاح.

صمت (جابر) حينا ثم كان رده:

- يبدو أن أعدائي لا يزالون يجتهدون في تشويه صورتي بكل أسف، انصرف يا عزيزي وواجب الاستضافة أني سأتركك تنصرف بلا متاعب، جئت للحليف الخطأ.

- يبدو أنك كما قيل عنك يا معلم (صياد)، رجل صعب المنال إلى حد كبير، غير أن ذلك الحرص الزائد، قد يحرمك من تعاون من

الممكن أن يُدِرَّ عليك الكثير من فرص لا تتكرر كثيرًا في حياة أهل هذا المجال الذي ننتسب جميعًا إليه.

- إن كنت تقصد مجال اللاشرعية فلك كل الحق في الافتخار بكونك أحد مواطنيه مع سيدك، غير أنه ليس من حقك اقرأني بأهله يا عزيزي.

- يبدو أن نقاشنا سيطول وقتا أكثر مما توقعت، اسمع يا معلم (جابر)، قد يكون تخوف طبيعي من كونه كمينا للشرطة أو ما شابه، توقعت منك هذا على كل حال، لا يدل إلاّ على حيازتك قدرًا كبيرًا من الحرص تتطلبه تجارتنا تلك بشدة، لن نخوض في أي شيء قبل أن تشهد بنفسك أدق التفاصيل.

- ماذا تقصد؟

- أوصاني المعلم (عبد التواب) بدعوتك لزيارته؛ لتشهد بنفسك كل شيء من مكان وصول البضاعة وحتى وكر تسليمها، لا أظن الشرطة تهاجم شخصًا يستضيف آخر، ليست إلاّ زيارة عادية بين صديقين.

استمر صمت (الصياد) حينا يفكر في كلام (مهاب) حتى استأنف حديثه من جديد قائلا:

- حسنًا، دعني أدرس الأمر أولاً.

- جئت لأخذ ميعاد محدد، وليس لأخذ موافقة مبدئية يا سيدي، تذكر أنها زيارة وحسب، لم نرتقِ لمستوى التعاون بعد.

-حسنا، لا بأس

- ماذا عن التاسعة من مساء الخميس القادم؟ وهذا هو العنوان بالتفصيل، إن شئت أرسلت إليك من يقودك إلى المكان.

- وهو كذلك.

- ممتاز، حان موعد انصرافي الآن يا سيدي وقد أنهيت مهمتي التي كلفنيها معلمي (عبد التواب)، وبانتظارك في الميعاد، أما عن تلك اللفافة بين يديك؛ فاعتبرها مجرد عربون صداقة أتمنى قبولها.

- هدية مقبولة يا عزيزي، أبلغ تحياتي لسيدك.

(52)

لا زالت هذه المقابلة المشابهة لمقابلة القاهرة علــى انعقادهــا في ثــاني عواصم المحروسة حيث أرض الإسكندرية بين طرفين مختلفين، وإن كان محور الحديث هو نفس التعاون الذي شهدت أولى المقابلات الاتفــاق على إتمامه.

- لكن هل أنت متأكد يا (شريف) من أن تعاون مع مثل هذا الرجل (جابر الصياد) سيأتي بثمار نرجوها؟ لسنا بحاجة لخسائر لا حاجة لنــا بها ولا نعلم مداها، خاصة إن كانت خسائر بلا تعويض كما هي عادة خسائر ذلك المجال.

- كن على أقصى درجات اطمئنانك يا معلم (بنهاوى)، كمــا قلــت لك قبل قليل، عملت معه أغلب سنوات غيــابي عــن الإســكندرية، التعاون مع (جابر الصياد) لا يعترف إلاّ بالربح، الربح وحسب.

- حسنًا، لا بأس من عملية صغيرة ننتظر ما ستسفر عنه مادمت على تلك الثقة الكبيرة، ربما قادتنا تلك العملية لتعاون أكبر، اعمل علــى الوصول إليه وأطلعني على كل جديد أولا بأول...كن فقــط علــى حذر كاف من كل خطوة تخطوها.

- تم ذلك بنجاح يا سيدي، ألقِ نظرة على هذه.

قالها وقد ناوله لفافة مماثلة لتلك التي أوقع بها (مهاب) (جــابر) مــع استغراب (البنهاوى) الذي تناوله منه يعاينها متسائلاً:

- ما هذه؟ وماذا تقصد بتم تلك؟

- إنها عينة من البضاعة التي سنحصل عليها منه في حال تم تعاوننا معه بشكل ناجح، أصررت على الحصول عليها منه أثناء لقائي معه قبــل يومين.

- ماذا؟ لقاءك معه؟ هل قابلته؟

- نعم، زرته قبل يومين في زيارة ودية، وحــين تطــرق الحــديث إلى إمكانية عملي إلى جواره من جديد، غير أني أخبرته بالعمل لصــالحك الآن؛ فتساءل عن إمكانية التعاون الذي حدثتك عنه قبل قليل.

صمت (البنهاوى) حينا يفكر في كلام (شريف)، قبل أن يرمقه بنظرة غريبة أنهاها بقوله:

- بدأت تضيف النشاط إلى عملك بشكل ملحوظ يا عزيزي وكأنك قد بدأت تحبه فجأة، حتى أنك بدأت تدير عمليات بمفردك.

- لو كان الأمر بيدي ما بدأت هذا العمل من الأساس كما تعلم، غير أني أردت إبرام صفقة هيأت الظروف خطوطها العريضة، فكان لابــد من الوصول لأقصى استفادة ممكنة، هكذا علمنا مجــال الجريمــة يــا عزيزي.

- أصبت يا (شريف)، أصبت، دعنا نعود من جديد للمهم، ماذا عــن بقية تفاصيل تلك المقابلة التي جمعتك وهذا الــ(جابر)؟

- قال إن بإمكانه أن يُوَرِّد لنا كمية صغيرة في البداية على أن يزيــد التعاون تدريجيًا أن كلل النجاح أولى التجارب.

- ومتى برأيك يكون هذا الاتفاق؟

- ماذا عن الخميس القادم؟

- حسنًا، لا مانع من ذلك.

- وهو كذلك...ليكن إذن في التاسعة من مساء الخميس، أظنها مهلة كافية لتدبير المبلغ المتفق عليه.

- لا تقلق بشأن المال، دعنا نتم ذلك الاتفاق مادمت تراه سيجلب لنا خيرًا.

(53)

لم يعد أمام الطرفان الآن إلاّ انتظار تلك الساعة التاسعة التي أعد لها (شريف) باقتدار بمساعدة (مهاب)، ها قد تمكن أخيرًا من الجمع بين خصمين طالت مؤامرتهما ضده وطال عناءه من تلك المؤامرات، كلاهما يظنه خصمًا مختلفًا، وإن كان لم يعد مهتمًا كثيرًا بمن يكون أو كيف بدأت صراعاته تلك مع خصميه أو حتى لماذا حيكت مؤامرتهم ضده، كل ما يشغل تفكيره الآن هو الجمع بينهما؛ لتصفية حسابات ضاقت بها دفاتر ذهنه التي تكدست بذكريات خمس سنوات لا غير.

حانت الساعة أخيرًا وتركزت الأنظار حول هذا الوكر الذي وصله (جابر) مبكرًا يصحبه (مهاب) الذي استأذنه قليلا متعللاً بإجراء اتصال تليفوني، لم ينتظر (الصياد) كثيرًا حتى تعلقت عيناه بذلك الباب الذي انفتح كاشفًا عن رجل غطته عباءته السوداء وعمامته بنفس اللون وقد توسطهما وجه برز شاربه بقوة مرحبًا بضيفه قائلاً:

- لابد أنك المعلم (جابر)، أليس كذلك؟

- هو بعينه يا عزيزي، أنت المعلم (عبد التواب)، أليس كذلك؟

- أصبت، أخبرني (شريف) بعمق علاقته بك وثقته الكاملة في نجاح التعاون معك في مستقبل علاقتنا القريب.

عقد (جابر) حاجبيه متعجبًا من ذلك الاسم الذي يسمعه لأول مرة في حياته، بل وإن مضيفه يزعم أن علاقته بصاحب الاسم وطيدة أيضًا مما دفعه لتساؤله القائل:

- (شريف)؟ (شريف) مَنْ؟

- يقصدني أنا يا معلم (جابر).

رد جاء فجأة من ذلك الذي ظهر فجأة على أعتاب المكان، وقد استند بظهره على الباب في برود ناظرًا إلى (جابر) منتظرًا وقع رؤيته عليه، وقد شرع في إشعال سيجارة إمعانا في إظهار عدم الاكتراث بطرفي الحديث، لم يكن عليه الانتظار كثيرًا على أية حال ليرى تلك الهيئة المصدومة التي جحظت عينا صاحبها متسائلاً بلسان كادت تخرسه المفاجأة للأبد قائلا:

-عب....عبد الرحمن؟

تولى (عبد التواب) الإجابة وقد حارت نظراته بين الاثنين موجها كلامه لـ(جابر) قائلا:

- أي (شريف) ذلك الذي تتحدث عنه؟ رجلك الذي جاءني في القاهرة يسمى (مهاب) وقد صحبني إلى هذا المكان اللعين قبل قليل.

- (مهاب) ؟!

- في هذه المرة أنا المراد يا سيد (عبد التواب)؟

رد جاء من رابع انضم للحديث يقف بجوار صديقه قرب الباب يتبادلان الابتسامات بنجاح مخططهم ، قبل أن يخطو (شريف) عدة خطوات للداخل يتبعه صديقه (مهاب) قائلاً:

- حسنًا يا صديقي العزيز، دعنا نزيل ستائر الغموض التي أعمت أعين السادة عن حقيقة الأمر، قبل عدة أيام يا معلم (جابر) جاءك هذا

الـ(مهاب) الذي تراه زاعمًا أنه من رجال (البنهاوى) ودعاك لزيارة تعارف قبل بدء عمل وشيك بينكما، في حين كانت جلستي مع الطرف الآخر السيد (البنهاوى) أوهمته فيها أن سنوات غيابي عن الساحة قد زخرت بعملي إلى حساب أحد كبار تجار القاهرة يُدعى (جابر الصياد)، ولأن السذاجة قد نالت من عقليكما قدرًا لا بأس به، فها أنتما الآن في موقف انتظرته طويلاً حيث ننهي كثيرًا من الأمور المعلقة، أو كما يُطلقون عليها، تصفية حسابات.

-يا (عباس)، يا (على)!

استغاثة من (البنهاوى) لأحد رجاله آملا في إنهاء تلك اللحظات التي يراها سخيفة كأنها كابوس غير أن استغاثته تلك قابلها (شريف) بضحكة مدوية شاركه فيها (مهاب) قبل أن يقول:

- لست بحاجة لاستغاثة لن يسمعها غيرنا أو يعبأ بها غيرك يا سيد (بنهاوى)، أخبرت كل الرجال بالانصراف بناء على أوامرك، فالترحيب بالضيف الجديد لا يحتاج لكل هذه الحراسات، إما عن رجليك يا معلم (بنهاوى) فكان لابد من عمل الواجب معهما، أوصيت رجال (البنهاوى) بإكرامهما بسهرة لا يعرف النسيان إلى ذكراها في ذهنيهما سبيلاً، ولا أظن الجميع يعود قبل الصباح، أي أننا الآن بمفردنا نحن الأربعة في هذا المكان، بل وفى محيط يتسع لكيلومترات.

- ماذا تريد يا (شريف)؟

- لا داعي لذلك الاسم الآن يا معلم (بنهاوى)، قد يضيف المزيد من الغموض لأفكار السيد (جابر) وقد عرفني باسم مختلف، سأعطيك إجابة سؤالك الذي تريد، لكن قبل إجابتي سؤالك أريد منك أولاً إجابة سؤالي.

- أي سؤال؟

- أنت من أجبرتني بتآمراتك على العودة لطريق الجريمة ذلك، بعدما تراكمت ديونك عليّ أثر تلاعبك بي، بعدما خفضت سعر البضاعة المماثلة لتلك الموجودة في مخازني، مما دفع الجميع للجوء لسعر بضاعتك الزهيد، أليس كذلك؟

- هل عملت إلى جواري ما يقارب العامين دون أن تعرف لبدء عملك سببًا يا عزيزي؟ ظننتك أكثر فطنة من هذا كثيرًا.

قول قابله (شريف) ضاحكًا يسخر من سذاجة خصمه قبل أن يستطرد قائلا:

- بل إني الآن تيقنت أنك أكثر غباء مما ظننتك بكثير، تأكيدك هذا لكلماتي ليس إلاّ إثباتا لبراءة ينتظر سماعها هذا الـ(مهاب) وقد نالها الآن أخيرًا.

- ألمثل هذا السبب التافه أتعبت أفكارك لترتيب مثل هذا الجمع؟

- ألم أقل لك إنك أكثر غباء مما ظننتك بكثير؟ لا بأس، سأهبط بمستوى الحوار قليلاً حتى يلائم فهمكما القاصر ذاك، قبل أي شيء هناك القليل من حقائق قد لا تعرفاها، أو بالأحرى لم تعبئا بمعرفتها، قد

تتعجبان إن علمتما أن عمري الفعلي في هذه الحياة لا يتعدى الخمسة أعوام، أي رجل بعمر طفل، وإن كانت سنوات لم تشهد المعتاد من مرح الطفولة ورفاهيتها أو بناء الرجولة وإنتاجه، وقد كستها تمامًا من الأحداث ما لا تسع سرده جلسة كتلك التي تجمعنا الآن، نكبات وأدت زهور طفولة لا أذكرها وأزمات اغتالت أطيار رجولة ضللت الطريق بين دهاليزها، خمس سنوات أيها السادة، خمس سنوات كانت كافية بشكل ما لا أستطع فهم لغزه حتى اللحظة أن تقحمني في حياتين طال بحثي عن ذكرى واحدة ليوم ضمته أحداها دون جدوى، كل منكما قد عرفني كخصم في أحداها، تارة (عبد الرحمن) ذلك المجرم المحترف الذي اتخذه المعلم (جابر) عدوه الأول، وتارة أخرى (شريف) ذلك التاجر المحنك الذي كان لـ(البنهاوى) منه ذات موقف (الصياد) مع خصمه، وبين الخصومتين ظل هذا التائه بين اسميه الماثل أمامكما الآن لا يذكر لتلك الخصومات بداية ولا يعلم لتلك العداوات سببًا، فقط سير مع التيار قنعته به طيبته البالغة حد السذاجة، لم يكن من الحكمة حينها كما تبادر لذهنه أن يعارض سير حياتين أراد إقناع نفسه مرارًا أنه البطل في كل منهما، قد أتحمل الجانب الأكبر من مسؤولية الأحداث، قد يتحمله المقربون مني في حياتيّ هاتين، (العوضي)، (العامرى)، (لبنى)، (بهاء)، أو حتى ذلك الشاهد الرابع معنا الآن للحديث (مهاب)، لكن وإن توزعت أركان المسؤولية على أطراف عدة، فلا أراكما ذوي كفوف بيضاء لم تتلوث بمشاركة كبيرة في

تسطير صفحات المأساة، حياة غامضة أضاع أحدكما نصفها وتكفل الآخر بضياع ثاني النصفين، وأنا بين نصفيها قد منَّت عليّ أقداري أخيرًا بحديث انتظرته كثيرًا، حتى فقدت الأمل في انعقاده في كثير من الأوقات.

- عرض جيد يا عزيزي، لا أملك إلاّ تهنئتك بأدائك المُتقَن في تقديمه.

قول أتبع به (الصياد) كلام ذلك المسكين الذي طأطأ رأسه ضاحكا قبل أن يكون رده:

- أسوق إليك خالص شكري يا سيد (جابر)، لعلك تتعجل إجابة ذلك السؤال الذي سأله (البنهاوى) قبل قليل.

- ذلك أفضل للجميع من تلك الأفلام السخيفة عديمة القديمة.

- حسنًا، إليكما ما أريد ما دمتما ترغبان في إنهاء الحديث.

قالها وقد أخرج مسدسًا وجَّهه إليهما، قبل أن يقف (مهاب) في وجهه مانعًا إياه منحيًا يده متسائلاً في ذهول:

- ماذا تفعل يا (شريف)؟ أجننت؟

- جننت؟ حسنًا، اتهام جديد يلائم فقد الذاكرة كثيرًا.

- لم أساعدك لتلقي بنفسك في المهالك يا صديقي، لم ينص اتفاقنا على هذا البند قطّ، أسمعتني ما أود سماعه حول حقيقة ما حدث وانتهى الأمر.

- اتفاقنا أتممناه بنجاح وانتهى باجتماعنا بين هذه الجدران، أما ما بعد ذلك فهو من صميم تدبيري أنا وحدي.

- أتعتبر القتل أذكى التدبيرات؟

- ليس قتلاً لمجرد القتل يا عزيزي، إنما ثأر لابد منه، ثأر لصديقي (العوضي) من أحدهما وثأر لأبيك من الآخر، ابتعد عن طريقي يا (مهاب) بالله عليك، قد يطالك ما أكرهه، ولا أظنني بحاجة لخطوة جديدة يطالني الندم على خطوها.

- لن أدعك تخطوها أو تخطو غيرها يا (شريف).

حديث طال بين الصديقين أقبل (الصياد) و (البنهاوى) على استغلاله في الهرب قبل أن تطالهما عينا (شريف) الذي أزاح (مهاب) بقوة قائلاً:

- سأخطوها إذن رغما عنك يا عزيزي.

قالها وقد قويت ضغطتا إصبعه بشدة على زناد المسدس فكان ذلك الصوت الذي دوى بين أرجاء المكان كاسرا حاجزا من الهدوء امتدت رقعته حول ذلك الوكر على مسافة لا بأس باتساعها.

(54)

لم تكن إقامة (مازن) في الإسكندرية تلك الهادئة المقتصرة على هذه الزيارة القصيرة لـ(بهاء) و (لبنى)، لم يقصر تحرياته فقط على تلك الدقائق التي قضاها في حديثه إليهم، كانت جلسته في مكتب صديقه الضابط من مباحث الإسكندرية شاهدة على جانب كبير من حيرته من أمر ذلك الرجل ذي الاسمين صاحب الحياتين عدو الخصمين فاقد الذاكرة..

- نال ذلك الهارب من تفكيرك كثيرًا يا صديقي.

- صدقت يا (على)، صدقت، ليس هاربًا اعتياديا قط، رجل ذا حياتين غنيتين بأحداث لا تشهدها عشرات الحيوات، وأني وإن كنت له مطاردًا أتوق لإنهاء تلك الحكاية، فلا أنكر أبدًا إحساسي أن قصته لا زالت تشهد الكثير من أحداث ستفاجئ الجميع.

- أنا أيضا لا أخفي استغرابي من قصته التي سردها لي، هل يمكن أن يكون بالفعل صاحب إحدى الشخصيتين وشبيه لحد التطابق لصاحب الشخصية الأخرى؟

- حتى الآن لا أجد من معقول التفاسير غير هذا حتى الآن، لكن ما يزيد الأمر غموضًا أنه تعايش باحترافية مع المحيطين به في حياة الشخصيتين، حتى إن كل طرف قد آمن تمامًا أنه ذلك الذي فقده قبل أعوام.

- وماذا عن خطوتك القادمة يا صديقي؟

زفير طويل حار سبق رد (مازن) الذي أطلق رأسه بعد إخراجه للخلف قبل أن يعيدها من جديد لوضعها الطبيعي يفرك بيديه ذلك القلم الذي أخرج فيه كبته قائلاً:

- لا أعلم يا (على)، لا أعلم، الأمر الآن لا يوصف إلاّ كفيلم خيالي لا يمكن أن يكون ذا صلة ولو بسيطة بواقعنا الطبيعي، وتلك التحريات اللعينة لا تجدي حتى الآن نفعًا لكشف غموض ذلك الأمر اللاطبيعى.

- أراك تمكن منك يأسك في نهاية المطاف يا صديقي العزيز، لم يكن هذا أبدًا عهدي بك قبل الآن، حتى في أصعب القضايا وأكثرها تعقيدًا.

- عهدك بي كان في قضايا متعارف عليها بين أهل المجال يا صديقي، أما تلك القضية فلا أجدني مالكًا في جعبتي المزيد من خطوات جديدة أخطوها؛ لكشف إبهامها ذلك الذي جاوز كل الحدود.

- أهو الاستسلام إذن؟

- ليس استسلامًا بقدر ما هو نفاد للحلول، لا أملك الآن إلاّ انتظار القادم من الأحداث، علَّ الأقدار ترأف بي وتهبني حلا استثنائيا يسدل ستار النهاية على تلك القصة التي جاوزت سخافتها ما يمكن لمثلي أن يتحمله.

- لا أظنك بلغت حد الاعتماد على هبات الأقدار وحسب يا حضرة الضابط، لا يعترف عملنا بمثل هذا الاعتماد قط.

- وهل تراني أملك له بديلاً يا صديقي؟

لم يكد يتم آخر كلماته تلك حتى انتبه وصديقه إلى هاتفه الذي علت رنَّته معلنة عن رسالة قادمة، تناول (مازن) الهاتف في برود، وأخذ يقرأ نص الرسالة حتى انتفض واقفا يسأله زميله متعجبًا من رد فعله متسائلا:

- ماذا هناك؟ هل من جديد؟

- يبدو أن استجابة الأقدار لرجائي بوجود حل استثنائي قد أتى بأسرع مما توقعت، أنها رسالة لا تحمل اسمًا غير أني أظنها من (بهاء) أو (لبنى) تطلب مني التوجه إليهما إن أردت معرفة شيء جديد هام بخصوص ذلك الهارب غريب الأطوار.

- هل تحتاجني بجوارك لأي مساعدة؟

- لا، لا، لا أريد أن أضفي الصبغة الرسمية على الأمر، حتى يظلا على اطمئنانهما لي دون أدنى تغيير.

- حسنًا، هيا الآن، أسرع الآن لاستكشاف ما وراء رسالتهما تلك...قد تحمل كما سميته الحل الاستثنائي.

- وهو كذلك، أستأذنك بالانصراف يا صديقي.

(55)

أنهى (شريف) مهمته الآن بنجاح باهر كما كان اعتقاده وتخطيطه، تخلص أخيرًا من آخر خصمين له في تلك الحياة الغريبة التي عاشها لا يذكر مما سبقها شيئًا، كان شعورًا غريبًا بالراحة تملكه، بعدما كان من تلك الأحداث التي أسفرت عن قتله لـ(جابر) و (عبد التواب)، غير أن إحساسه باليأس وكره الحياة بدأ يسرى بين عروقه سريان الدم، لم يعد يملك من الأسباب ما يدفعه للتمسك بالبقاء بين جدران هذه الدنيا التي طالما حاربته أيامها، لم يعد يملك من الدوافع ما يُجبره على التشبث بتلابيب تلك الحياة التي كثيرا ما صارعته لياليها، وهو بين غياب الدوافع في ظل حروب الأيام وتلاشي السبب في ظل صراع الليالي، تمنى الرحيل إلى حيث يريحه موته من حروب لا ذنب له فيها، وصراعات لم يقتنع يومًا أنه كان سببًا في نشوبها،

ابتعد قليلاً عن مكان الحادث بصحبة صديقه (مهاب)، بعد لوم كثير عاتبه به صديقه على تهوره وتبرير منه لما كان من مثل هذا التهور، حتى توقفا فجأة بعد رغبة من (شريف) في إقامة حديث أخير بدأه بقوله:

- والآن يا صديقي حان لوقت لأحملك أمانة لا أستطيع أنا تأديتها، وبعدما كان منك من مساعدة ستطوق عنقي بجميلها إلى آخر لحظاتي لا أظنني أئتمن غيرك على مثلها.

- ليس إلاّ واجبًا تجاه أخي الوحيد يا (شريف)، سل يا صديقي ما بدا لك تُجَبه.

- أترى هاتين الحقيبتين؟

- نعم، أحداها تخصك وصلت بها المكان والأخرى كانت تخص (البنهاوى) رأيت أحد رجاله يحملها عنه.

- أما عن الأولى التي تخصني فهي تضم مخدرات كنت قد أخفيتها قديمًا مع صديقي (العوضي) بعيدًا عن أعين الجميع من رجال (العامرى) و (الصياد) والشرطة في آخر عملياتي معه، والتي ظن الجميع أني قد قُتلت خلالها، وها قد حان الوقت لإعادتها لأصحاب الحق فيها، لا نقصان فيها إلاّ من لفافتين فقط استخدمناهما للإيقاع بهذين اللعينين اللذين طالتهما طلقاتي قبل قليل بين جدران هذا الوكر هناك.

- ومن يا ترى هؤلاء أصحاب الحق فيها؟

- الضابط (مازن السيد)، أرسلت له رسالة على هاتفه أطالبه بالتوجه لمنزلكم وقد وصفت له العنوان، سيكون هناك بعد قليل، أظن الشرطة أحق الجهات الآن بها.

- وماذا عن الثانية؟

- أما عن الثانية فتخصك وأختك يا صديقي.

ضاقت عينا (مهاب) في استغراب وقد أخذته المفاجأة متسائلاً:

- أنا و (لبنى)؟

- نعم، قبل سنوات سلب (البنهاوى) من أبيكما هذا المبلغ الذي تضمه تلك الحقيبة متسببًا في انهيار تجارته ورحيله مصدومًا بعد ذلك الانهيار، أقنعته أن ذلك المبلغ هو المساوي لقيمة صفقة المخدرات التي سنجريها مع (جابر الصياد)، بعدما أعطيته تلك اللفافة التي تضمها أولى الحقيبتين، وها أنا الآن أسوقه إليك عساه يكون شفيعًا لي عند أختك وعمك اللذان ظنا في ظن سوء بخيانتي أمانة أمنتموني عليها.

- لا أعلم بأي الردود أجيبك يا (شريف)، ألمثل هذا السبب ارتكبت يداك إثم القتل؟ لم تكن بحاجة لكل ذلك يا صديقي، كان يكفيني تلك الكلمة التي سمعتها من (البنهاوى) تحمل براءتك من تهمة الخيانة تلك التي ألصقناها بك.

- لا بأس بما كان يا صديقي الآن، كل الطرق كانت لتؤدي بي إلى نهاية واحدة، ليسا أول قتيلين تضمهما صحيفة جرائمي على كل حال، سبقهما إليها غيرهما، حين حاولت الانتساب لبني الإنسان منقذًا ابن ذلك الضابط الذي أرسلتك لتأدية أمانته لديّ، غير أن ذلك الانتساب قد كلفني صديقي الأوحد حينها دافعًا إياي لتلك الحياة الثانية، التي انتهت للتو بقتل هذين المجرمين.

ثوان من الصمت تبعت رد (شريف)، قبل أن يجيبه (مهاب)، وقد بدت على وجهه ملامح الحزن الذي طغى عليه الإشفاق على صديقه قائلاً:

- لا زلت لا أجد المناسب من ردودي عليك يا صديقي، اعلم فقط أني لن أتخلى عنك حتى نهاية المطاف.

- نهاية المطاف باتت أكثر قربًا من ظن كلينا يا عزيزي، أريدك فقط الآن أن تبلغ (لبنى) و (بهاء) برسالتي التي أمنتك عليها لكليهما، أما عن (مازن) فأخبره أني لم أعد قادرًا على المزيد من المطاردات، عما قريب سيجدني داخلاً عليه مكتبه مُسلمًا نفسي له.

- وحتى ذلك الوقت القريب ماذا ستفعل يا (شريف)؟

- سأذهب لتأدية أمانة في القاهرة غفلت عنها لعامين.

- أمانة؟

- نعم، ستعلم بها في وقتها يا صديقي، والآن إلى حيث تؤدى تلك الأمانة التي ائتمنتك عليها إلى أصحابها، الجميع بانتظارك.

- حسنًا يا (شريف)، حسنًا، فقط كن على اتصال دائم بي، وأخبرني أولا بأول عن جديد تحركاتك.

- وهو كذلك يا (مهاب)، وهو كذلك يا صديقي العزيز.

قالها (شريف) خاتمًا بها ذلك الحديث قبل أن يضمه وصديقه عناق طويل حتى باتا ككيان واحد لشخص واحد.

(56)

لم يكن على الجميع الانتظار كثيرًا إذن، أنهى (شريف) جميع الترتيبات دون إزعاج أحد بما أراد أو شغل أحد بما خطط، وأخيرًا كان التنفيذ الذي استعان فيه بصديقه، الذي كان الوحيد المؤمن ببراءته مما نسبه إليه الجميع حتى أقرب الأقربين. أراد وخطط في هدوء ونفذ واستعان في نفس الهدوء بلا انتظار أو تفكير في قادم الأحداث التابعة لما كان من أمر تخطيطه وتنفيذه، لم يعد يشغله كثيرًا أمر مستقبل أيامه، وهو الفاقد من الأساس لما كان من أمر ماضيها، لا حاجة له بمستقبل مفقود ماضيه أو قادم ضائع سابقه، لن يحمل القادم على كل حال أسوأ مما رآه طوال خمسة أعوام، كان فيها المثال المجسد للتائه بلا مرشد في تيهه، الضائع بلا هادٍ في ضياعه.

ها قد وصل (مهاب) أخيرًا إلى حيث الاجتماع الذي رسم صديقه لوحته وأراده كاسيا تلك اللوحة ألوانها، حاملا هاتين الحقيبتين اللتين أصبحتا الدليل الدامغ على صدق نية هذا المسكين في زهد كل ما أمكن لدنياه أن تعطيه إياه، وإن كان لم يعهد منها إلاّ بخلا ألقاه إلى سؤال عالم الجريمة وشحا دفعه إلى طلب حياة الانتقام.

- أراكم قد اجتمعتم مجددًا يا سادة كما أراد تمامًا منسق ذلك الاجتماع.

كلمات نظر إليه الجميع إليه عقب لفظها دون رد عدة ثوان قبل أن يقطع (مازن) تلك اللحظات الصامتة بقوله:

- الآن فقط انكشفت ماهية مراسلي، كنت إذن مرسل الرسالة ومدبر ذلك اللقاء يا سيد (مهاب)، أليس كذلك؟

- خانتك دقة تخمينك هذه المرة يا حضرة الضابط، على كل حال لا أراك يهمك كثيرًا من يكون داعيك أو مراسلك، أو كما تسميه أنت مدبر اللقاء يا سيد (مازن)، جمعكم وأرسلني فقط لتسوية بعض الأمور التي علقتها الأحداث منذ سنوات.

- أفضل للجميع المزيد من الإيضاح يا أخي، الجميع هنا في حالة يُرثى لها، ولم نعد بحاجة للمزيد من إثارة لن تفيد جديدًا للأمور إلاّ المزيد من تعقيد كلنا في غنى عنه.

قالتها (لبنى) تخاطب بها أخاها الحامل لحقيبتيه، وقد أرادت وضع حد لذلك الغموض الذي أحاط آخر الأحداث.

- مهلاً يا أختاه، مهلاً، الأمر بحاجة لهدوء الجميع، ما حدث لا يُستقبل بمثل هذه العجلة والعصبية التي أراك عليها.

- أي هدوء يا أخي الذي تتحدث عنه؟ غياب لك غير مبرر لعدة أيام، عُدت بعدها على علم ببعض الحقائق التي تبخل على مسامعنا بها، إضافة لرسالة من مجهول استقبلها هاتف ذلك الضابط ينكر الجميع معرفته بها، وأخيرا ذلك الغامض الذي تقول إنه مدبر اللقاء، ماذا عن كل تلك الوقائع؟ أترى من الطبيعي أن يكسو الهدوء كلامنا بعد كل هذه المجهولات؟

- نسيتِ ذكر هاتين الحقيبتين يا عزيزتي، تبقيان الأجدر بالذكر وهما الدليل علی خيبة ظنكم جميعا ببطل لعبتنا تلك.

- ماذا تحوى هاتان الحقيبتان؟ وأي بطل تقصد؟ (شريف)؟

- دعيني أولا أقص عليكم القصة من بدايتها يا أختاه، هذا أفضل حتى تتضح الأمور كاملة أمام الجميع.

(57)

وقت غير قليل مضى على سرد (مهاب) لما كان، سرد نال بشدة من انتباه وتعجب الجميع وهم يسمعون ما كان من أمر هذا الـ(شريف)، الذي طاله من ظن الجميع السيئ ما يكفيه وأكثر، كان بإمكانه البحث عن حياة ثالثة يودع فيها ما كان من مطاردات أولى حياتيه وخيانات ثانيهما، غير أن رغبة لم يستطع كبح جماحها اتخذت مجراها في دمائه لإثبات أنه كان الضحية للعبة تفنن الجميع في وضع عقباتهم في طريقه فيها، هي إذن تلك الشخصية التي لا يمكن لمجرم أن يحظى بصفاتها كثيرًا كما كان تصور (مازن) عنه، هذه التركيبة التي لا يمكن لخائن أن يتحلى بخواصها كثيرًا كما كان ظن (بهاء) و (لبنى) فيه، المجرم لا يُتقن سوى الهرب والخائن لا يجيد إلاّ التخفي، أما وقد آثر ذلك الغائب عن الاجتماع مواجهة ما تخفيه له أقداره دون خوف من نهاية تؤذيه أو جزع من مصير يهدمه، فهو البعيد ولو جزئيا عن معنى الإجرام وتصور الخيانة، هكذا كان تفكير الحضور وهكذا كانت صورتهم الجديدة عن هذا الغائب، رجل زهد في الباقي من سنوات عمر لا يذكر من ماضيه شيئًا، فقط لأنه أراد لمن أحبوه يوما أن يتذكروه ببعض الخير، ضحى بالقادم من أيام حياة لا يعرف عن تاريخها شيئا، فقط لأنه أراد لمن عاداه يومًا أن يذكره كخصم نبيل، وبين محبيه وأعدائه كان إرساله لذلك الصديق الصدوق الذي كان

الوحيد المؤمن أن أعماق صديقه ضامة من البراءة ما يشفع له عن سابق أخطائه وسالف خطاياه.

- هذا كل ما كان من أمر (شريف) بكل اختصار أيها الحضور، ولكم الآن الحكم على ما حدث قبل استئناف الجزء الثاني من حديث حملني أمانة توصيله لثلاثتكم.

- بل تستأنف الحديث كاملاً يا (مهاب)، الحكم لا يكون إلاّ على الوضع برمته.

- حسنا يا شيخ (بهاء)، كما تريدون، ترون بين يديَّ الآن حقيبتين، أما عن أولاهما فهي تخصك حضرة الضابط، والأفضل أن تقوم باكتشاف محتواها بنفسك.

تناول (مازن) الحقيبة وقد علت ملامحه سمات العجب يُقلب نظره بين الحضور، قبل أن يقوم بفتح الحقيبة مذهولاً مما رأى، وقد عاد بنظره إلى (مهاب) فاغر فاه جاحظة عيناه دون رد، قبل أن يجيب ذلك الـ(مهاب) صمته قائلاً:

- نعم يا حضرة الضابط، هي ذاتها نفس حقيبة المخدرات التي اختفت عن أنظار الجميع قبل ما يقرب من سبعة أعوام، وأعقبها بعد ذلك اختفاء ذلك المجرم الذي تسمونه (عبد الرحمن) بعدما أخفاها مع صديق له يُسمى (العوضى)، لا أعلم إن كان هو نفس الشخص الذي أعطانيها الليلة أم لا...فقدت الأمل في حل ذلك اللغز كما فشل الجميع بمن فيهم صاحب اللغز نفسه، كل ما أراد إيصاله لك يا حضرة

الضابط، أنه منذ ظهوره من جديد في عالم الأحياء وهو لا يعلم لحياته هدفا أو يحدد لمستقبله مصيرا، اكتفى فقط بدور التابع تجره أيادي المشتبهين فيه إلى حيث يريدون لا إلى حيث يريد، وحين وضعته الأيام في موقف المواجهة، كانت تضحيته لأجل ولدك يواجه الموت وحيدًا وهو المستطيع للهروب، ثم اليوم يعيد لك أمانة كان باستطاعته استغلالها ليعيش ملكًا وهو المار بأيام ما بين الحياتين كأقل من العبيد، أما عن آخر رسائله إليك، فأراد فقط إخبارك أنه لم يعد ذا قدرة على الهروب والمطاردة، سئمهما وسئماه، لستَ بحاجة بعد الآن لنصب كمائن أو تجهيز مصائد أو وضع خطط، عما قريب ستجده داخلاً عليك مكتبك معترفًا بكل ما كان من جرائم قتله وتهريبه، هذا كل شيء الآن يا حضرة الضابط، وأظنني أديت مهمتي كرسول على أكمل الوجوه.

والآن إلى ثاني الحقائب يا سادة، أو لنقل إلى ثاني الأمانات، أمانتنا الآن تخص الطرفين الأُخريين للحديث، أختي (لبنى) وعمي (بهاء) إضافة لي أنا حامل الأمانة شخصيًا، هذه الحقيبة تضم مبلغًا من المال نجح (شريف) في الإيقاع بـ(البنهاوى) والحصول على هذه الأموال ليعيدها إلى ثلاثتنا، ليست هبة أو منحة، إنما إعادة لحق سلبه ذلك الذاهب إلى الجحيم من والدي رحمه الله متسببًا في انهيار تجارته ووفاته متأثرًا بصدمته في نهاية المطاف، هكذا كان هدف (شريف) بعدما أُجبرَ على التعامل معه، قد يكون مخطئا في وسيلته، غير أني أرى نجاحه في

تحقيق الغاية قد يشفع له بعض أخطائه أن لم تشمل الشفاعة جميع الأخطاء، لن أسألكما عن رأيكما فيه، لست بحاجة لمن يمدح لي صديقي أو يذمه، يكفيني ما رأيت من أفعال وصلت حد القتل لا لشيء إلاّ لإثبات أنه ليس خائن الأمانة الذي تظنان، تسرعتما في الحكم يا عزيزاي، على كل حال بقيت رسالة أخيرة أرادكما على علم بها، أما عن (لبنى) فلا يعلم ما كان من صورتها في مرآة عينيه قبل ظهوره ذاك، بل لا يعلم من الأساس إن كان هو ذلك الغائب أم لا، غير أن كل ما يعرفه أنها كانت حلمه الوحيد في آخر عامين عرفته فيهما الحياة، وهو وإن كان ذلك الحالم فلم يجرؤ قط على الإقدام حتى على تحقيق حلمه، بخل على نفسه بمثلها وهو الذي لم يرها إلا مستحقة من يجعلها على عرش الدنيا مليكة تحكمها بدستور الوفاء وتسودها بقانون الإخلاص، وحين كانت آخر مواجهة بينهما حيث اتهامها له بخيانة الأمانة، لم يعد يملك من الأمنيات حينها إلاّ إثبات العكس فكان ارتكابه لجريمته الأخيرة تلك، أما عن شيخنا (بهاء) فكن على ثقة أن ذلك الغائب لم ينظر إليك لحظة إلاّ كمثل أعلى تمسك بقيم افتقدها كثيرًا في حياته ذات الخمسة الأعوام...كثيرًا ما طمع في حياة تنعم بهدوء أيامها كحياتك، غير أنه وإن لم ينجح في اقتناص مثل تلك الأيام، فقد ظل دوما على أمله أن مستقبل أيامه سيمن عليه ولو بلحظات من الهدوء في كنف نصائحك وأحضان توجيهاتك، كنت ولا زلت بنظره المثال الحي الأقرب للكمال الإنساني، أما عن آخر

المواجهات فلم يرسل لك لوما أو يبعث إليك بعتاب، اقتصر رده على ما فعل وحسب، تاركًا لك ولباقي الحضور الحكم على كل ما كان.

أنا الآن في حلٍ من أمانتي وقد أديتها على أكمل ما يكون، لست أعبأ كثيرًا برأيكم فيما كان من أمر (عبد الرحمن) كما سماه البعض أو (شريف) كما سماه البعض الآخر، لا أهتم لتسميات عقيمة لا تعنيني كما تعنى أصحاب الفارغ من العقول، حسبي صديقي ذلك الذي اكتسبته في آخر عامين، عامان لا أظنهما يشهد مثلهما القادم من سنوات عمري، يكفيني فقط أنه علمني أن هناك من الآدميين من يستحق التضحية لأجله، بل لأجل أن يظل على ذكراه الطيبة لك حين تخطر على باله في ساعة ليل حار يقضى ساعاته وحيدًا، يستعيد ما كان من سالف سنواته وماضي ذكرياته وسابق محبيه.

انتهى ما في جعبتي من كلمات الآن، لا أظنني أملك المزيد منها بعد كل ما كان من سرد طويل، أستأذنكم بالانصراف.

- انتظر يا سيد (مهاب)، انتظر، لم تخبرنا أين ذهب صديقك بعد كل هذه الأحداث!

استفهام من (مازن) ذلك الممسك بحقيبته، استدار له (مهاب) الذي كان قد استعد للانصراف بوجه علته ابتسامة غلبت عليها السخرية قائلاً:

- لا زالت صفات البوليسية التي يعلوها الشك تجرى في دمائك حضرة الضابط، يبدو أن كل ما كان من أمر هذا الـ(شريف) لم

يقنعك بعد أنه لن يخوض مجددًا المزيد من المواجهات التي لا طاقة له بها.

- سؤالي ذلك الذي لم تُجبه لا يعني افتراضي سوء النية يا عزيزي، هو فقط سؤال منطقي لابد من سطوعه في نهاية هذا السرد الطويل.

لا بأس يا سيد (مازن)، لا بأس، على كل حال لم يجبني عن طبيعة وجهته القادمة، كل ما قاله حين سألته نفس سؤالك ذاك أنه ذاهب لآداء أمانة قديمة في القاهرة ألهته عن أدائها أحداث العامين الأخيرين.

- أمانة قديمة؟

قالها (مازن) وقد ضاقت عيناه في هيئة المتعجب من كلام مبهم ينتظر له إيضاحًا، حتى جاءه من جديد رد (مهاب) السريع قائلاً:

- كان هذا رده على سؤالك وحسب يا سيدي.

صمت (مازن) حينًا يفكر في تلك الأمانة وصاحبها، قبل أن تلمع عيناه من جديد، وكأنه قد وجد لكلام مخاطبه الغامض تفسيرًا يقول:

- حسنا، عرفت الآن أين يكون!

قالها وهم بالانصراف قبل أن تستوقفه كلمات (لبنى) مجددًا، تلك التي احتلت دموعها وجهها تمامًا تحاول فاشلة تجفيفها بكلتا يديها، وقد تملكها ذلك الإحساس المؤلم بالذنب جراء حكمها المتسرع على هذا الغائب قائلة:

- إلى أين يا حضرة الضابط؟، كلماتك لا تبعث على اطمئنان أي من الحضور، أولم تقتنع بعد بصدق نيته في تسليم نفسه؟

- أثبت (عبد الرحمن) حسن نية يا سيدة (لـــبنى)، غـــير أن واجـــبي كضابط لا يسمح أبدًا بتركه يفلت من عقاب يستحقه.

- لم تقتنع بعد يا سيد (مازن) أنه لم يعد يعبأ بعقابك أو عفوك، كـــل النهايات لديه سواء الآن، فعل كل ما أمكن لمجرم كما تسميه أن يكفر به عن ذنوب الجميع على ثقة الآن أنه أُجبر على ارتكابها.

-وأنتم لم تقتنعوا بعد أن الضباط أبدًا لا يعتمدون علـــى أحاســـيس الإنسانية المجردة من الواقعية أيها السادة، أستأذنكم بالانصـــراف، إلى لقاء قريب.

- إلى أين؟

- إلى حيث يؤدى ذلك الغائب أمانته سيدتي.

(58)

قد كان أزمع الرحيل إلى المقابر صامتًا دون إزعاج للمحطين، باكيًـــا دون لفت لنظر المتابعين، منكسرًا دون شعور بانكساره من المـــراقبين، انسحب إلى حيث يجد راحته المفقودة منذ أعوام، كيف البقـــاء بـــين محيطيه وهم فيه شاكُّون، لِمَ الوجود بين متابعيه وهم لـــه كـــارهون؟ علامَ الانخراط في حياة مراقبيه وهم عن إخلاصه للطـــرف غاضُّـــون؟ كيف ولم وعلام كل ذلك؟ ودموعه كل ليلة تســـير أنهـــارًا، وبـــذور أحزانه قد أينعت وصارت أشجارًا، وساعات الأشجان في حياته قـــد طالت وصارت أعمارًا، سار وحيدًا ترافقه دموع عينيه، شريدًا تؤنسه أشجانه التي بين جنبيه، حيث ذلك الطريق المظلم المقفر إلى حيث تلك الساحة الموحشة الأركان الحزينة الأسوار، بيوتها تحت الأرض وسكانها تحت التراب، كسائها سكون الأموات، ردائها صـــمت الأشـــلاء، لا وجود فيها لحياة إلاّ حياة العالم الآخر، ولا مسموع فيها من الأصوات إلاّ أنين الباكين ودموع المودعين، سار بخطاه الثابتة المعهودة إلى هدفـــه الذي أراده في ذلك الركن البعيد من ساحته تلك، الكثير من القبـــور قد اصطفت جنبًا إلى جنب، وقد جلس بينهم أمام ذلك القبر الـــذي جاء لأجل صاحبه، استوت جلسته ذات الـــرأس المطـــرق للأســـفل والكفين المُرسلين على ركبتي صاحبيهما الذي جاء لزيـــارة هجرهـــا لعامين، كما كان وصفه لحاله وحال صديقه الراحل:

- لا أدري بأي وجه ألقاك يا صديقي الراحل، وجه المثالية الذي أردتني وأردت نفسي عليه حين احتضرت بين يدي، أم ذلك الآخر ذي ملامح الانحراف الذي لازمني طوال خمسة أعوام عهدتها من دنياي وعهدتها مني، لا أراني يلائمني كثيرًا أول الوجوه ذاك، ولو أنك على علم تام أني أُجبرتُ على التقنع بثانيها، وجه مثالي وآخر منحرف لم يعد ذلك ذا أهمية كثيرًا بالنسبة لي أو لأي من رفقاء حياتيّ، كسور الزجاج قد تلتئم يا صديقي، لكن آثارها أبدًا لا تُمحَى، هكذا كان سير أيامي بي، لوح زجاج هش ألقته إلى جانب طريقها المظلم يجتهد في إصابته كل من قُدِّر له السير على هذا الجانب، وأنا وإن أجهدتني محاولاتي اليائسة لمحو تلك الآثار، فأنى أبدًا لم أنجح ولو في التئامها، لا أعلم إن كنت حقًّا جديرًا بلقب المظلوم الذي أرى نفسي عليه أم لا، قد تبدو للكثيرين طبيعة متأصلة في بني آدم حين يدفعون عن أنفسهم أي علاقة بارتكاب الخطأ أو أي صلة باقتراف الآثام، مع شعور سري بالذنب لا يجد طريقه كثيرًا إلى خارج الضمير حيث الإفصاح عنه بلسان سلك طريق التوبة واستظل بظلاله، غير أن اعترافي الآن أمامك بارتكاب الأخطاء واقتراف الآثام قد يكون ذا قيمة على الأقل بالنسبة لي أنا مرتكب الخطأ ومقترف الذنب، قد تراه اعترافًا متأخرًا إلى حد كبير، أو بالأحرى نقضًا لعهد عهدناه سويا حين ودعتني قبل عامين، لا أحسبني أملك المُقنع من أعذار تشفع لي مخالفتي لعهدنا بالبعد عن عالم الجريمة الذي بعث بأحدنا إلى عالم القبور وبعث الآخر لعالم نال من

بغض أهله ما جعله الأجدر بلقب الغريب الأحق بلقب المنبوذ، الله وحده يشهد أني لم أُرد إلاّ إعادة لحق أناس وجدهم الأسمى خُلقًا بين كل من قُدِّرَ لي أن تشهدهم سنواتى الخمس، أُناس لا تمثل لهم الدنيا إلا ممرًا لحياة الخلود التي اجتهدوا في الإعداد لها، اقتصرت همومهم فيها على غياب أحدهم، ذلك الذي قُدِّرَ لي أن أرتدي عباءته لعامين، لا أعلم إن كنت حقًّا صاحب العباءة أم مُقترضها، كما لا أعلم إن كنت حقًّا صاحب عباءة صديقك أم أنه أيضًا ذلك الاقتراض، إحساس بالغربة عهدته في عالم الاستقامة كما عهدته قبلها في عالم الإجرام، وأنا بين إحساس واحد وحياتين قد غضضت الطرف عن اكتشاف السبب الغائب في ذلك التناقض، قد لا تفي كلماتي إليك بما بين جنباتي من شعور بالضآلة أرى نفسي عليه الآن بين يديك، فقط كن على ثقة يا عزيزي أني لم أعد أعبأ إن كنت صديقك الذي فقدته قبل ظهوري في عالمكم هذا أم لا، إن كنت حقًّا كما رأيتني صديق طفولتك ورفيق صباك وشريك شبابك، فها أنا الآن أؤدي لصداقتنا ورفقتنا وشراكتنا دينًا قد يكون آخر ما ستعهده لقاءات الطفولة والصبا والشباب، أما وإن كنت ذلك المُقاد إلى عالم كانت أول خطواتي بها حادثة مشئومة، ألقتني إلى أحداث سنوات خمس حوت من أحداث ما تكل باحتوائه العقود، فها أنا أضع لتلك السنوات نهاية جسدتها كلماتي الصادقة إليك، هي تلك الذاكرة المريضة التي أصاب صاحبها اليأس من شفاء تمناه ولم ينله، فقط ليحيا كباق محيطيه من ولد

آدم يملك للماضي دفاتر للذكريات وللمستقبل أخرى للتخطيطات، غير أن ذلك الرأي الآخر للأقدار بمعايشة حاضر ذا ماض مفقود ومستقبل مجهول كان الخيار الأقرب لواقعية أذاقته من مرارة كأسها ما تكتوي لمجرد رائحته أنوف رواد طريق الحياة..

لم أعد ذا قدرة على المزيد من حديث أنا على يقين أنك بكل كلماته مُلِم يا صديقي، يبقى عزائي الوحيد ذلك اللقاء المنتظر بيننا في العالم الآخر، حيث جزاء أثق في عدل جازيه ومحاكمة أتوق لرحمة حاكمها، عدل ورحمة يئست من التنعم بفرشهما بين أسوار دنيا، أتقن أهلها الظلم وكان تلفحهم بأردية القسوة على أفضل ما يكون، فكان انتظاري لهما من خالق ظالمين لم يُردْ ظلمَهم وبارئ قساة لم تكن القسوة أبدًا من أوامره لهم، أرى لحظات الرحيل قد حانت الآن يا أخي، كل ما باستطاعتي قوله الآن، وداعًا، أو دعنا نقول، إلى لقاء!

- كنت محقًا إذن حين توقعت أن يكون (العوضي) صاحب أمانتك تلك التي حملتها لعامين يا (عبد الرحمن)، غير أن توقعاتي أبدًا لم تصل لرؤيتك على هذه الصورة اليائسة التي لم أعهدك على مثلها من قبل، لم يكن هذا أبدًا (عبد الرحمن) الذي أعرفه.

التفت ذلك الوحيد بين القبور لصاحب ذلك الصوت عن يمينه، قبل أن يعيد رأسه من جديد ناظرًا حيث يرقد صديقه قائلا:

- هذا إن كنت حقًا ذلك الـ(عبد الرحمن) الذي تعرفه يا حضرة الضابط، لم تكن بحاجة للمجيء على أية حال، انتويت تسليم نفسي إليك عقب لقائي ذلك الذي شهدت بعض كلمه مع صديقي الراحل.

- ألهذا الحد تستمتع بحوار من طرف واحد؟

قول قابله ذلك الجالس إلى قبر صديقه بضحكة ساخرة قبل أن يكون رده:

- هكذا تظنه سيدي الضابط، طرف الحديث الثاني يتراءى الآن أمام عينيّ باسمًا من عودة صديقه إليه بعد فراق دام لعامين، قست لحظاتهما على كلينا في غياب الآخر.

تلقى (مازن) كلمات مخاطبه ناظرًا إلى الأرض في صمت قبل أن يستطرد قائلاً:

- حسنًا يا عزيزي، على كل حال أنا على ثقة من تسليم نفسك كما قلت قبل قليل، لم يبخل صديقك (مهاب) بشيء في إبلاغنا رسالتك.

- ثقة غير متوقعة يا حضرة الضابط، مواقف سابقة كانت أولى بثقتك تلك، آخرها يوم رحيل صاحب ذلك القبر بين يدي الداميتين جراء إنقاذ ولدك.

- أهي معايرة أم، أعتبره تذكيرًا بخطأ فرضه عليَّ ما كان من ظروف الأحداث السابقة حين تعقدت الأمور وتشابكت الرؤى أمام الجميع؟

- لم أعد بحاجة لمعايرة أحد بعد الآن يا حضرة الضابط، لن يعيد الحديث ما كان من سابق اللحظات، بإمكانك اقتيادي إلى حيث تريد الآن.

- أراك تريد وضع حد النهاية باكرًا لحديثنا.

- وضعته أنت قبل سنوات حضرة الضابط، على كل حال أرى ذلك أفضل للجميع، لم يعد أي من أطراف الأحداث على استعداد للحديث أو ذا رغبة في الاستماع.

- حسنا يا (عبد الرحمن)، حسنا، كما تريد.

(59)

إنه أخيرًا مشهد الختام، مشهد طالما انتظر لحظاته جميع الأطراف من خصوم (عبد الرحمن) ومحبي (شريف)، وبين الانتظارين كان انتظار ذلك التائه بين الاسمين وخصومهما ومحبيهما هو الانتظار الأبرز بين جميع الانتظارات، قفص حديدي لإيواء المتهم بأربعة جرائم قتل، منصة قضاء استوى على مقاعدها ثلاثة من القضاة بين أيديهم وضع الله مصير ذلك الرابض خلف ذلك القفص الذي يسمونه قفص الاتهام، منصة صغيرة تتسع فقط لذلك الضابط الشاهد على أحداث السنوات الخمس، وأخيرًا تلك المقاعد لراغبين في معرفة هذه النهاية المنتظرة لأحداث بدأها حادثة طريق وأنهتها حادثة قتل، لتكتمل أركان تلك المحاكمة المنعقدة منذ ساعات وسط متابعة الجميع، حتى كانت دقائق المداولة التي بلغت من الإثارة حدًا شارف على إصابة الجميع بالجنون.

لعل أغرب ما في الأمر ذلك المظهر البادي على درجة من البرود في تعامله مع الحدث لذلك المتهم محور الأحداث، بدا كقطعة ثلج لم تنجح سخونة الأحداث حتى في إسالة بعض قطراتها، وكأنه المشاهد لمحاكمة غيره من شاشات التلفاز، قد يبدو للكثيرين لمسة من الجنون أصابته وله العذر بعد كل ما كان من أمره، غير أنه وهو الزاهد في القادم من أيام لا يراها إلاّ متلونة تلك الألوان القاتمة لسابق أيامه قد غض الطرف عن آراء المتابعين لحاله في حاله، وأشاح الوجه عن نظرات الشاهدين على قصته في قصته، لهم آراءهم ونظراتهم وله غَصُّه

وإشاحته، كل في طريقه سائر يلتمس للآخر العذر في سوء فهمه، أخرجته تلك الكلمات لصوت كأنه به سمعه قبل الآن من شروده وانتظاره تخترق أذنيه قائلة:

- لا تقلق بشأن القادم يا عمي (عبد الرحمن)، أبي طمأنني لنهاية سعيدة حين سألته بشأن قضيتك.

انتبه ضائقة عينيه قبل أن يُتوِّج وجهه بابتسامة خافتة قائلاً:

- (سيف)؟

- نعم أيُّها البطل، علمت بشأن محاكمتك؛ فكان إلحاحي على أبي باصطحابي لأشهدها من قلب الحدث...لم يكن من الرجولة أن أتخلى عنك في موقف كهذا.

كلمات نالت من بسمات ذلك المتهم، قبل أن يتملكه ذلك الشعور الغريب بالاستغراب لأمر هذا الصبي المُنعَّم بوفاء لم ينعم به كثير من أصحاب العقود، تمثل في حفظه لجميل لم يحفظ مثله من يفوقونه بسنوات، قبل أن يجيبه بقول على شاكلة هدوئه:

- أخجلني وفاؤك بشدة يا صديقي الصغير، وإن كنت لا أرى لقب صغير ذلك يلائمك كثيرًا بعد الآن، بلغت من أفعال الرجولة حدًا لم يبلغه الكثيرون من أصحاب سني وسن أبيك، بل ومن يفوقوننا بعقود يا صغيري.

- يحفزني كلامك كثيرًا يا عمي (عبد الرحمن)، نسيت إخبارك بالمناسبة!

- إخباري بماذا يا عزيزي؟

- أصدقائي معجبون بك إلى حد كبير، ودُّوا جميعًا لو قابلوك بعدما قصصته عليهم من أمر إنقاذك لي، غير أني وعدتهم جميعًا باستكمال سرد قصتك لهم بعدما نرى ما ستسفر عنه أحداث اليوم.

- صغار لا أعرفهم باتوا ينتظرون نهاية قصتي، ألهذا الحد بلغت شهرتي؟

- هذا قدر الأبطال يا صديقي الكبير!

قول أثار ضحك (عبد الرحمن) كما يسميه ذلك الصغير، قبل أن يعود إلى هيئة شبه جادة غلبت عليها تلك النظرة ذات العينين الآملتين في رد فقدت الأمل في سماعه من كثيرين ضمتهم أيامه متسائلاً:

- أحقًا تراني بطلاً أيها الصغير؟

- بل أراك البطل الوحيد أيها الكبير.

قول لم يلقَ من تعبيرات ذلك السائل إلا استغرابًا، غلب عليه بعض من الارتياح، تمثل في ابتسامة عريضة، قطعتها تلك الكلمة لحاجب المحكمة معلنًا انتهاء فترة المداولة قائلاً:

- محكمة!

قولة وقف لسماعها جميع الحضور، وأولهم ذلك المُدان، قبل أن يستقر هؤلاء القضاة على منصتهم قائل أوسطهم بعد تقليب بعض أوراق ضمتها ملفات أمامه:

- حكمت المحكمة حضوريًا على المتهم بالإعدام شنقًا!!

لحظات من السكون القاتل أعقبت تلك الكلمات الصادمة، وقد تعلقت أنظار الجميع بصاحب الحكم، تكاد المفاجأة تقتلهم من رؤيته باسمًا قبل أن يخرَّ ساجدًا لله لدقائق، قبل أن يعود من جديد إلى سابق هيئته الواقفة يحادثه القاضي ناطق الحكم قائلاً:

- عليَّ أن أنظر للأمر على أنه حمد لله على ضراء ألمت بك، خيار الفرحة مستبعد بكل حال من الأحوال.

- بل حمد على سراء سيدي القاضي، أما عن الفرحة فهي أولى الخيارات لسماع هذا الحكم المنطوق للتو!

- أفرح أنت باستقبال الموت إلى هذا الحد؟

- وعلام التمسك بالحياة يا سيدي؟ ألاّ ترى في الموت طريق الخلاص لرجل لا يعرف حتى اسمه؟ ألاّ تراه سبيلاً لنجاة رجل عمره خمس سنوات أبيض الشعر؟ ألاّ تراه يرحمني من خصوم لم تشفع لي ذاكرتي المريضة ليتركوني وحال سبيلي؟ ألاّ تراه يرحمني من أحبة ضربوا بسنوات إخلاصي لهم عرض الحائط حين ساورهم شك لحظة في أمري؟ إن كنت لا تراه طريق الخلاص وسبيل النجاة ودرب الرحمة لذلك المسكين الذي حكمت عليه يا حضرة القاضي فكيف تراه؟ لستُ ذلك القاتل الذي تظنه وتظنوه جميعًا، لم يكن اقتراف يديَّ هاتين هاتين الجريمتين نابعًا من رغبة لذلك السفاح الذي تروني في عباءته يتلذذ بمنظر الدماء، أولاهما كانت لإنقاذ ولد هذا الضابط الذي يسمعني الآن، وثانيهما كانت لإعادة حق هؤلاء الجالسين على مقاعد

المتفرجين، ويا ليته شفع لي سوء ظنهم بي، أفقدتني أولى الجرائم صديقًا، كان الأوحد الذي قدَّر ما كنت حبيسه من جدران الصراع النفسي، وأفقدتني ثانيهما محبين طالما كان حلمي الوحيد أن أنهى بينهم أيام حياتي الغامضة تلك في هدوء، أما عن صديق أولى الجرائم فلا أملك له الآن إلاّ مسامحة له، وهو الذي أقحمني في تلك القصة التي ستستمتعون جميعًا بروايتها لأبنائكم تلهونهم بها ليخلدوا إلى فرشهم نائمين، وأما عن محبي ثاني الجرائم فلا أملك إلاّ ذات المسامحة، بدأ قصتي صديق وأنهاها محبون يا حضرة القاضي، وأنا بين البداية ونهايتها قد وضعت خيار التسامح أول الخيارات، أو أنه بالأحرى الخيار الوحيد، أتعلم يا حضرة القاضي؟ قبل خمس سنوات من وقفتي تلك بين يديك بدأت حياة شخص ما بين جدران هذه الحياة، ليس الآن طفلاً يجهز حاجيات مدرسته أو ملابسها ينتظر أولى خطواته في مشوار الحياة تحت ناظري والديه الباسمين الفرحين بانتاجهما، ليست هذه صورة ذلك المولود قبل خمس سنوات الذي تحاكمونه الآن، حينها فاجأني طبيباي بسؤال بديهي عن اسمي الذي لا أعرفه، أدركت حينها أني مقبل على صعاب ستنال مني الكثير، غير أني أبدًا لم أخالها تستوي على تلك النهاية قاتلاً في قفص ينتظر مصير الإعدام، أما زلت متعجبًا من فرحتي بالرحيل حضرة القاضي؟ أما زلت تراني تائهًا في دروب الجنون؟ لا بأس على كل حال بتعجب الكل أو رؤى الجميع، لن

أغادر دنياكم باستفادة واحدة أجنيها من هذه النظرات وتلك الرؤى، يكفيني أنه خط النهاية أخيرًا خطه حكمك عليَّ للتو.

- أي مرافعة تلك التي أسمعها بحق السماء؟ أنه عامي العشرين على منصات القضاء ولم تنعم أذناي بمثلها قبل الآن، مرافعة من متهم ضد خصم مجهول لا يعلمه ولا يعلمه أي من خصومه ومحبيه!

- بل تعرفونه جميعًا وتعشقونه يا سيدي.

- نعشقه؟

-نعم، تعشقونه، خصمي كان دنياكم، أتاحت لي تخبطات سنواتي السابقة أن أراها على حقيقة يجهلها الكثيرون من عاشقيها، الجميع ينافق الجميع، الكل يبغض الكل، نفاق وبغض لم أرَ دونهما في تلك الفترة القصيرة التي عهدتها فيها، خسئت دنياكم وعاشقيها يا حضرة القاضي، خسئت دنياكم وعاشقيها.

(60)

ليست إلاّ فترة قصيرة قضاها ذلك السجين بين جدران سجنه ذات الطلاء الأسود الذي تخطى سواده خواطر قلبه، والباب الموصد الذي تعدت أقفاله مناجاة السالف من أيام ماضيه الذاكر لها، منوال واحد استوت عليه أيام سجنه التي قضاها في مناجاة نفسه، كما اعتاد في سابق أيام سنواته الخمس، لم يجد له رفقاء يزيلون عنه وحشة الوحدة إلاّ تلك الصورة لميت كل ما يعرفه عنه أنه أتاه ذات مرة في حلمه مع وعد بلقاء آخر لا يعلم عن موعده شيء، وورقة ذات اسم وتاريخ مصيرهما بين خلايا ذاكرته كمصير الصورة وصاحبها في كهف من المجهول اندثروا جميعً ا بين صخوره:

- يبدو أني سأرحل قبل أن أرى أحداثك أيها اليوم، لا أعلم ماذا قصد كاتب تلك الورقة التي تضم تاريخك وقد ذيلها باسمه، وكيف جاءت إلى معطفي يوم وقعت فريسة لذلك الحادث المشئوم، لا أحسبك على علم بكل ما حلَّ بي منذ ذلك اليوم الذي خطَّ فيه قلمك تلك الأرقام، فقط سامحني إن كنت في حقك مخطأ كما سأفعل أنا إن كنتَ مرتكب الخطأ، أما أنت أيها العجوز الميت، فما زلت بانتظار وفاءك بوعد قديم قطعته على نفسك بزيارة أخيرة تزيل فيها عني إبهام ما كان، على الأقل سأرحل عن تلك الأحداث وأنا على دراية بتفسير لكل هذه المجهولات الأقرب في تشابكها وتعقيداتها إلى الجنون!

(61)

لم يكن ذلك الممر خارج تلك الزنزانة الضامة لذلك المنتظر موته بمعزل كثيرًا عن الأحداث، وإن لم يقصد رواده ذلك، حارس معتاد وجـــوده أمام باب محكوم على من خلفه بالإعدام، جلس كعادته يمارس مهمـــة حراسته في هدوء، قبل أن ينتبه لسلام ذلك العجوز العامل المعتاد على تنظيف ذلك الممر، كتنظيف غيره من ممرات السجن كما هو عملــه منذ سنوات.

- أهلاً بك يا عم (سيد)، أنرت المكان أيها العجوز.

- منير بأهله يا بني.

قول أثار ضحك ذلك الحارس قبل أن يكون جوابه:

- لعلك تقصدني أنا يا رجل، لا أظنك ترى محكومًا عليه بالإعدام ينير المكان.

قول استقبله ذلك العجوز ساخنا قبل أن يكون رده المازح:

- كلاكما شركاء في شغل المكان يا عزيزي، بالمناسبة من شـــريكك هذه المرة؟

- سجين غريب الأطوار، مشهد محاكمته كان جـــديرًا بالتســـجيل، يقولون إنه سجد شكرًا لله عقب صدور الحكم.

- ماذا؟ سجد شكرًا؟ أهو مس من الجنون؟

- هكذا كان ظن الجميع به، غير أن يأسه من التعـــافي مـــن فقـــدان الذاكرة الذي يعاني منه كان سببًا في تفضيله الموت على حياة لا يعلم عنها شيئًا كما يقول.

- قد تكون حجة أراد بها الهرب من حبل المشـــنقة، هـــؤلاء القتلـــة يتقنون من الألاعيب ما هو كفيل بتخليصهم من مثل تلك الأخطـــار، حكم كالإعدام كفيل بجعلهم ينتسبون لأي مرض ولـــو حـــتى كـــان الجنون.

- الشاهدون على محاكمته لا يرونه أبدًا كذلك، كلماتـــه للقاضـــي كانت ذا وقع عظيم على الجميع وأولهم الضابط (مازن السيد)، ذلك الذي كان شريك البطولة إلى جواره في تلك القضية غريبة الأطوار.

حديث قصير بين الطرفين قطعته مناجاة ذلك السجين لنفسه، وقد علا صوته بشدة؛ فطغى على ذلك الحديث الذي تناول بعضًا من ســـيرته، كان إنصات الاثنين طبيعيًا إلى حد كبير وهما غير المعتادين على بلاغة ينعم بها القتلة وسافكي الدماء، غير أن إنصات ذلك العجوز كـــان ذا طابع مختلف، وكأنه به قد عانقت أذناه ذلك الصوت قبل الآن.

لم يدرِ بنفسه إلا مترجيًا ذلك الحارس بصوت، كأنه به قد أوشك على البكم قائلاً:

- هل، هل لي بطلب يا بني؟

- بالطبع يا عم (سيد)، سل ما شئت.

- أريد رؤية ذلك المتهم!

- ماذا؟
- كما سمعت، أريد رؤية ذلك المتهم.
- مستحيل يا عم (سيد)، تعلم أنه من المحظورات فتح زنزانة تضم سجينًا بدون إذن أو استدعاء.
- أعلم يا بني، أعلم، ليست إلاّ دقائق فقط لن تتعدى الخمس، تلك التعليمات موضوعة خوفًا من هرب سجين أو ما شابه، غير أن هذا المتهم قد يبدو على قصته أنه غير راغب في الهروب أو آمل في الفرار، وهو المُحبِّذ لبقائه بين تلك الجدران على خروجه لحياة لا يعلم عنها شيئًا كما تقول، سجوده لله شكرًا وحواره مع القاضي ناطق الحكم يثبتان ذلك بقوة.
دقائق من الإلحاح كانت كافية لإقناع ذلك الحارس برغبة صديقه العجوز، فتح الزنزانة في قلق يتلفت ومرافقه حولهما يتأكدان من عدم وجود ثالث يراقبهما، خطوات قليلة خطاها ذلك العجوز إلى الداخل، يترقب ذلك السجين المستمر في مناجاة نفسه حينًا ومناجاة دنياه حينا آخر، وبين أحيان المناجاتين قد عجز كعادته عن العودة لأيام ما قبل أعوامه الخمس، اقترب منه في هدوء شديد، حتى التقت عيناه بوجهه الناظر إلى لا شيء في سقف الزنزانة، وقد بدا عليه أنه لم يُدرك وجوده إلى جانبه بعد.

لحظات من الصمت أحاطت المكان كان ملخصها تلك الحالة المصدومة لذلك العجوز ذي العينين الجاحظتين والفاه الفاغر، قبل أن يتحرك لسانه في تثاقل قائلاً:
- م...(محمد)؟
قالها وصمت حينًا بانتظار رد ذلك السجين عليه ولو بنظرة تُشجعه على استكمال حواره دون جدوى، فقد بدا كجماد خُلق على تلك الحالة وعليها سينتهي أمره؛ فكان استطراد ذلك العجوز قائلاً:
- (محمد)، أتسمعني يا بني؟
لعل ثاني النداءات تلك قد لاقت من اهتمام ذلك السجين المسكين الذي التفت إلى مخاطبه المصدوم قائلاً في برود لا يلائم الموقف كثيرًا:
- أهو بطل ثالث سأعيش قصته دون أن أعلم عنه شيئًا؟
- ألاّ تذكرني يا (محمد)؟ ألاّ تذكرني يا بني؟
- لابد أن الأمر يختلط عليك أيها العجوز، إليك عني بالله عليك، فلدي ما يكفيني ولست بحاجة للمزيد من المتاعب.
- تفرس في وجهي جيدًا يا عزيزي، أنه عمك (سيد) يا أبا (علاء)!
هنا كان انتفاض ذلك الخاطى أولى خطواته في دربه الثالث الذي رسم ذلك الاسم الذي طال بحثه عن صاحبه سنوات أولى خطواته، فكان رده ذو كساء الصدمة قائلاً:
- ماذا؟...أقلت (علاء)؟

(62)

الوضع لا زال على استمراره من اهتمام ذلك الضابط بقضيته تلك رغم انتهائها، بل ودوره البارز في انتهائها، بدا وكأنه لم يُرد لها انتهاءً، أو بمعنى أقرب للدقة لم يُرد لها انتهاءً على هذا النحو، لعل السبب الأكبر في ذلك الشعور المناقض؛ لما كان من تعامله السابق مع الأحداث، كان لأنه الوحيد الذي شهد إلى جوار بطل القصة السجين سنوات معاناته الخمس كاملة، جرائمه إلى جوار (العوضي)، ثم لقاء وداعهما حين وافت المنية الأخير تُظله من معاني الصداقة ما يندر وجوده بشدة في ذلك العالم الذي يطارد أهله، صراعه معه ثم تضحيته لإنقاذ ولده من مخالب كانت لتؤدي بحياته إن تطور الأمر، مثاليته البادية في كتاباته المخطوطة على قلوب (لبنى) و (مهاب) و (بهاء) قبل خطها على سطور أوراقه، ثم تعاونه المشبوه مع (البنهاوي) في عمليات دامت لعامين، أحداث عدة غلب عليها التناقض وإن تتابعت في وقت قصير، طغى عليها التضاد وإن تشابكت في مدة لا تتسع في العادة للقليل منها، قبل أن تضع جرائم قتله وما تبعها من محاكمته حد النهاية لتناقض الأحداث وتضادها، كان حديثه إلى أحد رجاله ذا طابع غلب عليه الحزن واليأس إلى حد كبير، حزن على ذلك المصير الغامض لقضية فشل في إيجاد تفسيرها وإن أوقع بطلها، ويأس من العثور على هذا التفسير المنشود من الجميع.

- أرى الشرود قد نال من تفكيرك كثيرًا يا سيدي.

- أمر هذا السجين ذا الاسمين لا زال يشغلني إلى حد كبير.
- أرى الأمر قد انتهى يا سيدي بمحاكمته، لا داعي لمزيد من تفكير لن يسفر عن جديد في مصير تلك القضية التي طالت لخمسة أعوام، ظننتك تفرح لنجاحك في الإيقاع به وانتهاء الأمر لصالحك على هذا النحو.
- تعلم جيدًا أني لم أوقع به، أثق في صدق كلامه حين قال إنه انتوى تسليم نفسه لي عقب انتهاء الأمر بقتل (البنهاوي) و (الصياد)، لم أكن لأوقع به لو لم يُردْ هو ذلك ويعقد عليه العزم صادقًا.
- النتيجة واحدة يا حضرة الضابط، أُغلقت القضية بالقبض عليه وتقديمه لمحاكمة عادلة آمن هو نفسه بعدل قضاها وانتهى الأمر، بل وتمنى هذا الحكم حسب كلامه في المحاكمة للقاضي ناطق الحكم.
- أمنيته تلك لم تكن إلاّ أملاً في الهروب من مصير آخر لا يعرفه، قد يتخطى بسوء مصيره مصير الإعدام، أراه اكتفى بما كان من مطاردات ومؤامرات وعداءات أضاعت ما وعاه من سنوات عمره في لا شيء.
- تبدو وكأنك نادم على الإيقاع به وتسليمه للعدالة يا سيدي.
- للمرة الأخيرة أذكرك أني لم أكن لأوقع به لو لم يُرد هو ذلك، أما عما تسميه ندمًا فلا أرى شعوري يلائمه هذا الوصف كثيرًا، هو فقط الإشفاق على حال مريض سيرحل عما قريب دون أن يعلم لما كان من غموض قصته أساس أو يعي لما كان في إبهامها سبب.

- وماذا وسعك فعله يا سيدي؟ لست إلاّ ضابطا يجتهد في كشف غموض مجرم أرهق قوى العدالة مدة لا يعلم أحد إن كان لمدة السنوات الخمس أم امتد الأمر لأكثر من ذلك.

- كوني ضابطًا لا يعني أبدًا التخلي عن أساسيات الإنسانية يا عزيزي، شعوري تجاه هذا السجين بالشفقة لا أراه يجب إدراجه تحت قوانين المهنة أو التزاماتها، فليس لمهنتنا تلك علينا إلاّ الوفاء بحقها في تنحية التعاطف الإنساني جانبًا وقت العمل، أما وقد وفّينا الحق وأدينا العمل، فلا أرى قيود المهنة يحق لها إلزامنا بإزالة صفات الإنسانية من قواميس قلوبنا.

- تبدو لي مثاليًا إلى حد كبير يا سيدي في موقفك تجاه هذا السجين.

قول لاقاه (مازن) بابتسامة متكلفة قبل أن يكون رده المتكلف على شاكلة ابتسامته:

- بل تبدو لي أنت ذا موقف عدائي إلى حد كبير تجاه هذا السجين يا عزيزي.

- ليس عدائيًا، هي فقط تلك النظرة المعتادة لمجرم لاقى جزاءه على إجرامه، أما عن غموض قصته، فمن يدري؟ لعلَّ الأيام لا تبخل على الجميع بالكشف عنه عما قريب.

زفير أخرجه (مازن) كرد يحمل اليأس من صدق تخمينات صديقه قبل قوله:

- أتمنى ذلك يا صديقي، أتمنى ذلك.

(63)

لعل ذلك الاسم (علاء) الذي لفظه ذلك العجوز قد نال كثيرًا من اهتمام مخاطبه، ولم لا وهو الاسم الذي طالما لازمه في سنواته الخمس، دون أن يعلم عن صاحبه أو ورقته ذات التاريخ الذي ذيله ذلك الاسم شيئًا، بدا سؤاله لذلك العجوز ذا وقع غريب بعض الشيء على الاثنين، وقد بدا أن صلة القرابة بينه وبين ذلك الـ(علاء) قد فاقت توقعاته بكثير.

- نعم يا بني، (علاء) ولدك الذي فارقته قبل خمسة أعوام.

استقبل (شريف) أو (عبد الرحمن) أو كما سماه هذا العجوز (محمد) الكلمات بهيئة ثابتة دون حراك، حتى اجتمعت له قواه من جديد؛ فكان كمن أصابته صاعقة جعلته كما الثعبان يتلوى باحثًا بين ملابسه عن شيء ما عثر عليه أخيرًا، وأعطاه لذلك العامل الطاعن قائلاً:

- أتعلم شيئًا عن هاتين أيها العجوز؟

التقطهما (سيد) يدقق النظر فيهما باسمًا، قبل أن يعيد نظره إليه قائلاً:

- يا الله، لا زلت تنعم بنفس القدر من وفاء أبيك صاحب تلك الصورة يا بني، لا عجب أن ولدك كاتب ذلك التاريخ على شاكلة أبيه وجده.

- أخيرًا عثرت على من يملك للغزي حلاً، أُقبِّل يدك أيها العجوز، أُقبِّل يدك أخبرني بكل ما تعلم عن قصتي.

قالها وقد انقض على يديه يقبلها بالفعل، قبل أن ينأى ذلك العجوز بيديه عن ذلك دافعا هذا السجين لاستطراد كلامه قائلاً:

- لست بحاجة لتوصيتك بمراعاة ضميرك أمام الله في كل صغيرة وكبيرة تلفظها، لن تجد في كل الأحوال أدنى مقاومة عقلية مني في ظل ذلك الضعف الذهني الذي لم أجد له علاجًا.

- أستغفر الله العظيم، أو بمثل هذا يوصي الابن أباه يا (محمد)؟ لست بحاجة لمثل تلك التوسلات يا بني، كان هذا قبل زمن بعيد يمتد لعقود، حين قضت الظروف بانتقالي شابًا مع زوجتي إلى سكن جديد في القاهرة، بعد سنوات عشناها إلى جوار والدي في إحدى قرى الصعيد حتى وافتهما منيتهما، عانيت بعض الوقت من غربتي بين جدران المكان كأي وافد صعيدي إلى زحام ابنة المعز، وأنا لا أعرف فيها أحدًا حتى منَّت عليَّ الأقدار بجار، أزال عني الكثير من إحساس الغربة الذي تملكني لشهور، كان يُنادَى (عثمان)، لم نحتج إلا وقتًا قصيرًا لاندماج الأسرتين الصغيرتين كأسرة واحدة ذات أفراد أربعة، كان وزوجته نعم الإخوة لي ولزوجتي وكذلك كنا إليهما، ظل الجميع على هذا الوضع المريح ما يقارب العامين، حتى كانت فرحتنا جميعا بثلاثة توائم منَّ الله بهم على صديقي وزوجته، أسماهم (عبد الرحمن) و (شريف) و (محمد)، غير أن خيار القدر بإنهاء تلك الحالة من السعادة قد جاء باكرًا بأسرع مما توقع الجميع، رحل (عثمان) تاركًا أرملة وثلاثة رُضع لا يملكون من حطام الدنيا إلاّ صورته تلك التي تعبث بها يداك الآن،

غير أن انتظار تلك الأرملة لم يستمر كثيرًا لتهرب من مسئولية التوائم، إذ فوجئت ذات صباح بالرضع الثلاثة على بابي وفوق أوسطهم ورقة مفادها أن أمهم قد عهدت إليَّ بمسئوليتهم، بعد فقدها الأمل في تدبير احتياجاتهم بعد رحيل زوجها، الذي كان مصدر دخلها ودخل أطفالها الوحيد، لم تكن حالتي المادية حينها تسمح بالتكفل بثلاثتهم، فكانت كفالتي لأحدهم وكان (محمد) قبل أن أعهد لصديق لي يعمل في دار أيتام بـ(عبد الرحمن) و (شريف) يضمهم إلى أطفال الدار، وظل الوضع هكذا عدة أعوام، وأنا أتابع أخبار التوأمين عن بعد من صديقي العامل...حتى نما إلى علمي هروب (عبد الرحمن) قبيل فجر إحدى الليالي، لم أكن لأستبعد ذلك على كل حال أو أتفاجئ لسماعه بعدما استنبطه من متابعتي له طوال سنوات بقائه في دار الأيتام، عهده الجميع متمردًا على كل أمر ناقمًا على كل شيء، وعليه فقد كان هروبه مسألة وقت توقعها الجميع وانتظر هو السانح من الفرص لتحقيقه، أما عن ثاني التوائم (شريف) فقد كفله أحد كبار تجار الإسكندرية، أظنه يُدعى (أمين) أو (شاهين) أو شيء كهذا، ورحل معه إلى هناك بعدما رأى فيه الرجل مساعدًا جيدًا قد يضيف لعمله شيئًا، ومن يومها انقطعت عنى أخبار الأخوين، فبقيت على عهدي من كفالة ثالثهم إلى جوار ابنتي (كريمة)، حتى اشتد ساعده وتخرج في كلية التجارة والتحق بعمل في إحدى الشركات، قبل أن يتزوج من تلك الـ(كريمة)، التي تربى إلى جوارها في كنف أبيها،

زواج استمر سنوات أسفر عن مولود وحيد سماه والداه (علاء)، كان قرة عين أبيه وسواد مَيْن أمه، كان يـــوم ترشـــيحه لكليـــة الهندســـة مشهودًا، وهو الذي حقق لأبويه وجده أمنية طال انتظارها من هـــؤلاء المكافحين الثلاثة كثيرًا، لم يكن ذلك الصغير لتتوقف أحلامه عند ذلك الحد، عقد العزم على التفوق في حياته الجامعية وكتب ووالده ورقتين بهما تاريخ معروف عنه كونه حفل التخرج لطلاب الكلية كل عـــام، زين واحدة بتوقيعه أعطاها لوالده، وزين والده أخرى بتوقيعه أعطاها له، كوعد من الاثنين على الاجتماع في لقاء آخر يظلها نجاح أصغرهما ويحتويه فخر أكبرهما، إلاّ أن القدر الأعلى أراد بحكمته ترتيبًا آخر غير ما اطمأنت له أحلام الثنائي الحالم، فكان رحيل (كريمة) تظللها غِـــراب منيتها في ليلة كانت الأحلك في أيام الأب والزوج والابن على حـــد سواء، يومها خرج (محمد) إلى رحاب الشارع، يلتمس بعضًا من دواء القدر يداوي به جراح أحزانه التي اعتاد دومًا الانفراد بهـــا يعالجهـــا وحده، لكنه الخروج الذي تأخرت عودته لخمس ســـنوات، قبـــل أن يعثر الأب على زوج ابنته من جديد قابعًا ينتظر إعدامه في ظلام زنزانة لا يطأها إلا سافكي الدماء!

سرد طويل لحكاية لا يلائمها إلاّ وصف الخيالية؛ لولا تلك الإثباتـــات التي قدمها العجوز من بعض الإثباتات التي لم ينطقهـــا (محمـــد) لـــه كـــ(عبد الرحمن) و (شريف) و (شاهين)، إضـــافة لقصـــة الصـــورة والورقة اللتين لم يجد لهما غيره تفسيرًا.

دقائق عدة نالت من ثبات ذلك البطل المسكين الذي تساقطت دموعه بشدة على تلك الحقيقة الغائبة التي انكشفت أخيرا بعد فوات الأوان، لعل انكشافها في السابق كان سيخفف من إيلام ذلك الواقع شـــيئًا، حياة هادئة إلى جوار ابن متفوق وأب حنون طالما تمنى حياة تنعم بجـــزء من جزء من هدوئها، غير أنه طريق أيامه الذي قضت مصائره برســـم خطواته التي تخالف تمامًا ما تمناه من خطوات، لينتهي به الأمر أخـــيرًا مغشيًا عليه بين يدي هذا العجوز راوي حقيقة لغز السنوات الخمس!!

(64)

لم يكن على (مازن) ذلك المنتظر عطف الأقدار بحل قضيته ليطول انتظاره كثيرًا، حتى طفا ذلك الحل المنتظر على سطح الأحداث في نهاية المطاف، فترة قصيرة كافية لعودة ذلك البطل المغشى عليه لوعيه من جديد؛ ليكتمل أطراف الحديث جميعا في مكتب (مازن) يستمعون لسرد ثان لتلك القصة التي يحفظ ذلك العجوز أدق تفاصيلها، لم يختلف رد فعل باقي الحضور عن رد فعل ذلك السجين كثيرًا، إلاّ من قليل من ثبات منعهم من مثل سقوطه فاقدين للوعي كما كان سقوطه.

تعلقت به الأنظار حينًا وهو على حاله من عدم العبء بنظرات، هو على ثقة أن إشفاق أصحابها لا يملك له من مصيره خلاصًا، غير أن ذلك البرود البادي في مظهر تعامله مع الأحداث قد أخفى الكثير من براكين آلامه المتأججة بين جنبيه، حتى خارت قوى ثباته في نهاية الأمر، معلنة فيضان هذين النهرين من دموعه اللذين شقًّا مجراهما في قناتين شُقتا في خديه في سالف الأيام.

لحظات من الصمت كاد فيها سريان دموع (محمد) يسفر عن صوت يسمعه الجميع، قبل أن يخطو إليه (مازن) عدة خطوات يحتضنه في مشهد نال من عاطفة جميع الحضور، ضابط يعانق متهمًا بالقتل طالما أرهقت المطاردات كليهما لسنوات، ليجتمعا أخيرًا على تلك الصورة التي لا تعهدها كثيرًا تلك العلاقة البوليسية-الإجرامية، بل لا تعهدها من الأساس

- قد لا تبدو الكلمات ذات قيمة الآن يا عزيزي، غير أني لم أعد أملك غيرها بكل الأحوال، لا أعلم إن كنت تقبل اعتذاري لك عما كان من سوء ظني بك أم لا، قد تراه تأخر كثيرًا أو جاء بعد فوات الأوان، كان أداء لواجب فرضته عليّ ظروف عملي ليس أكثر، قد يشفع ذلك الغموض الذي أحاط بالأمر منذ بدايته رعونتي في كثير من المواقف، وإن كنت لا أرى تلك الشفاعة تعني لك الكثير بأية حال من الأحوال، غير أنها تعني لمخاطبك المشفق عليك ذلك كثيرًا، وهو الذي بات على ثقة أن سجلات الجريمة قد ضمت اسمك رغمًا عنك وعني وعن الجميع.

كان (مازن) على حق حين قال إن تلك الكلمات بلا قيمة لذلك الباكي، بدا كأنه لا يسمعها، أو بالأدق لا يريد سماعها، ظل على صمته حينًا، حتى فوجئ به الجميع متحدثًا بعد انقطاع طويل عن الحديث قائلاً:

- هل لي بطلب أخير يا حضرة الضابط؟

- بالطبع يا عزيزي، بالطبع، سل ما شئت.

- أريد الوفاء بذلك الوعد!

قالها وقد أشهر ورقته ذات التاريخ، تلك التي نظر إليها (مازن) بتمعن بعدما أُشهرت في وجهه قائلا:

- تريد حضور ذلك الحفل؟

- بل أريد رؤية من عاهدت وحسب.

صمت (مازن) حينا قصيرًا ينظر إلى الأرض، قبل أن يرفع رأسه من جديد يخاطب (محمد)، وقد عقد العزم على تلبية طلبه ولو في الخفاء رغم صعوبة استطاعته لذلك قائلا:

- لك ذلك يا عزيزي، أعدك، لك ذلك!

(65)

إنها إذن تلك القاعة التابعة لكلية الهندسة بجامعة القاهرة، الأجواء كلها توحي باحتفالية في طريقها للنجاح في ظل فرحة الجميع بجيل جديد من خريجي هذا البناء العريق، حيث مدد جديد اعتادت عليه مجالات العمل الهندسي بين أرجاء المحروسة كافة من هذا البناء كل عام، صفوف من مقاعد انتظم عليها الجلوس بين خريجين جاءوا للاحتفال بانتهاء مسيرة تعليمية عامرة بنجاحها، وأولياء أمور كان مجيئهم لنفس الفرحة بفلذات أكبادهم ينهون سلمًا للدراسة ويبدأون آخر لعمل، كان رجاء الجميع أن يُتوَّجه ذات تاج النجاح الُمتوج لأولى السلالم، وأخيرًا تلك الثُلة من أساتذة الكلية لا يختلف سبب حضورهم كثيرًا عن حضور طلابهم وأهليهم، لعل هذين المستترين خلف أحد ستائر المكان بعيدين عن جميع الأنظار قد نجحا تمامًا في التخفي عن أعين الحضور، ضابط ومتهم محكوم عليه بالإعدام، وقفا يتابعان كل دقيقة بالحفل بانتظار اصطياد عينيهما لذلك الابن الواعد أباه بالاجتماع في مثل هذا اليوم قبل خمسة أعوام، أب كانت أولى المقاعد في أولى الصفوف أولى باحتضانه في احتفال نُصِّب ابنه كأبرز أمرائه، غير أنها تدبيرات الأقدار التي أبت إلاّ وقفة مستترة، لذلك الأب المكلوم خلف ستار لا يراه فيه إلاّ مرافقه الضابط، وقد عجز حتى عن عناق ابنه للحظات، هدأت الأجواء قليلاً الآن وقد بدأ الاحتفال على خشبة ذلك المسرح، الذي استوى في مقدمة المقاعد تتعلق به أنظار الجميع،

هدوء جمع إعجاب الحضور بذلك الخريج الصاعد لدرجات المسرح وتقديرهم لتفوقه الذي دفعه لمثل ذلك الصعود، فكان نتاج الإعجاب والتقدير ذلك التصفيق الحار المُزفُّ لخطواته على سطح المسرح، حتى وقوفه على منصة خاصة أُعدَّت لأول الدفعة المُحتَفَل بتخرجها، وقد سبق اسمه وقوفه يلمع في مسامع الجميع (علاء محمد عثمان) قبل أن ينصت الكل لكلماته

- لا أراني سأتكلم كثيرًا اليوم عن تفوق وصلت إليه، هناك شخص آخر جدير بإفراد مساحة أكبر للحديث عنه، لا أدري إن كان لا زال ساكنًا إلى جوارنا في هذا العالم أم سافر إلى أحباء له في العالم الآخر، لا تعنيني كثيرًا إقامته الآن وهو الذي لم تغادر عناقاته لي أسمى قمم الذكريات في ذهني الشاب، قديمًا كتبنا سويا ورقتين صغيرتين تحويان تاريخ اليوم، كتبت ورقته التي لا أعلم إن كان مصيرها إلى جواره تحت تراب أحد القبور أم لا زالت في أحد جيوب معطفه تتغزل فيها عيناه من حين لآخر.

كلمات يتلقاها ذلك الأب الدامع، تشتد أصابعه على تلك الورقة المذكورة دامعة لها بشدة عيناه، وقد طوق كتفيه ذراع ذلك الرفيق الضابط المتابع للموقف يكاد ينهار إشفاقًا على ذلك الواقف إلى جواره خلف الستار قبل أن يعودا لحديث الابن المتفوق القائل:

- ولا زالت آثار يده تنير ورقتي تغازلها عيناي بين الأحيان، اقتصرت أمنيتي طوال السنوات السابقة على اجتماع الورقتين في مثل تلك

الساعة، لكنها إرادة القدر التي لم تشأ أن تنعم عليّ بلقاء طالما تمنيته وتمناه الطرف الثاني لذلك العهد القديم، ليس بوسعي الآن إلاّ أن أقول وبأعلى ما أستطيع أني أعشقك يا أبي، لا أدري إن كانت كلماتي تلك ستصل إليك يومًا أو لا، لكنه الشعور الذي أبَى إلاّ أن يجسده لساني في كلماتي الصادقة التي تسمعونها الآن، لعلك لم تترك لي من آثارك غير حافظتك تلك التي ستظل رفيقتي حتى آخر اللحظات، لا زالت تزكيها رائحتك وتزينها بصماتك وتتصدرها بطاقتك وصورتي الصغيرة إلى جانبك قبل سنوات في طفولتي، علّي ذات يوم أمررها إلى ابن لي يحمل من ذكريات عاطرة لأبيه ما حمله أبيه لجده، لعلّي قد أطلت عليكم ساداتي الحضور، قد يشفع لي حواري لأبي الذي لا أعلم له مصيرًا بعض الشيء، شكرًا جزيلاً لحسن استماعكم.

كلمات نالت كثيرًا من عاطفة الجميع، وهم يشهدون ذلك الوفاء من ابن بار بأبيه رغم غيابه عنه، دمعت أعين البعض، صمدت أعين آخرين على مضض، انفطرت قلوب البعض، وثبتت قلوب آخرين في عسر، وإن كان التصفيق الحاد المتبوع بوقوف الجميع تقديرًا لكلام ذلك الشاب هو السمة الغالبة على الموقف.

لعل تصفيق ذلك العجوز (سيد) قد حمل اختلافًا بعض الشيء عن تصفيق المحيطين، وقد تاهت نظراته بين هذا الابن الواقف دامعًا يتلقى تحية سامعيه وهذا الأب الواقف إلى جوار رفيقه الضابط يدمعان سويًا كما هي الحالة الغالبة لشاغلي المكان، حتى أنهى وقوعه مغشيًا عليه بين

يدي هذا الضابط ذلك المشهد الأخير له في دنياه التي كثيرًا ما أدمت قلبَه مشاهدها على مدار سنوات خمس.

(66)

هي مجددًا تلك الزنزانة الحاوية لبطل الأحداث، لازال رغم إسعافه على حالة من عدم الاتزان دفعته لنوم طويل لم ينعم بمثله منذ عهد ليس بالقصير، مشهد قد غاب عنه منذ سنوات، حين كانت نفس الأجواء لحلم قديم أعقبت رحيل (العوضي) أول أصدقائه في حياته الجديدة ذات الاسمين، ليل قد أظلّ فضاءً فسيحًا، كأنه به قد وطأته قدماه قبل الآن، وقد وقف ينظر إلى ذلك الشيخ ذي الرداء الأبيض واللحية بنفس اللون، هيئة ألفها كثيرًا طوال الأعوام الخمسة بعدما صاحبته صورته خلالها كجزء من أجزاء جسده غير قابل للانفصال:

- وفاؤك بالوعد تأخر كثيرًا أيها العجوز.

- أولاً تقول أبي يا بني؟

- ألهذا الحد تمثل التسميات فارقًا أيضًا لدى الأموات؟ ظننتها طبيعة لأهل الدنيا فقط يتمسكون بمثل تلك الشكليات.

- أترى انتسابك إليّ بالبنوة شكليات يا (محمد)؟ ظننتك تفخر بأبيك الذي لم تفارقك صورته طوال عقود يا عزيزي.

- للابن على أبيه حقوق يا والدي العزيز، أولها تنبيهه عند أي خطوة قد تؤدي به إلى نهاية يكرهها الأب قبل الابن، على مثل تلك البدائيات كان احتفاظي بتلك الصورة المذكورة يا رفيقي العجوز.

- لعلك قاصد تلك الزيارة القديمة حين امتنعت عن كشف المحجوب من حقائق كانت لتغير من أحداث حياتك الجديدة الكثير، أليس كذلك؟

- من الجيد أنك قد لامست للحقيقة أخيرًا وترًا تُكمل عليه عزف حديث زيارتك القديمة الغامض يا..أبي!

- حلول عقبات الحياة ليست بمثل هذه السهولة التي تراها الآن يا بني، لو أن مشكلات سنوات يحمل حلها حلم دقائق لاختفى من أيام الجميع لفظ مشكلات من الأساس.

- قد تكون محقًا إلى حد كبير يا عجوزي العزيز، غير أن علاقة الأبوة تبقى ذات طابع خاص ينتظره الابن دومًا حاملاً من الاستثناءات ما يتخطى به حدود المعقول إلى ذلك الجانب الآخر حيث اللامعقول.

- الحياة مثل فيلم طويل غير معلوم النهاية يا ولدي، الكشف عن تلك النهاية قبل أوانها يفقده عادة ما يمكن له أن يحويه من قيمة لمشاهديه.

- لمشاهديه الأولوية إذن على حساب بطل الفيلم، منطق قد يروق للكثيرين من بينهم أنت يا والدي، غير أني أبدًا لا أراه يروق لي على أي نحو.

- لا يروق العذاب للمعذبين به أبدًا يا (محمد)، نظرة الحياد تبدو بلا وجود في هذا الوضع يا عزيزي.

- وماذا عنك وأنت المتابع لأحداث الفيلم من مقاعد الحياد كما تسميها يا والدي الراحل؟ أتراك استمتعت بمشاهد العذاب التي جسدها ولدك بكل اقتدار؟

- مخطأ إن ظننت أن لوالد أن يسعد لسوء ألَمَّ بولده يا بني، بل لا يحتمل مجرد رؤيته على وضع لا يرضاه...لعلك لمست بنفسك ذلك الإحساس في تكريم ولدك.

- ولدي؟ ومن أكثر تعاسة من ولدي وأبيه؟ تكريم كنت الأولى بكوني أبرز حاضريه وأنا والد أبرز متفوقيه، لينتهي بي الأمر مستترًا خلف ستار أخشى أن يرمقني أحدهم بعينه؛ فيكون طردي وحرماني من رؤية ذلك التفوق الذي عاهدنا بعضنا سويًا عليه قبل سنوات خمس.

- لا يضيع عند الله أجر يا بني، إن استحققت أجرًا فالله أعدل الحاكمين يجازيك برحمته أضعاف أضعافه، وإن لم يكن لك من الأجور ما أنت جدير به، فلن يظلم الله من عباده أحدًا.

- صدقت أيها العجوز، صدقت، على كل حال ليست إلاّ أيامًا وأشهد أعدل المحاكمات لدى أعدل الحاكمين بين جدران قبري، من يدري؟ لعلها المحاكمة التي تعوضني عن سابق سنواتى تلك.

- كن على دعائك بذلك يا بنى العزيز، الله أبدًا لا يرد دعوة الداعي إذا دعاه، أما الآن فقد حان وقت انتهاء زيارتي إليك، إلى لقاء قريب يا عزيزي.

- إلى لقاء قريب يا، أبي.

انتهى إذن ذلك اللقاء الذي انتظره (محمد) كثيرًا، حتى جاء أخيرًا بعد انكشاف جميع المجهولات؛ ليصبح في نظر هذا الحالم بلا قيمة إلاّ من بعض هدوء كان يحتاج مثله في حديث مثل هذا، قبل أن ينتبه لذلك الصوت القادم من خلفه بعد غياب أكثر من عامين:

- إيهِ يا صديقي العزيز، تأخر ثاني لقاءتنا كثيرًا منذ آخر زيارتي إليك.

- (عوضي)؟

- وهل من أصدقائك من هو حريص على لقائك مثل (عوضي) يا (محمد)؟

- قلتها بنفسك يا عزيزي، (محمد)، لست صديقك الذي هجرك قبل أعوام وظننته عاد إليك بعد تلك الحادثة اللعينة.

- بل أوفى أصدقائي أيها الـ(محمد)، لا تعني لي الألقاب شيئًا وأنا الباحث دومًا عن نفس صافية وقلب مخلص، رُبَّ اسم ملئ الأسماع والأبصار وهو الحامل من شوائب النفس وفساد الفؤاد ما هو كفيل بنبذه من الجميع.

- أراحتني كلماتك كثيرًا يا صديقي الراحل، لعلها الأكثر طمأنينة نفاذًا إلى أسماعي منذ تلك الليلة البائسة حين كان وداعنا.

- أنت من تقرر هوية ما تسمعه يا عزيزي، بإمكانك النظر فقط إلى نصف الكوب الممتلئ، أما إن ظل بحثك متعلقا بالفارغ من الأجزاء فلا تلومن إلاّ نفسك، تذكر على سبيل المثال حديث ذلك الطفل ابن الضابط إليك في قفص الاتهام، ألم يرك كبطله الوحيد؟

- ماذا؟ كيف علمت بأمر ذلك الحوار؟

ابتسم (العوضي) لسؤال صديقه قبل أن يقول:

- لم تغب يومًا عن رقابتي يا صديقي العزيز، ولهذا كانت زيارتي اليوم إليك، أخبرك بفخري أني صادقت ذات يوم رجلاً مثلك.

- أستنتج من ذلك أنك لست غاضبًا من نقضي لعهدي معك حين تعاونت مع (البنهاوي)؟

- قلتها مسبقا عند قبري وأصدقك يا صديقي، تعاون كان له من الأسباب ما هو جدير بجعلي أهنئك به لا ألومنك عليه.

قول قابله (محمد) بابتسامة متكلفة دون رد قبل أن يستطرد صديقه في حديثه:

- أتوق بشدة للقائنا الذي تواعدنا عليه قديمًا يا (محمد)، أراه قد حان عما قريب.

- أقرب مما تظن يا (عوضي)، أقرب ما تظن يا صديقي.

- سأبقى إذن على انتظاري لك على أحر من الجمر، إلى اللقاء يا صديقي.

- إلى اللقاء يا صديقي القديم.

(67)

مجددا تدفع الأحداث بأنظار الجميع إلى هذا المكتب حيث لقاء من نوع مختلف جمع ذلك الضابط صاحب المكتب وذلك الضيف الذي تأخر ظهوره على مسرح الأحداث كثيرًا وإن كان ظهورًا طال انتظاره من الجميع وخاصة أبيه السجين منتظر الموت:

- أعلم أن العجب قد نال منك كثيرًا من استدعائي لك يا مهندس (علاء)، وأنت أبدًا لم تطأ قدماك طرقات السجون.

- استنتاج في محله يا حضرة الضابط.

- أعتذر بشأن ذلك على كل حال، وإن كنت على ثقة أنك ستلتمس لي العذر حين تعلم بحقيقة ذلك الاستدعاء.

- أتمنى ذلك يا سيد (مازن)، لا أمانع أبدًا في تقديم مساعدة تحتاجونها تحت أي ظرف من الممكن أن أكون ذا فائدة فيه.

- لم يخب ظني بك يا عزيزي، أنت إذن كأبيك دائمًا سبَّاق إلى مساعدة الغير.

- ماذا؟ أبي؟ ومن أين لك بمعرفة أبي سيدي الضابط ؟

قالها (علاء) وقد ضاقت عيناه وكاد حاجباه يتلامسان في وضع غطاه التعجب من ذكر هذا الضابط لأبيه، بصورة تنبئ عن معرفة سابقة به، بل ومعرفة جيدة أيضا.

- مهلاً يا عزيزي، مهلاً، كل ما في الأمر أني كنت من حضور ذلك الحفل قبل يومين...استفزت مشاعري بشدة كلماتك عن أبيك الغائب.

- أشكر لك تقديرك يا حضرة الضابط، هذا من دواعي سروري، لكن، ألمثل هذا السبب كان استدعاؤك لي اليوم؟

- أراك متعجلاً إلى حد كبير يا صديقي الشاب.

- ليس تعجلاً بقدر ما هو رغبة في بدء حوار حول السبب الحقيقي لوجودي هنا، لا أرانا خضنا في حديث ذا أهمية بعد.

- على كل حال وددت فقط إخبارك أني لم أكن وحدي بين جموع الحفل أنصت لخطبتك العصماء، صحبني إلى هناك من يهمك أمره إلى حد كبير.

- من يهمني أمره؟ من تقصد يا سيدي؟

- أبوك!!

(68)

ها قد أفاق ذلك الوحيد الحالم مؤخرًا من أحلامه التي قد تكون آخر عهده بدنيا الغرائب، لعل حلمه الأخير ذلك قد أضاف عليه بعضًا من السكينة بعض خوضه حوارا كان أحوج ما يكون إليه بعد افتقاده من يشاركه مثل هذا الحوار الهادئ..

لم يدرِ بنفسه إلاّ ممسكا بموسى صغير جارحًا به نفسه، يستمد من دمائه مدادًا لكتابة آخر ما أمكن لأقلامه أن تخطه، غير أنه حبر من نوع خاص، مدد للحبر من نوع خاص، قلم من نوع خاص... وأخيرًا صفحات لاحتضان خواطره من نفس النوع الخاص، دماؤه أحبار ومددها شرايينه التي طالما نبضت بيأس ولدته فيها عقبات أيامه، سبابته قلم وحوائط زنزانته قد استعدت لاستقبال تدويناته على خير ما يكون، لترتسم على ذلك الجدار تلك الكلمات الأولى من نوعها في مكان كهذا:

- هذا ما جنته عليّ أسرتي التي لا أعلم عنها شيئًا، لم أشهد لأحدهم طلعة، لم أسمع لأحدهم كلمة، ولم تنعم عيناي يومًا ولو بنظرة خاطفة لأحد أفرادها، لعل هذه الطلعة أو تلك الكلمة أو هذه النظرة كانت ستزيل عني بعض ما أنا فيه الآن، لا أعلم على من يقع ذنب الجناية اليوم، هل على أبي الراحل تاركًا أمي بين ثلاثة توائم رُضع بلا سند يتكأون عليه، أم على تلك الأرملة التي أبت تحمل المسئولية وحيدة بعد رحيل زوجها، أم على توأماي اللذين لا أعلم لهما مصيرًا، هل

أسبقهما إلى العالم الآخر أم يكونان السابقين إليه، أم يكون الذنب على كاتب تلك الكلمات بدمائه على جدار زنزانته الآن، لم أعد أعبأ بكل ذلك على أية حال، جَنى من جَنى وجُنِيَ عليه من جُنِيَ عليه، وها أنا الآن أنتظر بين جدران أربعة مصير الإعدام راحلاً عن الجناية وأطرافها، راحلاً عن دنيا لا أذكر عنها ولا عن أهلها شيئًا إلاّ من روايات ذلك العجوز قبل أيام بين تلك الجدران، لعل عزائي الوحيد أني لا أحمل من الذكريات ما هو دافع لحزني على فراق أحبة بادلوني حبهم أو وداع أصدقاء شاركوني صداقتهم، من يدري؟ لعلّي أجد بين أنحاء العالم الآخر من يبادلني حبه ويشاركني صداقته.

عشت سنوات تائهًا بين شر أحد توأماي وطيبة ثانيهما، وأنا بينهما لا أذكر من سمات شخصيتي ما كان في سالف الأيام وسابق الأعوام، هل إلى شر الأول أنتمي ؟ أم إلى طيبة الثاني انحازت شخصيتي البائسة تلك، كلاهما قد حاربته دنياه بأعدائه، لا أدري إن كنت قد حظيت بمثل أعدائهما أم كانت أيامي على مثل ذلك الهدوء الذي رأيت عليه ولدي الناجح، لم يعد ذلك ذا أهمية الآن وقد أرسلتني الأحداث في نهايتها إلى تلك الجدران الأربعة، حيث زنزانة مظلمة قد حظيت بالعديد من القتلة وسافكي الدماء قبل ذلك في ماضيها القريب والبعيد، من يدري لعلها ذات يوم قد ضمت بين أركانها مظلومًا، لكنى لا أراها قد ضمت ضحية لدقائق حادث أرسلته إلى سنوات واجه فيها مشكلات أخويه ومحبيهما دون ذنب جناه، لم يعد للكلمات

أهمية الآن، ليست إلاّ خواطر سجين على مشارف الرحيل من عالم عجز عن فهمه خلال سنوات، لم تشفع أحداثها له ليظفر بذلك الفهم المفقود.

(69)

الحديث لا زال مستمرًا بين ذلك الضابط (مازن) الذي أراد لسجينه ولو مشهدًا واحدًا مشرقًا في قصته التي قاربت على نهايتها، وماذا أكثر إشراقًا من رؤية ولده بين أحضانه يعانقه خاتمًا بعناقه حياته السينمائية هذه؟ غير أن ذلك الابن قد بدا كالمصاب بالجنون وهو ينصت إلى سرد مضيفه لقصة أبيه خاتمًا إيّاها بقوله:

- هكذا كانت حكاية أبيك طوال سنوات غيابه الخمس عنك بحذافيرها يا عزيزي، تابع كلماتك في حفل تكريمك من وراء ستار كأقل من القائمين على خدمة الزوار، فقط ليفي بعهده إليك قبل أعوام على أكمل وجه قبل الرحيل، غير أني قد رغبت في اجتماعه بك واجتماعك به في لقاء قد يكون الأخير بينكما، لكنه بالتأكيد رغم صعوبته على كليكما سيعنى لكما الكثير.

-أت، أتعنى أن أبي، موجود في هذا المكان؟

- وأرسلت من يأتي به لرؤيتك أيضًا يا بني، ليست إلاّ دقائق فقط من انتظار تضيفها إلى سنوات انتظارك!

ليست بالفعل إلاّ دقائق وكانت طرقات أحدهم على باب المكتب تستأذن لصاحبها في الدخول، قبل أن يُسمح له داخلا في هيئة الحامل لخبر أراد إيصاله لسيده على عجل، وقد جحظت عيناه، واضطربت دقات قلبه بشدة يعلو لها صدره ويهبط قائلاً بصوت متقطع جرَّاء سرعة تلاحق أنفاسه:

- سيدي، سيدي، السجين الذي أرسلتني لاستدعائه......

- ماذا به، انطق

وجدناه ملقى على أرض الزنزانة بلا حراك وكأنه به يصارع الموت بالكاد يلتقط أنفاسه.

- ماذا؟

قالها (مازن) وقد همَّ يهرول إلى حيث تلك الزنزانة المذكورة يتبعه ذلك الابن الآمل في عناق أخير لوالده كما كان وعد هذا الضابط له، حتى وصلا أخيرًا إلى حيث ذلك السجين الذي بدا أن انقطاعه عن الطعام لأيام متواصلة قد عجَّل بساعته يلفظ آخر أنفاسه، انتبه لذلك الشاب القادم إليه يحتضنه غير عابئ بتلطيخ الدماء لثيابه حتى استقر رأسه على صدر ذلك الابن، وقد ارتفع نظرُه إلى نظرِه المتأمل له قائلاً تلك الكلمة التي اشتاق لنطقها لسانه وتاقت لسماعها آذان أبيه:

-أبي، أبي!

- إيهٍ أيها الفتى الذي طالما طاردني عهده في أحلامي وطاردته في يقظتي، أنه أخيرا ذلك اللقاء الذي طال انتظاري لرؤية ثاني أطرافه خمس سنوات، لعلّي لم أتخيل قطّ أن الأيام ستنعم عليَّ بإتمام هذا اللقاء، وإن راودتني بعض لحظات الأمل في عطف أقداري عليَّ بانعقاده ذات يوم، نعم لم أتوقع أن يكون في زنزانتي أختم به حياتي البائسة على صدر ولدي صاحب الوعد، لكنه كان الأمل بالانعقاد على كل حال، أيام من اليأس ولحظات من الأمل، هكذا كانت حياة

أبيك في غيابك يا فتاي الناجح، اعلم يا عزيزي أن أباك أبدًا لم يفرط في إخلاصه لوعدك، وإن أجهدته محاولاته اليائسة في الكشف عن صاحب الوعد أو طبيعته، غير أن رفيقتيه الوحيدتين طوال تلك السنوات كانتا تلك الورقة الصغيرة التي خطتها أناملك إلى جوار صورة جدك، أتنقل بهما بين حياتي أستعد للتفريط في أي شيء سواهما، لا لشيء إلاّ لثقتي أنهما تربطاني بماض عشته بالفعل إلى جوار اثنين مِن مَن بادلوني حبهم حقًّا، وأني وإن خابت توقعاتي تجاه تلك الصورة لصاحبها العجوز الذي بادلته وبادلني الحب دون حياة تجمعنا، فالحمد لله أن ثاني التوقعات قد أصاب بوجود من ضمتني وإياه حياة ظفرت منها بالكثير من لحظات السعادة المفقودة في تابع السنوات، وصيتي لك الآن أن تمرر ورقتك تلك التي كتبتها لك إلى ولد لك في مستقبلك القريب يا بني، أخبره عن جد له صارع دنياه على مدار خمس سنوات حتى نالت منه في نهاية الأمر فرحل كخصم شهد له الجميع بالنبل، أما عن ورقتي تلك فاجعلها في قبري شاهدة على احتفاظي ببعض من وفاء أراده الله بين عباده من بني الإنسان، كلماتي إليك قد نفدت يا علائي العزيز، فقط اتمم وصية أبيك كاملة دون تقصير يحاجك به عند ربه يوم الموقف العظيم.

كلمات مختومة بوصية انهارت لها عينا ذلك الابن الذي انحنى على رأس أبيه يقبلها قائلاً يحاول الثبات:

- كن على ثقة أن ولدك قد تعلم منك الوفاء بالوعود والوصايا يا والدي العزيز، قيمك التي رسختها في ذهنه ورسمتها على قلبه لا زالت على حالها من الفخر بمرسخها والإشادة براسمها إلى آخر لحظات صاحبها، لا أدري إن كان لقادم أيامي أن تشهد وجود ولد لي أو لا، لكنها وإن فعلت فلا أظنني أجد له أكرم من اسم جده اسميه به، ولا أسمى من قيم جده ألقنه إياها، لتكن آخر كلماتي إليك أبي فخور باقتران اسمي إلى اسمك يا والدي العزيز، لا لشيء إلاّ لأنه الاسم الذي سخره الله لعبده الفقير؛ ليكون له الداعم الأول لحياة توَّج النجاح أولى مراحلها، قد تكون كلماتي إليك بلا جدوى الآن، لكن حسبي أنها الكلمات التي عطرها صدق مشاعر صاحبها مناجيًا بها صديقه الأول والأوفى بين كل من لاقى من أصدقاء يا أبي.

ابتسامة عريضة تصدرت رد ذلك الأب المفارق لولده قبل أن يختتم حواره لابنه قائلاً:

- آن لأبيك أن يثلج صدره أخيرًا يا بني، لعلها إرادة الله أن يكون إثلاج صدري الوحيد في حياتي التي أذكرها من ملفوظ فلذة كبدي، لا أملك الآن إلا حمدًا لله أن جمعني بك قبل الرحيل، الوداع يا صديقي الشاب، الوداع!

- أبي، أبي،

أبـــــــي!

ردَّدَ كلمته الأخيرة تلك إلى أبيه الذي لم يُجب، وقد جحظت عيناه في ثبات ينظر بهما إلى لا شيء معلنًا الرحيل عن تلك الأيام التي زهدها وزهد أهلها.

هي نهاية السباق أخيرًا إذن، سباق لذلك الراحل مع دنياه عبر عقود تاهت أحداثها في طي من النسيان لا يعبأ به من باقي المتسابقين إلاّ ولده الحاضن لجثته وحماه المُسخَّر لحل ذلك اللغز المستمر عبر سنوات، كان الوضع ذا طابع خاص نوعًا ما بالنسبة لهذا الشاب الحاضن لجثمان والده، تراءت أمام عينيه ذكريات سبعة عشر عامًا قضاها ووالده كأوفى صديقين يمكن أن تجمعهما علاقة صداقة واحدة، لعل تلك النهاية التي لا يراها جميع الحضور تليق بمثل هذا الرجل قد تزينت في آخر ساعاتها بهذا اللقاء الذي أزال عن بطل القصة الراحل الكثير من همومه، رحل عن الدنيا وقد وجد له من أهلها من يفخر به وبمشواره أخيرًا، لا يهم إن كان ذلك الفخر قد تأخر ظهوره أو لا، المهم أن ذلك المسكين قد حظي به في آخر لحظاته قبل الوفاة، شيعت له أحزان ولده الدامع ذلك جنازة مهيبة من عبرات عينيه المُجهدتين من بكائهما وزفرات فؤاده المنفطر بأحزانه، وهو بين عبراته وزفراته قد أطال احتضان والده ينتحب كما نسوة الريف على الراحلين من بعولتهن، تتابعه عن قرب مقلتا ذلك الضابط الذي لم يستطع لخيول دموعه كبحا؛ فكان سيلهما إشفاقا على الابن المنتحِب والأب المنتَحَب عليه كما لم يسيلا من قبل.

(70)

كان الصباح التالي أكثر هدوءاً من سابقه إلى حد كبير، لعلها طبيعة ذلك المكان الذي أشرقت شمسه صافية على تلك الساحة الواسعة الحاوية لمجموعة كبيرة من القبور قد جعلت من الهدوء واقعًا مفروغًا منه، ساكن جديد قد انضم قبل ساعات لهؤلاء الجيران المغادرين حياة الآدميين كلٌ في حين أراده الله في لوحه، ليستوي التراب فوق وجوه الجميع من قاطني هذه المدينة تحت الأرض بغض الطرف عن موعد انضمام كل منهم إلى قافلة الأموات، كلٌ في محاكمته مشغول بإحسان يجَازَى به على إحسانه أو عقاب يحاسَب به على آثامه، وإن كان القاسم المشترك بين الجميع محسنين وآثمين هو خضوعهم لأحكام ميزان لا يعرف إلاّ العدل المطلق ولا يجازى إلاّ به، هكذا كان خلق ربه له وهكذا كان امتثال عباد الرب لأعدل المحاكمات التي يديرها هذا الميزان.

كان ذلك السكن الجديد لذلك الساكن الواصل للتو على موعد مع ثلاثة من أبرز الزائرين الذين شهدهم حياة ساكنه غريبة الأطوار، رجلان تتوسطهما امرأة حاملة بين أنامل يمينها تلك الأوراق ذات الغلاف الأخضر التي تحفظها عن ظهر قلب قد اصطفوا جميعًا على خط واحد أمام القبر قبل أن يبدأ أكبرهم سنًا الحديث قائلاً:

- هي تدابير القدر إذن التي جمعت ثلاثتنا مجددًا مع هذا الراحل يا سادة دون سابق ميعاد للتجمع، يبدو أن أمر ذلك الرجل سيظل على حاله من الغرابة حتى بعد موته.

- صدقت يا حضرة الضابط، صدقت، جئت أودعه الوداع الأخير غير عابئة بانكشاف حقيقته أنه أبدًا لم يكن (شريفنا) كاتب هذه الأوراق بين يدي، أثبت أنه لا يقل عن توأمه نبلاً على أية حال.

- كلاكما قد جاء لوداع رجل عرفه على أنه توأمه إذن، حضرة الضابط (مازن) جاء لوداع عمي (عبد الرحمن) الذي كثيرًا ما ضمتهما حلبات نزاع واحد، والسيدة (لبنى) قد جاءت لوداع عمي (شريف) كاتب أوراقها التي تراها مرجع حياتها الأول، ألهذا الحد هان أمري أبي (محمد) على الجميع حتى جاء إليه الزائرون يرونه في عباءة غيره؟

- بل جئنا لزيارة ذلك الـ(محمد) يا صديقي الشاب، كان كما وصفته السيدة (لبنى) قبل ثوان، نبيلا شرفت بمعرفتي به، إنقاذه لولدي لازال يطوق عنقي وعنق من أنقذه حتى اليوم، بل وحتى انتهاء حياتينا.

- الأمر كما قال حضرة الضابط يا عزيزي (علاء) زيارتي هذه قُصِدَ به أباك لا غيره وهو المطوق لعنقي وعنق أخي بجميل لا يقل عن ذلك المطوق عنق ذلك الضابط وولده، غير أن الوقت لم يسعفنا لرده إليه، أما عن عمك (شريف) فلا أعلم إن كنت سأظل على أملي القديم

بلقائه مستقبلا أم لا؟ يكفيني على كل حال ما أعاده عليّ أبوك من ذكريات جمعتني وأخي وعمي به.

- على ما يبدو أن سنوات غياب أبي قد شهدت الكثير مما لم يسع وقت حديثك إليّ سرده يا حضرة الضابط، نجح خلال وقت قصير في نيل ثقة أطراف عدة تدين له بالجميل.

- استنتاج في محله يا (علاء)، ما زال في جعبتي عن سنوات غياب أبيك عنك الكثير لم يسمح به وقت لقائنا كما قلت، لن أبخل عليك بأي من تفاصيلها إن أردت على كل حال.

- أشكرك جزيل الشكر يا حضرة الضابط.

- ليس إلاّ حقك في معرفة تاريخ أبيك يا عزيزي، أما الآن فقد حان وقت الانصراف، ليس لدى لساني من الكلمات ما أسوق لذلك الراحل الآن.

- ولا لدى ألسنتنا يا حضرة الضابط، أظنه الوقت المناسب لانصراف الجميع.

قالتها (لبنى) قبل أن تخطو إلى القبر خطوة تضع فوقه تلك الأوراق التي طالما قدّستها متراجعة بعد وضعها إلى مكانها تتعلق بها أنظار مرافقيها في استغراب دفع أصغرهما ابن ساكن القبر لسؤالها:

- ظننت تلك الأوراق ذات قيمة لديك أغلى من أن تتركيها على قبر أحدهم يا سيدة (لبنى) قد تعبث بها بعض الأيادي.

- لا أظن أحدًا يهتم للعبث بمثلها يا عزيزي، يكفيني منها ما مضى من السنوات، حفظتها تمامًا عن ظهر قلب، من يدري لعل أحدًا يعثر عليها ذات يوم تغير من مجرى حياته المُعوج شيئًا إلى الاستقامة.

- صدقتِ يا سيدتي، صدقتِ!

قالها (علاء) قبل أن يدير الثلاثة ظهورهم إلى القبر وصاحبه منصرفين كلٌ إلى مقصد يختلف عن الآخرين، لا يعلم إن كان سيجمعهم بمرافقيه هذين لقاء آخر أو لا.

ليست إلا أمتارًا قلائل خطوها جميعا عن القبر حتى كان ذلك الظهور المفاجئ لذلك الرجل الذي بدا عليه كأنه من العاملين على نظافة وخدمة هذه القبور، رجل طال شعره الأشعث الذي بدا على غير ما خُلِقَ عليه من النعومة، وذقن لا تقل طولا ولا شعثا عن شعره ذا اللونين الأبيض والأسود، ارتسمت خطوات حذائه المهلهل على رمال تلك الساحة في بطئ تكسوه تلك الملابس التي بالكاد تكسو عاريا وقد بدت كأقل من الأكفان، لفتت انتباهه تلك الأوراق وغلافها الأخضر بشدة، فكان ضيق عينيه لرؤيتها كأنه به قد رآها قبل اللحظة قديمًا، ألقى مكنسته جانبًا وأمسك بها يتصفح سطورها في تمعن لثوان، قبل أن ترتسم في ذهنه بعض الخطوط الباهتة لماض، كأنه به قد نسيه وقد رأى نفسه كأنه قد أمسك قلمًا ذات يوم وخطت يمناه بعض الكلمات التي حوتها تلك السطور، كان رد فعله طبيعيا برفع رأسه عن الأوراق يتلفت عن صاحب لها قبل أن تصطاد عيناه هؤلاء الثلاثة

على مسافة قريبة وفى أوسطهم هذه التي ازداد لمراقبة سيرها ضيق عينيه كأنه به قد شهد سيرها ذلك أيضا قبل اليوم، لترتفع سبابته ووسطاه وإبهامه إلى رأسه يفركون جانبها يحاولون ضبط ذلك الإرسال المشوش داخل ذهنه في محاولة جاهدة لاكتمال صورة، هو على ثقة أنها قد خالطت ذهنه المريض ذلك قبل اليوم فكان نداؤه:

- عم (سعد)، عم (سعد)!

نداء جاء له ذلك العجوز هرولة يجيب:

- ماذا تريد يا بني؟ ماذا حدث؟

- انظر إلى هذه؟

- ما هذه؟

- بعض من أوراق أظنها تخص هؤلاء السادة هناك كأنهم قد نسوها، غير أني أظن أني رأيتها قبل الآن قديمًا.

- إيهٍ يا عزيزي، أنت دومًا على تلك الحالة منذ أتيت بك إلى هنا بعد ذلك الحادث الذي رأيتك ملقى على رصيف الطريق بعده قبل سبعة سنوات، ترغب في التعلق بأي شيء يربطك بماضيك الذي لا تذكره دون جدوى.

- لا يا عم (سعد) هذه المرة أنا على شعور قوي بصدق حدسي، ليست كسابق المرات.

- اهدأ يا بني، اهدأ، لا حاجة لك الآن بذلك الماضي البائد وقد تركته قبل سبعة أعوام اعتدت خلالها حياتك الجديدة تلك إلى

جواري، اذهب إلى هؤلاء النفر وأعد إليهم أوراقهم في هدوء وحسب.

قول استقبله ذلك الناجي من حادث ببعض الإحباط قبل أن يستسلم لرأي ذلك العجوز قائلاً يسبق قوله زفيره

- سأفعل يا عم (سعد) سأفعل!

لفظها وهرول خلف هؤلاء الثلاثة المذكورين مناديًا:

- أيها السادة، أيها السادة أصحاب الأوراق!

نداء التفت له الثلاثة رفقاء قبل أن يباغتهم ذلك الحامل لأوراقهم بقوله مسلطًا نظره إلى (لبنى):

- يبدو، يبدو أنكم نسيتم هذه الأوراق على هذا القبر هناك!

ظل ثوان على حالة من الصمت ينتظر جوابًا من أحدهم يقلب نظره بينهم، إلا أنه لم يجد إلا تلك النظرة الصادمة من الرجلين وقد فتح كل منهما فاه في هيئة أقرب للذهول جاحظة عيناهما بلا رد...قبل أن ينتبه الرجال الثلاثة إلى تلك السيدة التي كان ردها الوحيد عند رؤية مناديها ذلك السقوط الفوري بعد فقدان وعيها مغشيًا عليها.

للتواصل مع الكاتب

ahmed.ibraheeem@hotmail.com